سلسلة تاريخ العرب والإسلام

سَامَرَّاء

دراسة في النشأة والبنية السكانية

د. صالح أحمد العلي

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

٤٨٢٥٠

سامرّاء

دراسة في النشأة
والبنية السكانية

د. صالح أحمد العلي

سامرّاء

دراسة في النشأة والبنية السكانية

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

شارع جان دارك - بناية الوهاد

ص. ب. ٨٣٧٥ - بيروت - لبنان

تلفون: ٣٥٠٧٢١/٢ (٠١)

تلفون + فاكس: ٣٤٢٠٠٥ - ٣٥٣٠٠٠ (١ ٩٦١)

e-mail: allprint@cyberia.net.lb

الطبعة الأولى ٢٠٠١

تصميم الغلاف: عباس مكي

الاخـراج الفني: بسمة التقي

تقديم

أنشئت سامرَّاء(*) في أواخر الربع الأول من القرن الثالث الهجري، وظلت مركزاً لإقامة الخلفاء العباسيين قرابة خمسين سنة عاد بعدها الخلفاء إلى بغداد. وكان الدافع الرئيسي لإنشائها الابتعاد عن الأجواء التي سادت بغداد وباعدت أهلها عن تأييد الخلافة العباسية. واستهدف المعتصم من إنشائها تأسيس مدينة متكاملة في تكوينها لإقامة الخليفة وجنده وحاشيته ومؤسساته الإدارية، ولتكون مركزاً حضرياً تنشط فيه الحياة الاقتصادية والحضارية والفكرية التي تقدمت إبّان هذه الحقبة وأثرت في تكوين بغداد السكاني دون أن يقضي عليها أو يخمدها. ولم يكن المعتصم أول خليفة ينقل مقامه من بغداد، فقد فعل ذلك من قبله الرشيد والمأمون، فأما الرشيد فإنه خلال أيامه التي دامت عشرين سنة لم يمضِ منها ببغداد سوى ثماني سنوات، وقضى أربع سنوات في التنقل، واستقر خلال السنوات الثماني الأخيرة من خلافته في الرقة. وأما المأمون فإنه بعد أن صفت له الخلافة قضى السنوات الأربع الأولى في خراسان، ثم قضى السنوات الأربع الأخيرة من خلافته متنقلاً بين دمشق ومصر والثغور.

اختار الخليفة العباسي المعتصم موقع سامرَّاء في رقعة غير مأهولة بالسكان وأشرف على تخطيطها وبناء قصورها؛ وجلب إليها من المتصلين به ومن يقوم بالخدمات لهم، وكان الجند منذ تأسيسها العنصر المتميز في عددهم ومكانتهم وتأثيرهم في توجيه تخطيطها؛ إلا أنها كانت أيضا مركزاً للإدارة والحياة المدنية، فهي شأن الأمصار العربية الأولى، البصرة والكوفة وحتى بغداد، لم

(*) بالعودة إلى «معجم البلدان» لياقوت الحموي، يتبيَّن أن لاسم هذه المدينة وجهين هما: «سامرَّاء»، بِمَدِّ الألف، و«سامرّا»، بِقَصْر الألف. ولأن الوجه الأوَّل هو الأكثر شيوعاً، فقد اخترناه واعتمدناه في الكتاب كله (المُراجِع).

تكن مجرد «ثكنة عسكرية»، وإنما سرعان ما تنامت فيها الحياة الحضرية وما تحويه من نشاطات اقتصادية وفكرية.

تظهر حصيلة المعلومات المستمدة من المصادر المعتمدة صورة عامة تختلف في كثير من مظاهرها عما ساد أفكار الناس. فالمعتصم لم يكن أول خليفة عزف عن جعل بغداد مقر إقامته الدائم؛ وانحراف أهل بغداد لم يبدأ به وإنما كان قائماً قبله؛ لم تكن له صلة دم بالأتراك، ولا كان أول من جلبهم، ولم يكونوا عماد جيشه، فقد كان بجانبهم أعداد أكبر من الخراسانية والمغاربة العرب وغيرهم؛ وأسكن أكثر الأتراك في أطراف سامرّاء وليس في قلبها، وفرّقهم في السكن، ولم يكن لهم أو لرؤسائهم دور بارز في الحياة السياسية والإدارية إلا بعد مقتل المتوكل وما أعقبه من بروز القادة وما حدث بينهم من مشاحنات ختمت بعودة الخلفاء في مقامهم إلى بغداد، وكان لهذا الانتقال الأثر الأكبر في تدهور أحوالها.

ذكرت المصادر عن سامرّاء وأهلها معلومات غير قليلة متفرقة ومشتتة، ولم يُفرِد لها بحثاً غير اليعقوبي في كتابه البلدان الذي صار المعتمد الأول للباحثين المحدثين، غير أن كتاباته عنها غير مستوعبة وقائمة على ما جاء في نسخة فريدة قد يكون فيها نقص وبعض التشويش.

أوليت سامرّاء في الأزمنة الحديثة اهتماماً ملحوظاً، فجرت في آثارها تنقيبات وصفت في عدد غير قليل من الكتب والمقالات، ونشرت عنها أبحاث كثيرة تصف بعض مخلفاتها الأثرية وبعض جوانب الحياة السياسية والأدبية والفكرية والحضارية؛ ولكن لم يُفرد بحث للتركيب السكاني لأهلها وتنظيماتهم؛ وهذا الكتاب يعالج هذا الجانب، ويهدف إلى سدِّ هذا الفراغ، وإذا كانت كثير من الحقائق التي وردت فيه معروفة من قبل، فإن الصورة العامة التي يقدمها لم تَحظَ بالعناية الجديرة بها، وهي إسهام في توضيح أحوال سامرّاء وفي تطور الحياة الحضرية في الإسلام نرجو أن يكون في نشرها توضيح لجوانب كانت مغفلة.

ومن الله التوفيق

الفصل الأول

المصادر

لم يرد ذكر كتاب مفرد لتاريخ سامرَّاء(*) غير كتاب بهذا العنوان ذُكر من السخاوي أنه ألّفه أبو البركات ونقل عنه الصفدي في كتابه الوافي في الوفيات في ترجمة يونس بن أيوب[1]، ولم يصلنا هذا الكتاب، لذلك فإن اعتمادنا في دراسة تاريخ سامرَّاء، على ما كتب المؤلفون عنها ضمن النطاق العام لدراساتهم، وتيسيراً للبحث نصنفها إلى كتب البلدانيين، ومؤلفات التاريخ العام، وكتب الآداب العامة، ثم الدراسات الأدبية والتاريخية والأثرية الحديثة.

كتب البلدانيين

ذكر عدد من البلدانيين الذين وصلتنا كتبهم أحوال سامرَّاء عندما كانت مركز الخلافة العباسية وبعد انتقالهم منها، وفي كتاباتهم المقتضبة إشارة إلى بعض خصائصها.

وأقدم من وصلتنا كتاباته عن سامرَّاء البلاذري الذي خصَّها في كتابه «فتوح البلدان» بصفحة ذكر فيها إنشاءها وبعض معالمها، ومحاولات بعض الخلفاء العباسيين الأولين نزولها، ثم محاولات المعتصم بناء مدينة عند القاطول، ثم اختياره موقع سامرَّاء، وبعض ما بناه، وتشييد الواثق للهاروني، وبعض تفاصيل

(*) بالعودة إلى «معجم البلدان» لياقوت الحموي، يتبيَّن أن لاسم هذه المدينة وجهين هما: «سامرَّاء»، بِمَدِّ الألف، و«سامرّا»، بِقَصْر الألف. ولأن الوجه الأوَّل هو الأكثر شيوعاً، فقد اخترناه واعتمدناه في الكتاب كله (المُراجِع).

(١) انظر: علم التاريخ عند المسلمين ٦٣٣.

أبنية المتوكل. وتاريخ الابتداء منها، والانتقال عنها[1]. ويبدو أن النسخة التي طبعها دي غويه من كتاب فتوح البلدان، وأعاد طبعها رضوان محمد رضوان وصلاح الدين المنجد غير كاملة إذ نقل ياقوت عن البلاذري معلومات عن بعض المعالم العمرانية في سامرَّاء ومنطقتها غير موجودة في النسخة المطبوعة؛ فمن ذلك نقله عن البلاذري «بيعة المطيرة محدثة بنيت في خلافة المأمون ونسبت إلى مطر بن فزارة الشيباني وكان يرى الخوارج»[2] وقوله «الإيتاخية تعرف بإيتاخ التركي سماها المتوكل المحمدية باسم ابنه محمد المنتصر، وكانت تعرف أولا بدير أبي صفرة، وهم قوم من الخوارج، وهي بقرب سامرَّاء»[3] وقوله «دير الطواويس وهو بسامرَّاء بكرخ جدان يشرف عند حده آخر الكرخ على بطن يعرف بالبس فيه زروع، يتصل بالدور وهو الدور المعروف بدور عربايا، وهو قديم كان منظرة لذي القرنين، ويقال لبعض الأكاسرة، فاتخذه النساطرة ديراً في أيام الفرس»[4].

تفرد اليعقوبي في كتابه البلدان بذكر تفاصيل عن سامرَّاء، فخصّها باثنتي عشرة صفحة وهي أكثر ما خصص لأي بلد بعد بغداد، وتميزت معلوماته عنها بالشمول وكانت معتمد الباحثين المحدثين، ولم تصلنا منه إلا نسخة واحدة طبعها دي غويه مكملة مع كتاب «الأعلاق النفيسة» لابن رسته. ولا نعلم فيما إذا كانت المعلومات الواسعة التي ذكرها كاملة، إذ لم ينقل من المتأخرين ما كتبه عن سامرَّاء غير عبد المنعم الحميري في كتابه «الروض المعطار» حيث نقل صفحات متطابقة مع المطبوع من كتاب «البلدان» وأغفل نقل معلومات أخرى وردت في المطبوع، وقد نقل الحميري عنه ما كتبه عن القاطول (١٥٠) والجعفري (١٧٧) والجوسق (٨٢) وسامرَّاء (٣٠٠).

رتب اليعقوبي معلوماته تبعاً لتعاقبها الزمني، فبدأ بالكلام عن أحوال موقعها، واهتمام بعض الخلفاء العباسيين بها، ثم تحدث عن الاهتمام بجلب

---

(١) فتوح البلدان ٩٦.
(٢) معجم البلدان ٤/٥٦٨.
(٣) م.ن ٤/ ٤٣٠.
(٤) م.ن ٢/ ٣٥.

الأتراك، واستقرار المعتصم على اختيار موقع سامرَّاء، وإعمار الجانب الشرقي. ثم تحدث عن توسعها في زمن الواثق، ثم في زمن المتوكل، وبناء الجعفرية وخططها، والتوسع الذي حدث فيها زمن المعتمد. وشمل بحثه القصور، والشوارع، والإقطاعات والأسواق. وكان بحثه المعتمد الأول للباحثين المحدثين، وبخاصة الآثاريين الذين عنوا بآثار القصور. ولم تكتشف حتى اليوم من كتاب اليعقوبي مخطوطة أو مقتبس عن سامرَّاء يضيف أو يعدل ما جاء في المطبوعة علماً بأن ما جاء فيها لا يحجب حقيقة أنها غير مستوعبة. أشار المقدسي إلى أحوالها في أيام عز إعمارها، ثم أفاض في وصف جامعها ومنارتها وأساطين المجامع، وإلى تدهور أحوالها؛ وتفرّد بالكلام عن الكعبة التي ادّعى أن المتوكل بناها ليحج إليها الناس.

وخصّ الاصطخري في كتابه «المسالك» سامرَّاء بثلاثة أسطر ذكر فيها ما بناه كل من المعتصم والمتوكل وقال «إن العمران في غربي دجلة قليل وإن العمارة منه ما يحاذي سامرَّاء أميالاً يسيرة، والباقي بادية»[1]. وكلامه أكثر انطباقاً على المنطقة، وليس على المدينة. وأفرد ابن الفقيه تسع صفحات لسامرَّاء (١٤٣-١٥١) ذكر فيها أقوالاً للشعبي ولإبراهيم بن الجنيد، ومحاولة الخلفاء العباسيين الأوائل اختيار منطقتها لتشييد عاصمة لهم. ثم ذكر ما شيده كل من المعتصم، والمتوكل من قصور فيها، وذكر أشعاراً في مدحها، وذكر معلومات عن النهر الذي عمله المتوكل لإدخال الماء إلى المسجد الجامع وشوارع سامرَّاء، والجسر[2] وتفرّد بذكر هذا النهر وبالقصور التي شيدها المعتصم بقربها. وذكر الشابشتي وصفاً لبعض قصور سامرَّاء وما شيده المتوكل، وبعض الأديرة التي بقربها. وأعمالها وضياعها مضمحلة، قد تجمع أهل كل ناحية منها إلى مكان لهم به مسجد جامع وحاكم وناظر في أمورهم وصاحب معونة يصرفهم في مصالحهم. وكانت مدينة استحدثها أبو إسحاق المعتصم بن الرشيد، طولها سبعة فراسخ على شرقي دجلة، وكان شرب أهلها منها، وليس

(١) المسالك ٨٥.
(٢) البلدان ٤٢-٥١ (مخطوطة شهد).

بنواحيها ماء يجري إلا أنهار القاطول التي تصبّ بالبعد منها إلى سواد بغداد. وعمارتها ومياهها وأشجارها في الجانب الغربي بحذائها ممتدة، والمواضع التي ذكرتها مداداً هي مدن قائمة بينها كدور العرباي والكرخ ودور الخرب وصينية سر من رأى نفسها في وسطها، ومن أول ذلك الى آخره عند دور الخرب نحو مرحلة لا ينقطع بناؤها ولا تخفى آثارها، وهي إسلامية، ولما ابتدأ بناءها المعتصم استتمه المتوكل، وهواؤها وثمارها أصح من ثمار بغداد وهوائها ولها نخيل وكروم وغلات يحمل إلى مدينة السلام. وهي الآن خراب أكثرها[1]، وكلامه عن تجمع النواحي ومساجدهم الجامعة وإدارتهم قد ينطبق على بعض المستوطنات حولها كالقادسية والمطيرة والماحوزة والدور. ونقل أبو الفدا عن العزيز المهلبي أن سامرّاء على شاطىء دجلة الشرقي، وهو بلد صحيح الهواء والتربة، قال وليس فيها عامر اليوم سوى مقدار يسير كالقرية، «ونقل عن ابن سعيد بناها المعتصم وأضاف إليها الواثق المدينة الهارونية، والمتوكل المدينة الجعفرية فعظم قدرها»[2]. وفي هذا النص إبراز لأهمية الهارونية، غير أن كلامه من حيث العموم مقتضب، ولا يشير إلى من سكنها من الناس. خصّ ياقوت سامرّاء بفصل طويل ذكر فيه اشتقاق اسمها وتحديد موقعها وقدمها، ومحاولات السفاح والمنصور اتخاذها عاصمة لهما، ووَضْعَ الأتراك في بغداد، ثم نقل ما ذكره المقدسي، وقصورها وكلفتها، وقصائِدَ في أحوالها وذكر أنها خربت فلم يبقَ منها إلا موضع المشهد الذي ترى الشيعة أن به سرداب القائم المهدي ومحلة أخرى بعيدة منها يقال لها كرخ سامرّاء، وسائر ذلك خراب يباب يستوحش الناظر إليها.

ونقل عن العزيزي للمهلبي قوله «وأنا اجتزت بسر من رأى منذ صلاة الصبح في شارع واحد ماد عليه من جانبيه دور كأن اليد رفعت عنها للوقت لم تعدم إلا الأبواب والسقوف، فأما حيطانها فكالجديد، فما زلنا نسير إلى بعد الظهر حتى انتهينا إلى العمارة منها، وهي مقدار قرية يسيرة من وسطها ثم سرنا

(١) صورة الأرض ٢١٨.
(٢) تقويم البلدان ٣٠١.

من الغد على مثل تلك الحال فما خرجنا من آثار البناء إلى نحو الظهر». ثم ذكر في مدحها أبياتاً وأقوالاً لابن المعتز يذكر مزاياها على بغداد[1].

كتب التاريخ العام

في كتب التاريخ العام التي تبحث الأحوال السياسية مرتبة تبعاً لتعاقبها الزمني معلومات عن سامرّاء وأهلها، وإشارات إلى بعض المعالم العمرانية فيها، وبخاصة في زمن المعتصم الذي شيدها، وإلى الأحداث التي تلت مقتل المتوكل إلى انتقال المعتمد منها إلى بغداد، حيث تعرضت الأحوال السياسية إلى اضطرابات ذكر خلالها عدداً من معالمها العمرانية وتركيب سكانها وبعض أحوالها، ومن هذه الكتب عدد أُلِّفَ بُعَيْد هذه الأحداث، وأبرزها كتابا تاريخ اليعقوبي ومروج الذهب للمسعودي اللذين أورد كل منهما معلومات مقتضبة قيّمة تكمل ما ورد في الكتب المفصلة.

ولابدّ من أن يكون في الجزء الأول من كتاب «الأوراق» للصولي معلومات مغنية إذا حكمنا عليها بما أورده في الجزءين التاليين المتوافرين لدينا. غير أن المخطوطة الفريدة التي في لينينغراد لم تنشر ولم يتيسر الاطلاع عليها.

ولتاريخ الطبري مكانة في دراسة معالم سامرَّاء وأهلها ولا بد من أن الطبري قد شهد بعض أحداثها المتأخرة، كما تابع أحوالها منذ بنائها، وقدّم تفاصيل واسعة عن كثير من الأحداث التي مرت بها ذكر خلالها تفاصيل متفرقة عن كثير من معالمها العمرانية وتركيب سكانها وأحوالهم ومواقفهم. فكتابه يوازي، إن لم يفُق، في أهميته كتاب: البلدان لليعقوبي في هذا المضمار.

وكَتَبَ الجاحظ رسالة طويلة عنوانها: «مناقب الأتراك» وصف فيها تركيب الجيش العباسي في زمنه، وعرض لخصائص مجموعاتها، وخصّ الترك فيها بأربع صفحات ذكر فيها ما تميزوا به، ومعلوماتها قيّمة، علماً بأنها لا تزيد على ثُمن الرسالة.

---

(١) معجم البلدان ٣/ ١٤-٢٤.

كتب الآداب العامة

شهدت سامرَّاء إبّان مقام الخلفاء العباسيين فيها الكثير من الشعراء والأدباء وأهل الفكر والعلم ومن أبرزهم الجاحظ والبحتري وأبو تمام والكندي وبنو موسى بن شاكر وعدد من الأطباء، واطلع كثير منهم على الأحداث، وشارك بعضهم فيها، وفي كتاباتهم وتراجمهم معلومات متفرقة غنية عن سامرَّاء وأهلها وصلنا كثير منها في المؤلفات التي عُنِيَتْ بالتراجم وأبرزها «معجم الأدباء» لياقوت الحموي، و«وفيات الأعيان» لابن خلكان: و«نثر الدر» للآبي، و«الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني.

الدراسات الحديثة

نشرت في الأزمنة الحديثة دراسات كثيرة تاريخية وآثارية عن سامرَّاء وأهلها، فأما الدراسات التاريخية فقد عُنِيَ أكثرها بدراسة الترك وشمل بعضها ما يتصل بأهل سامرَّاء؛ وفي طليعة هذه الدراسات كتابا بارتولد «تركستان حتى العهد المغولي» و«الترك في أواسط آسيا» وكلا الكتابين منقول إلى العربية.

ونشر ريتشارد فراي مقالاً عن الترك في الشرق الأوسط قبل «السلاجقة» طبع سنة ١٩٤٣ في مجلة مدرسة اللغات الشرقية في لندن وعن «الترك في خراسان» نشر في مجلة «العالم الإسلامي» سنة ١٩٤٥.

ونشرت كرونا «عبيد على الخيل» وبابيس عن «الجند الرقيق من الإسلام» وتطرقت هذه المؤلفات إلى الأتراك في سامرَّاء.

ونشر الدكتور فاروق عمر فوزي سنة ١٩٧٤ كتاباً عن «الخلافة العباسية في عصر الفوضى العسكرية» وصف فيه الأحداث التي أسهم فيها العسكر في سامرَّاء وبغداد بعد مقتل المتوكل وامتدت خمساً وعشرين سنة انتهت بانتقال مقام الخلافة إلى بغداد.

ونشر الدكتور يونس السامرَّائي كتاباً في ثلاثة مجلدات عن الحياة الأدبية في سامرَّاء. كما وُضعت دراسات لم تُنشر تتصل بالحياة في سامرَّاء؛ أبرزها رسالة بهجت كامل عن المتوكل وعصره ولبيد إبراهيم عن الترك.

وأبرز الكتب في هذا الميدان ما ألّفه هرز فيلد وأحمد سوسة وأحمد عبد الباقي. فأما هرز فيلد فقد عرض في كتابه «تاريخ سامرَّاء» معالم المنطقة، وخطط سامرَّاء وبعض أعمال الخلفاء فيها؛ ويضم بحثه معلومات غنية واسعة مستمدة من مصادر التاريخ والآداب العربية، ومن بعض الآثار.

وبحث أحمد سوسة في الجزء الأول من كتابه «سامرَّاء في عهد الخلافة العباسية» ١٩٤٨؛ موقع سامرَّاء، ومعالمها الأثرية والقاطول الكسروي، ومنشآت المتوكل، واستوعب المادة في كتب التاريخ مع تحقيقات ميدانية معززة بخرائط مفصلة.

ونشر أحمد عبد الباقي سنة ١٩٨٩ كتاب تاريخ سامرَّاء في مجلدين بحث فيه تاريخ الخلفاء فيها، ومعالمها العمرانية، والحياة الإدارية والفكرية فيها، وأفاد في نشره عن آثارها مع إضافة ملاحظات قيِّمة عن عدد من الآثاريين بمعالم سامرَّاء الآثارية التي لاقت اهتماماً منهم يفوق ما لاقته أيّ مدينة عراقية أخرى، ومن أوائلهم فيوليه الذي زار المنطقة ودرس بعض أطلالها، ووضع سنة ١٩١١ دراسة عن قصر المعتصم نشرها في «مذكرات علماء والرسائل الجميلة»؛ وكتب فازلييف سنة ١٩٠٩ بحثاً وصف فيه قصر المعتصم. وقامت البعثة الألمانية بدراسات ميدانية واسعة عن أطلال سامرَّاء وآثار معالمها العمرانية، ونشرت ثمار دراستها في عدة مجلدات ضخمة، ونشر هرز فيلد دراسة عن سامرَّاء، وتلاها فصول كتبها في مؤلَّف «رحلة آثارية في منطقة الفرات ودجلة» صدر سنة ١٩١١، ثم أعقبه بدراسة أولية عن قصر بلكوارا، وقصر العاشق سنة ١٩١٢، ثم بمقال مختصر عن سامرَّاء نشره في الجزء الخامس من مجلة «الإسلام» سنة ١٩١٤ ثم دراسات عن زخارف سامرَّاء وبعض معالمها الأثرية (برلين ١٩٢٣) وتحدثنا أعلاه عن كتابه تاريخ سامرَّاء، ونقلت مخلفاته العلمية إلى متحف بيبودي في أمريكا ومنها خارطة لم تُنشَرْ عن معالم سامرَّاء العمرانية.

ونشر الأستاذ كوهنل كتاباً عن سامرَّاء والفنون الإسلامية (برلين ١٩٣٩) وكتب روجرز فصلاً عن سامرَّاء نشره ضمن كتاب «المدينة الإسلامية» سنة ١٩٧٠ عرض فيه ملاحظات قيِّمة عن سامرَّاء.

ومن أحدث المعنيين بدراسة سامرَّاء الآثاري البريطاني السر نورثج الذي درس عدداً من معالم سامرَّاء العمرانية مستعيناً بتصاوير جوية حديثة، ونشر ثمار بعض أبحاثه في مقالات، منها تقرير عام عن سامرَّاء ومعالم منطقتها (١٩٨٣). ودراسة عن جامع أبي دلف نشرها في مجلة Iraq سنة ١٩٨٥،١٩٨٦؛ وأخرى عن حلبة الخيل نشرها في مجلة مدرسة اللغات الشرقية والأفريقية في لندن سنة ١٩٩٥؛ كما نشر سنة ١٩٩٠ بحثاً عن القادسية وأنهارها، ثم بحثاً عن الاصطبلات نشره سنة ١٩٩٢ في مجلة الأركيولوجيا الإسلامية، وبحثاً عن قصر الخاقاني نشره في مجلة الفنون الشرقية سنة ١٩٩٣، وبحثاً عن سامرَّاء نشره في الحلقة الدراسية الشرقية في جامعة برنارد كارل من توبنجن سنة ١٩٩٠، وأكثر أبحاثه معززة بخرائط معتمدة على المسح الجوي، كانت معتمدنا في الخرائط المنشورة في هذا الكتاب.

وقامت مديرية الآثار العامة بدراسات ميدانية لبعض معالمها، ونشرت تقريراً عن حفريات سامرَّاء سنة ١٩٤٠؛ وكتاباً عن سامرَّاء أصدرته في السنة نفسها، وكتب ناجي الأصيل بحثاً عن سامرَّاء نشره في مجلة الأندلس ١٩٤٧ وآخر نشره في سومر ١٩٤٧؛ كما نشر حافظ الجنابي دراسة نشرها في سومر ١٩٨٠ ونشرت مجلة سومر في أعداد متفرقة من ثمار الدراسات الميدانية لآثار سامرَّاء.

لقد راعت الدراسة التي نقدمها في هذا الكتاب المعلومات التي أوردتها المصادر الأدبية والدراسات الآثارية الحديثة إلا أنها ركزت على الأحوال السكانية وأسس الحياة الحضرية ومظاهرها؛ وهي تبدأ بمقدمة عن سمات المعتصم وتوجهاته، ثم وصف عام للمكان الذي اختاره لتشييد عاصمته ثم عن قصور الخلفاء وأصحاب المكانة والجاه، يتلو ذلك أبحاث عن التركيب العرقي

لأهل سامرَّاء، ومناطق سكن كل مجموعة، وأحوالها الاجتماعية والمعاشية وهي محاولة لتوضيح مظاهر وتطور الحياة الحضرية وأسس الأحوال العمرانية والاقتصادية مما لم يلقَ من الباحثين ما يستحقه من اهتمام على الرغم من سعة أثره باعتباره أساس هذه الأحوال.

الفصل الثاني
المأمون وأهل بغداد

بغداد قبل خلافة المأمون:

حرص الخلفاء العباسيون الأوائل على تثبيت السلم والأمن في بغداد بعد تأسيسها فازدهرت فيها الحياة الاقتصادية والفكرية. وتزايد سكانها بمن أمَّها وأقبل على الإقامة فيها، وكوَّن قربُ السكن والمصالح المادية والفكرية تعاوناً في الحياة والتعايش وتوثيق الروابط بينهم دون أن يضعضعها تعدُّد التيارات الاجتماعية والفكرية التي ظهرت فيها وزادت في حيويتها وتقدير الناس لأهميتها في ازدهارهم وتقدُّمهم[١].

وكان النزاع بين الأمين والمأمون الذي امتد سنوات وأدّى إلى حرب طاحنة وحصار شديد قد أحدث رجة واسعة وعميقة في حياة أهل بغداد. وقد اعتمد المأمون في محاولته الانتصار على قوات من خراسان الذين كانوا عماد ثورة العباسيين ونجاحهم في القضاء على الدولة الأموية وإقامة خلافتهم وتأمين السلم في بغداد وإعادة التماسك في وحدة الدولة. ولكن القوات التي أرسلها المأمون كانت تتحدى مكانة بغداد المتميزة. وقد أفلح المأمون في تحطيم الجيش الذي كان يدافع عن الأمين وخلافته، ولكن أهل بغداد عوضوا عن هذا الفراغ عسكرياً بقيام القادرين على القتال من أبناء الشعب ومن غير الجند بالدفاع عن مدينتهم، فلم يفلح طاهر بن الحسين بجيشه المدرب المنتصر في أن يخترق حصار بغداد التي صمدت أكثر من سنة، ولم يَنْهَر دفاع أهلها إلا بعد

---

(١) انظر كتابنا «بغداد مدينة السلام» وبخاصة الجزء الثاني.

التخلخل الذي أصابهم جراء الحصار الاقتصادي وتخاذل عدد من ذوي المصالح المادية في بغداد.

موقف أهل بغداد من انتصار المأمون:

أظهر مقتل الأمين وانتصار جيوش المأمون قضايا متعددة يتجلى منها نفور أهل بغداد من انتصار المأمون الذي أدى إلى تفكك الجيش الذي كان يحفظ الأمن والنظام في بغداد. وقويت بتفككه «المليشيات» الشعبية في بغداد، فتحدَّت السلطة، وعبثت بهيمنتها، وتولت تأمين إدامة الحياة لأهل بغداد، وانقسمت الأسرة العباسية فأيد فريق منها إبراهيم بن المهدي الذي نادى بنفسه خليفة فيها، واضطرب الأمن خارج بغداد، فثار عدد من الطامحين ومن أبرزهم أبو السرايا العلوي، واعتمد في ثورته على أهل الكوفة الذين كانت لهم منذ القدم ميول علوية، ولا بدّ أن استياءهم زاد بنمو بغداد التي أصبحت مركز الخلافة والمكان الذي يهيمن رجاله على شؤون الدولة وتنصب فيه الجبايات.

ولا بدّ أن هذه الأحوال أضعفت سيطرة الدولة على الريف وقادت إلى تفكك النظام فيه وتدهور الزراعة، مما أدى إلى تناقص الجبايات التي تعتمد عليها الدولة في إعاشة رجالها وجندها.

أدرك المأمون أهمية بغداد ومكانتها المثبتة في الدولة، وأدرك أن لباس الخضرة وتعيين علِيّ الرضا ولياً للعهد زاد من استياء بغداد التي فهم أهلها منهما أن المأمون معتزم السير على سياسة تخالف ما ألفه أهل بغداد واعتبروه جزءاً من سماتهم المميزة، فترك لباس الخضرة وعاد إلى لبس السواد، وبذلك أضعف الأسس التي استند إليها المعارضون في تمردهم على المأمون، ولم يتمادَ في اتّباع هذه السياسة المتحدية لمشاعر أهل بغداد، وإنما عمل على تبديلها، فقتل الفضل بن سهل الذي كان ذا ميول فارسية ويدفع المأمون إلى الأخذ بها. وتوفي علي الرضا. وانتقل المأمون إلى بغداد فدخلها سنة ٢٠٤ وأعاد لبس السواد، وتغاضى عمن وقف ضده من أهل بغداد، وعمل على لمِّ شمل العباسيين ورجالهم، وقرب العلماء وأهل الفكر، وخفف الخراج عن الريف، فجعله خُمُسَ المحصول بعد أن كان نصفه، وأعاد نظام الجباية

والدواوين بعد احتراق السجلات، وأرسل حملات لقمع حركات الخوارج في الجزيرة، وحركات التمرد في بلاد الشام ومصر، وبذلك عاد الاستقرار نسبياً إلى بغداد، واطمأن أهلها؛ ولكن هذا الاطمئنان لم يكن تاماً، فقد ظل فريق كبير لا يؤيده بمن في ذلك بعض كبار رجال الأسرة العباسية ممن كانوا يَدْعون إلى خلافة إبراهيم المهدي الذي كان ممن أيده ابن عائشة، وهو من أحفاد إبراهيم الإمام، كما أيده محمد بن إبراهيم الأفريقي ومالك بن شاهين ومؤيدوهم. وقد حاولوا إثارة الاضطراب وقاموا بإحراق بعض الأسواق، فعلم المأمون بحركتهم وأعدم البغواري وسجن رؤساءهم، ولكنه لم يعرض المؤيدين من القواد وغيرهم.

وكان كثير من أهل الحديث لا يؤيدون المأمون، مما حمله في أواخر حكمه إلى مناصرة المعتزلة، وعبَّر عن ذلك بكتب أرسلها من دمشق إلى واليه على بغداد بإلزام الناس، وفيهم كثير من المحدثين، على القول بخلق القرآن(١).

ثم سار المأمون إلى بلاد الشام ومصر، فدخل دمشق ثم الفسطاط ليؤصل أهلها ويمكّن الثقة في نفوسهم.

غير أن الاستقرار لم يكن استقراراً تاماً، فكانت الروم تهدد أطراف الدولة الشمالية، وبابك يهيمن على المناطق الجبلية في أذربيجان ويتعاون مع الروم، وكان الزط يعيثون بالأمن في جنوب العراق. فاهتم المأمون بأمر الروم وقاد بنفسه جيشاً لقتالهم فأرهبهم تقدُّمه، ولكن المنية عاجلته قبل أن يحرز انتصاراً حاسماً عليهم.

وكان المأمون بعد وفاة علي الرضا قد أغفل معالجة مشكلة ولاية العهد التي كانت مصدر قلق يهدد تماسك الأسرة العباسية، فلما شعر بدنو أجله عَمِل على معالجة هذه القضية، وأعلن تعيينه لولاية العهد أخاه المعتصم، على أن يتلوه ابنه العباس.

---

(١) أوسع وأقدم الكتب عن أعمال المأمون وأحواله ببغداد هو كتاب «بغداد» لطيفور الذي طبع منه الجزء المتعلق بسنوات مجيء المأمون بغداد إلى وفاته ويتلوه في الأهمية ما كتبه الطبري في تاريخه.

المأمون نشأته وتوجهاته:

المأمون أكبر أولاد هارون الرشيد ولد في قصر الخلد في بغداد سنة ١٧٠[١] من أم اسمها مراجل وهي بادغيسية، وبعد ستة أشهر من السنة نفسها ولد أخوه محمد الأمين من زبيدة. وفي سنة ١٧٥ جعل الرشيد ابنه محمداً وليّ عهده[٢]، وكان عمره آنذاك خمس سنوات، وفي سنة ١٨٣ جعل ابنه المأمون وليَّ عهد ثانياً يتلو الأمين، وكتب بذلك كتاباً علق نسخة منه على الكعبة توكيداً لوجوب احترامه، وجعل في هذا الكتاب للمأمون السلطة على خراسان ثغورها وكورها وأجنادها وطرازها وبيوت أموالها وصدقاتها وعشورها، من حدِّ همدان إلى آخر المشرق[٣].

وقد اتخذ المأمون مقر إقامته في مرو، وهي قاعدة إقليم خراسان الذي استوطنته منذ زمن معاوية جالية من العرب قوامها خمسون ألف مقاتل بعيالاتهم، فتابعوا الفتوح في أواسط آسيا وضمّوا إليهم أعداداً كبيرة من مقاتلة أهل البلاد، وتوزعوا على عدد من مدنها، وحرص العباسيون على نشر دعوتهم بينها. وأفادوا من الانقسامات بين العرب، فامتدت دعوتهم وأفلحوا في السيطرة عليها والتقدم إلى العراق بعد أن دحروا جيوشاً أرسلتها الخلافة الأموية للقضاء على حركتهم.

ولما تطوّر الخلاف بين المأمون وأخيه الخليفة الأمين وحدثت الحرب بينهما اعتمد الأمين على الجيش المقيم في بغداد، فلما اندحر هذا الجيش وتفكك، اعتمد على أهل الجانب الغربي الذين أظهروا تماسكاً وحمية في الدفاع عن مدينتهم وإفشال المحاولات التي قام بها جيش طاهر بن الحسين للتغلب على مقاومتهم، وقد شاركت مختلف الفئات بمن فيها «الخراسانيون» المقيمون في بغداد، في الصمود والإسهام في الدفاع عن مدينتهم، ولم يرد في

(١) الطبري ٣/ ١١٤٠.
(٢) م.ن ٣/ ٦١٠-٦١١.
(٣) م.ن ٣/ ٦٥٤ فما بعد.

الأخبار حدوث تخلخل في القوات المنوّعة الشعبية التي كانت تدافع عن بغداد، ودام الحصار أكثر من سنة لم يستطع جيش طاهر بن الحسين التغلب على مقاومة أهل بغداد واختراق دفاعاتهم، وظلّت المعارك الرئيسية في الأطراف الشمالية والغربية من المدينة المدوَّرة، ولم يفلح طاهر بن الحسين في ضعضعتهم إلاّ بعد أن عمد إلى الحصار الاقتصادي فمنع المسير عنها، مما أضرّ مصالح تجار الكرخ الذين لم يؤيدوه قبل ذلك.

ولما قتل الأمين وانهارت مقاومة أهل بغداد وَصَفَتِ الخلافة للمأمون، وَلِيَ إدارة العراق الحسن بن سهل أخو الفضل. ولم يرفض أهل بغداد خلافة المأمون، إلا أنهم لم يؤيدوها بمن فيهم بقايا «الخراسانية» في بغداد، وكان سلطان المأمون على بغداد ضعيفاً وظهرت حركات شعبية معارضة فيها، وتمردت في أطرافها، أبرزها حركة الرويبضة وعلى رأسهم خالد بن درويش، وسهل بن سلامة[1].

ثم استدعى المأمون علي الرضا من المدينة إلى مَرْو وجعله وليّ عهد المسلمين والخليفة من بعده[2]، فكان في هذا إخراج سلمي مصمَّم للخلافة من البيت العباسي، وهو قد يشير إلى نقل دائم لها إلى العلويين، كما أنه تم في مرو، وليس في بغداد. ولم يؤيد علي الرضا المأمون في اندفاعه بمتابعة التقاليد الساسانية المتجلية بجعله لباس الخضرة مكان السواد، ودفعه إلى التخلص من نفوذ الفضل بن سهل وتوجهاته الفارسية، ونصحه بالعودة إلى بغداد دار خلافة آبائه وملكهم ليتوسط سلطانه ويشرف على أطرافه[3].

إلا أن آثار هذا التوجيه جاء متأخراً، وقد ظهر الاستياء من المأمون في بغداد واضحاً بعد بيعة علي الرضا بالعهد، وكان الاستياء أوضح عند

(١) الطبري ٣/٩٩٨، وانظر تفاصيل أوفى عن أحوال بغداد إبّان الحصار وبعده، من كتاب محمد رجب النجار «الشطار والصيارون».

(٢) الطبري ٣/٢٠١٢.

(٣) المصدر نفسه ٣/٩٩٧.

العباسيين، فبايعوا إبراهيم بن المهدي بالخلافة بعد أربعة أشهر من بيعة المأمون علي الرضا بولاية العهد، وبايعه أيضاً كثير من القواد والموالي، ورضي به أكثر الناس، وفقد الحسن بن سهل الذي ولاه المأمون على بغداد سيطرته عليها فلجأ إلى المدائن واتخذ مقامه فيها[1].

غير أن تولي إبراهيم بن المهدي الخلافة لم يلقَ تأييداً فلم تبايعه الأقاليم، ولم يحاول الاتصال بها ولم يفلح في الهيمنة على العراق فقامت بوجهه ثورات متعددة في المدائن وفي الكوفة وعارضه عدد من القواد البارزين ببغداد فتزعزعت مكانته، ثم اضطر إلى التنازل عن الخلافة التي أشغلها أقل من سنة.

اعتمد المأمون منذ عودته إلى بغداد على أحمد بن أبي خالد في إدارة الدواوين، ولم تسمِّه المصادر وزيراً مع أن عمله هو عمل الوزراء، وأحمد اصله من بلاد الشام، وكانت لأسرته صلة بالدولة العباسية في أول عهدها، فكان أبوه، كاتباً لعبيد الله الأشعري وزير المهدي، وكان هو مع المأمون في خراسان، فقدم معه إلى بغداد[2] وولاه الإدارة بعد عزله الفضل بن سهل. وظل في عمله إلى أن توفي سنة ٢١٥، فتولى أمور الإدارة بعده أحمد بن يوسف، وكان قبل ذلك يتقلد المأمون بعد عودته إلى بغداد ديوان السر وبريد خراسان وصدقات البصرة.[3] وفي الكتب أخبار متفرقة عن الرجلين تظهر مرونتهما في الإدارة واهتمامهما بشؤون الناس، دون الاهتمام بالأمور الفكرية والإدارية أو أيّ توجهات سياسية خاصة.

أولى المأمون لدى عودته تقديراً كبيراً وثقة بطاهر بن الحسين، فأسند إليه حمل الحربة أمامه، ثم ولاه بعد سنة على الجزيرة الفراتية والشرطة والجانبين من بغداد[4] ثم عقد له في السنة نفسها على خراسان والجبال من حلوان إلى

---

(١) الطبري ١٠١٦/٣.
(٢) طيفور ١١٩.
(٣) م.ن ٣.
(٤) م.ن ١٠٩.

خراسان[١] وبعد ستة أشهر ولي ابنه عبد الله بن طاهر مصر ومحاربة نصر بن شبث الخارجي[٢]. ولم يقضِ طاهر في ولاية المشرق طويلاً إذ توفي سنة ٢٠٧[٣]. فولى المأمون مكانه ابنه عبد الله بن طاهر[٤]، غير أن عبد الله بن طاهر بقي في الشام يحارب نصر بن شبث خمس سنوات[٥]، واستخلف أخاه طلحة على خراسان وابن عمه إسحاق بن إبراهيم على مدينة السلام[٦].

أما القضاء في بغداد فقد تتابع عليه عدد لم يبقَ أكثرهم في عمله أكثر من سنة، فولي قضاء مدينة المنصور محمد بن سماعة ثم إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة ثم بشر بن الوليد الكندي، وجعل على قضاء الشرقية، ويمتد سلطانها على جنوب المدينة المدوَّرة، محمد بن أبي رجاء الخراساني، ثم محمد بن سماعة، ثم عكرمة السرخسي، فحفص بن غياث، فالحسين الصوفي. وجعل على قضاء الجانب الشرقي قتيبة بن زياد الخراساني. ثم محمد بن عمر الواقدي، فمحمد بن عبد الرحمن المخزومي فبشير بن الوليد الكندي، فجعفر ابن عيسى الحسني، فهارون الزهري.

في كتب التاريخ والآداب معلومات كثيرة متفرقة عن اهتمامات المأمون في السنوات العشر التي أقام خلالها في بغداد، يتبين منها حرصه على الاجتماع بالفقهاء والمتكلمين وأهل الأدب والشعر؛ فيروي طيفور قائلاً: «لما دخل المأمون بغداد وقرّ بها قراره، أمر أن يدخل عليه من الفقهاء والمتكلمين وأهل العلم جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته، واختير له من الفقهاء مائة رجل، فما زال يختارهم طبقة بعد طبقة حتى حصل على عشرة منهم أصحاب أحمد ابن أبي دواد وبشر المريسي، كما كان يسمي له قوم من أهل الأدب

(١) طيفور ١٤٩.
(٢) م.ن ١٣.
(٣) م.ن ١٧، ٢٩.
(٤) م.ن ١٥، ٢٠.
(٥) م.ن ١٨.
(٦) م.ن ٧٢.

يجالسونه[1]، وممن كان يحدثه في الفقه والمسائل اللؤلؤي»[2]. ورويت أخبار عن سماعه المناقشات ومشاركته في إبداء الرأي ببعضها، ورحابة صدره ويقول: «أبحنا الكلام، وأظهرنا المقالات، فمن قال بالحق حمدناه، ومن جهل الأمرين حكمنا فيه[3]»، وتروي الأخبار عن مجادلته بعض من ادّعى النبوة وأراد الارتداد عن الإسلام.

وقد تميز بحلمه واهتمامه بالطبخ، وبالغناء والفنون، ولم يعرف عنه اندفاع في رعاية الثقافات الإغريقية أو نقل كتبها، ولم يذكر حنين بن إسحاق في قائمة الكتب التي نقلها إلى العربية أي كتاب منها نقل إلى المأمون.

وروي عنه أنه كان يرى الأرجاء، ويرى أنه عقيدة الملوك[4]، وله رأي سيئ بأهل السوق فهو يرى أن أهل السوق سفلة، وأن الصناع أنذال، والتجار بخلاء[5].

المحنة: نشأتها ودلالتها

اهتم المأمون في السنوات الأخيرة من خلافته بقضية «خلق القرآن» ووجَّه من دمشق إلى واليه على بغداد إسحاق بن إبراهيم كُتُباً بإلزام الناس وبخاصة الفقهاء ورجال الحديث بإلزامهم على الإقرار بها. وتابع المعتصم والواثق من بعده توجُّهاته إلى أن جاء المتوكل فأبطلها بعد خمس وعشرين سنة من بدايتها. وبالنظر لما لها من دلالات على التيارات الفكرية والسياسية في بغداد، وموقف أهلها غير المؤيد لتوجيهات الخلافة، فإننا نورد بعض تفاصيلها لإظهار موقف أهل بغداد قبل أن يتولى المعتصم الخلافة ويجلب جنده الأتراك للإقامة فيها.

---

(1) طيفور ٣٠؛ وانظر عن القضاة ما كتبناه عن «قضاة بغداد في العصر العباسي» ضمن كتابنا «معالم بغداد العمرانية».

(2) طيفور ٣٤.

(3) المصدر نفسه ٤٦.

(4) انظر «العقد الفريد» لابن عبد ربه ٦/ ٦٠؛ «الملل والنحل» للشهرستاني ١/ ٦٧ «مقالات الإسلاميين» للأشعري ٢/ ٥٤؛ «نثر الدر» للآبي ١/ ١٦٧.

(5) نثر الدر ٣/ ١٠٨.

يذكر الطبري أنه في السنة ٢١٢ «أظهر المأمون القول بخلق القرآن وتفضيل علي بن أبي طالب»[1] ولم يذكر حوادث تبرئ إظهار هذا القول، كما أنه لم يذكر عملاً قام به المأمون في بغداد يتصل بهذا القول. وأول ما يكشف التدابير التي اتخذها لتنفيذ ما يتطلبه هذا القول هو كتاب وجَّهَه المأمون من بلاد الشام إلى إسحاق بن إبراهيم في ربيع الأول سنة ٢١٨ وأمره بامتحان الفقهاء في خلق القرآن وتغليبها على عقيدة كانت سائدة عند عامة بغداد في بعض قضايا الكلام، إذ ذكر فيها:

«وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة ممن لا نظر له ولا روية ولا استدلال بدلالة الله وهدايته، والاستضاء بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق، أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده، ... ثم هم أولئك الذين جادلوا بالباطل فدعوا إلى قولهم، ونسبوا أنفسهم إلى السنّة، ... ثم أظهروا مع ذلك أنهم هم أهل الحق والدين والجماعة، وأن من سواهم أهل الباطل والكفر والفرقة، فاستطالوا بذلك على الناس، وغرّوا به الجهال، حتى مال قوم من أهل السمت الكاذب التخشع لغير الله والتقشف لغير الدين إلى موافقتهم عليه، ومواطئتهم على سيّء آرائهم تزيناً بذلك عندهم، وتصنعاً للرئاسة والعدالة فيهم، فتركوا الحق إلى باطلهم[2]».

يتبين من هذا الكتاب

١ : أن «الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية وسفلة العامة نسبوا أنفسهم إلى السنّة، ثم أظهروا مع ذلك أنهم هم أهل الحق والدين والجماعة». إن قوله «حشو الرعية وسفلة العامة» يشير إلى أن فيهم الطبقة الدنيا وإلى كثرة عددهم، وأن توجيه الكتاب إلى والي بغداد يدل على أنه يصف مكانهم فيها. ويلاحظ أن المأمون كتب هذا الكتاب في سنة ٢١٨هـ، أي بعد

---

(١) الطبري ٣/١١٠٢.

(٢) طيفور ١٨٤-٥.

أربع سنوات من مغادرته بغداد. ويدل عدم إصداره عندما كان ببغداد على أنه يعالج حالة استحدثت أو اتسعت بغيابه، ولا يوجد ما يدل على أن هذا الموقف أملته الأحوال التي شهدها في بلاد الشام ومصر، كما أنه لا يظهر أنه يعالج حالة مستجدة، وإنما توجهات قديمة لا يشير إلى تاريخ ظهورها.

٢: أنهم استطالوا بذلك على الناس، وغرّروا به الجهال، أي إن نفوذهم امتد إلى غيرهم، وجلبوا إليهم جماعات من غير الخاصة.

٣: لم تقتصر هذه الأفكار على حشو الرعية وسفلة العامة، وإنما مال إليهم قوم «من أهل السمت الكاذب والتخشع لغير الله، والتقشف لغير دين الله إلى موافقتهم ومواطئتهم على سيئ آرائهم، تزيُّناً بذلك عندهم، وتصنُّعاً للرئاسة والعدالة فيهم». أي إنهم كانوا في الأساس كثرة، ثم ازداد عددهم بسبب استطالتهم على الناس وسطوتهم، فانضمَّ إليهم عدد من الانتهازيين متطلعين إلى رئاستهم والسيطرة على أدلاتهم.

٤: أنهم نسبوا أنفسهم إلى «السنّة» فآراؤهم لا تتصل بنظام الحكم والخلافة أو الإدارة، أي إنهم ليسوا حزباً سياسياً وإنما كانت لهم عقائد في الإسلام تستند إلى واحد من أبرز أسس العقيدة والنظام، فهم ليسوا من الفرق الزائغة والخارجة على الإسلام، أو من المجموعات المعنية بالتيارات الفكرية المتصلة بالعلوم.

والسنّة تعبير أساسه ما جاء به الرسول ﷺ وما أقره الناس (الإجماع) من الممارسات المتعلقة بسلوك الناس وتصرفاتهم في العبادات والمعاملات والعلاقات بين الناس، وسنادها الأخذ بالموروث وليس التفكير فيه، فهو قائم على دراسة أسس الإسلام وممارساته في الماضي وتناقل أخباره وإحلال المعنيين به مكانة متميزة باعتبارهم المراجع في ذلك.

٥: أنهم ممن لا نظر لهم، ولا روية ولا استدلال بدلالة الله وهدايته ولا استضاءة بنور العلم وبرهانه في جميع الأقطار والآفاق، لضعف آرائهم ونقص عقولهم وجفائهم عن التفكّر والتذكر، أي إنهم لا يقيمون آراءهم على العقل والتفكير وإنما على التلقين.

٦: أنهم أهل جهالة بالله، وعمًى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه وتوحيده والإيمان به، ونُكُوب عن واضحات أعلامه وواجب سبيله، وقصور أن يَقْدُروا الله حق قدره، ويعرفوه كنه معرفته، ويفرقوا بينه وبين خلقه.

٧: أنهم شر الأمة ورؤوس الضلالة، والمنقوصون من التوحيد حظاً، والمخسوسون من الإيمان نصيباً وأوعيةُ الجهالة وأعلام الكذب، ولسان إبليس الناطق في أوليائه، والهائل على أعدائه من أهل دين الله، أي إنهم لهم مكانات متميزة في جماعتهم «رؤوس الضلالة وأعلام الكذب ولسان إبليس». وأشار المأمون في كتاب أرسله إلى إسحاق بن إبراهيم إلى أنهم متصنعة أهل القبلة وملتمسو الرئاسة فيما ليسوا له بأهل من أهل الملة.

٨: أنهم أحقّ من اتُّهِم في صدقه، واطُّرِحت شهادته، ولم يوثق بقوله ولا عمله، أي إن أسسهم الفكرية تجعلهم غير جديرين بشهادته وعمله.

٩: طلب إليه «اجمَعْ من بحضرتك من القضاة، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وابدأ بامتحانهم فيما يقولون، وتكشيفهم عما يعتقدون في خلق القرآن وإحداثه». إنه حدد أمر تطبيقه على القضاة، ولم يشمل من يعمل في الدواوين أو في الجيش، فهو محدود في تصفية مؤسسة محدودة هي القضاء وهم المجموعة الوحيدة المرتبطة في عملها بالدولة، ولم يشمل غيرهم ممن يُعْنَى بالعلوم الدينية بما فيها دراسة القرآن والحديث والعقائد فضلاً عن العلوم الأخرى.

١٠: «اكتب إلى أمير المؤمنين بما يأتيك من قضاة أهل عملك في مسألتهم والأمر لهم بمثل ذلك. ثم اشرف عليهم وتفقد أحوالهم». إنه يقصر توجيهاته على القضاة في عملهم، وهو العراق ولا يتجاوزه إلى الأقاليم الأخرى. وكرر المأمون في كتاب لاحق حصر المتابعة في القضاة فذكر، «وبُثَّ الكتبَ إلى القضاة في النواحي من عملك بالقدوم عليك لتحملهم وتمتحنهم على ما حدَّه أمير المؤمنين»[١].

---

(١) الطبري ٣/ ١١٣٥.

١١: أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله، مؤتمن فيما قلده الله في أمور رعيته، من لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه، أي إن قراره يمتد إلى الاستغناء عمن يتابعهم في أعمال الدولة كافة، وهذا يقتضي إجراء تبديلات واسعة.

إن كتاب المأمون واضح: هو تفكيك السيطرة السياسية على أفكار الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، وهي سيطرة لا تتسق مع دعم الخليفة، وإنما قد تهدد هيمنته بما تحدثه من اضطرابات قد تصل إلى حد الثورة عليه وخلعه، غير أن كتاب المأمون لم يحدد المطامح السياسية التي يعتنقها المسيطرون، وهل هي مجرَّد الحد من سلطانه أو حمله على إجراء تبديلات جذرية في الإدارة وأفكارها، أم الإعداد لبديل عنه شخصياً أو عائلياً، وهل أن سيطرتهم تعبِّر عن أهداف محددة واضحة ووحدة فكر، أم أنها مجرد مواقف عامة غامضة المعالم والحدود، علماً بأن التجارب السابقة التي مرت بالدولة العباسية أظهرت أن الشعارات لا تكفي لإزاحة الحكومات، وأن الحركات الثورية المتناثرة مهما كان عنفها فإنها لا تصمد أمام القوة التابعة للسلطة الحاكمة، بما في ذلك الموارد المالية والمقاتلة والإيمان اللاشعوري بأهمية السلطان مهما كان ضعيفاً. فلا بدّ أن الذي أثاره إصدار هذا الكتاب هو أمر يتعلق بالأمن السياسي وسلطان الدولة، علماً بأن المأمون قَصَر حملته على باقي المسلمين، ولم يشر إلى اضطهاد التيارات الزائغة من غير المسلمين أو من الزائغة في الإسلام.

أورد الطبري نصوص كتابين لاحقين أرسلهما المأمون إلى إسحاق بن إبراهيم سَمَّى في أولهما ثمانية[1]، وفي الثاني تسعة عشر طلب امتحانهم[2]، وكان ممن ذكرهم فقهاء ومحدثون لم يكن لهم عمل في الدولة. غير أنه في كتاب لاحق علَّق فيه على أحوالهم، فذكر أن بعضهم كان قد وُلِّي ولايات وأختاماً، وبعضهم كانت مودِعةً إليه أموالاً وأختامها[3]، وليس فيهم ممن شارك

(١) الطبري ٣/١١١٦.
(٢) م.ن ٣/١١٢١.
(٣) م.ن ٣/١١٢٦.

في السياسة غير إبراهيم بن المهدي الذي طلب المأمون امتحانه وقد بلغت أمير المؤمنين عنه بوالغ[1]، وهذا يشير إلى أن إبراهيم بن المهدي ساهم في نشاط سياسي، ولعله ممن ذكر المأمون أنهم أيدوا العامة لأطماع سياسية من شأنها أن تضعضع سيطرة الخليفة على العامة.

نقل طيفور كتاباً لاحقاً أرسله إلى إسحاق بن إبراهيم أوضح فيه القضية التي يهتم بمعالجتها وهي خَلْق القرآن. وذكر عمن لا يراهم جهلة عظمهم قولهم في القرآن في دينهم، والحرج في أمانتهم وسهلوا السبيل لعدو الإسلام، واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم حتى عرّفوا ووصفوا خلق الله وفعله بالصفة التي هي لله وحده، وشبّهوه به، والاشتباه أولى بخلقه، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال بهذه المقالة حظاً في الدين، ولا نصيباً من الأيمان واليقين، ولا يرى أن يحل أحداً منهم محل الثقة في أمانة، ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق في قول ولا حكاية، ولا تولية لشيء من أمر الرعية. ومن كان جاهلاً بأمر دينه الذي أمره الله به من وحدانيته فهو بما سواه أعظم جهلاً، وعن الرشد في غيره أعمى وأضلّ سبيلاً[2].

إن المأمون يعيد وصف من يهاجمهم بأنهم «جهلة» لأنهم يرون في القرآن آراء خاصة، فهو يذكر أن خطرهم متأتٍ من نشر هذه الأفكار، وليس من دور سياسي تقوم عليه أفكارهم لا يعارضون مكانة الخلافة ودورها في الإدارة، وإنما يعنون بالعقائد فحسب. وهو يبين خطر أفكارهم في الانتقاص من مكانته تعالى لأن أفكارهم تقود إلى التجسيم، مما يسهل السبيل لعدو الإسلام. ويرى أن تنزع الثقة ممن يحمل هذه الآراء، ولا يولّى شيئاً من أمر الرعية.

طبيعة المحنة:

استوعب فهمي جدعان في كتابه القيّم «المحنة» تاريخ فكرة خلق القرآن

---

(١) الطبري ١١٢٧/٣.
(٢) طيفور ١٨٩-١٩٠.

وموقف المعتزلة منها، وخلاصة بحثه أن فكرة خلق القرآن ليست من مبتدعات المعتزلة، فأول من قال بها هو جهم بن صفوان الذي عاش في أواخر العصر الأموي في خراسان ولم تكن له علاقة بالمعتزلة الذين، مع أنهم تبنّوها بعد ذلك، إلا أنهم لم ينفردوا بالقول فيها، ولم تكن تشغل حيّزاً كبيراً من أفكارهم التي أقدم وأبرز ما فيها فكرة «المنزلة بين المنزلتين» و«العدل والتوحيد».

ويقول في توضيح العلاقة بين المعتزلة والمحنة ليس بين أيدينا على الإطلاق ما يثبت دعوى القول أن المعتزلة سواء أكانوا تقويين أم عمليين كانوا وراء هذه المحنة أو أنهم قادوا حملات التفتيش المتعلقة بها. والحقيقة أن المحنة كانت قراراً شخصياً من جانب المأمون، والتزاماً سياسياً وأخلاقياً من جانب خَلَفَتْه المعتصم والواثق.

إن موضوع خلق القرآن موضوع كلامي صرف، في حين أن كتاب المأمون يظهر أن المشكلة التي كان يواجهها هي مشكلة سياسية تمتدّ إلى الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، فالمحنة لم يكن غرضها الإقرار بعقيدة كلامية بدل أخرى، بقدر ما هي وسيلة لضعضعة مكانة الممتحنين وانتزاع سيطرتهم السياسية على الجماهير عن طريق إلزامهم بقبول ما تفرضه الدولة عليهم، والانضواء في طاعتها.

يروي الخطيب أن المأمون قال: لولا مكان يزيد بن هارون لأظهرت القرآن مخلوقاً، فقال بعض حاشيته ومن يكون يزيد بن هارون حتى تَتَّقيه، فقال لا أتّقيه لأن له سلطاناً أو سلطة وإني أخاف أن تكون فتنة[1]، علماً بأن يزيد بن هارون توفي سنة ٢٠٦.

يروي الطبري أنه في السنة ٢١٢ أظهر المأمون القول بخلق القرآن وتفضيل علي بن أبي طالب[2]. غير أنه لم يذكر أيُّ مصدر أنه حاول في هذا الوقت المبكر فرضها على الناس، ولم تذكر الكتب حادثة تبرِّر فرضها. وقد أصدر المأمون قراره بفرض الفكرة والمحنة بكتاب أصدره في شهر ربيع الأول من سنة

(١) تاريخ بغداد للخطيب ١٤/ ٢٣٩-٤.
(٢) الطبري ٣/ ١٠٩٩، مروج الذهب ٣/ ٤٥٤.

٢١٨ وهو في دمشق، أي بعد حوالى عشرين سنة من تولّيه الخلافة، وأربع عشرة سنة من دخوله بغداد، وثلاث سنوات من مغادرته لها إلى بلاد الشام ومصر والثغور، ولا بدّ أن هذا التأخر في إصدار القرار يرجع إلى حوادث استجدّت لا في الأقاليم التي جاءها، وإنما في بغداد، فعلم بها وأدرك خطرها فأصدر هذه الكتب الشديدة، وتجدر الإشارة إلى أنه لم تسجل فرحة بها، وإنما يدل سياق الأحداث على وجوم الناس منها، وهو موقف سلبي لم يصل حدّ عمل إيجابي في ثورة أو مقاومة. ويلاحظ أن المحنة بتباين أحوالها لم تدم أكثر من ثلاثين سنة ثم ألغيت عندما وَلِيَ المتوكل الخلافة.

المشكلة فكرية وسياسية:

كان الهدف من المحنة هدفاً فكرياً محدّداً بخلق القرآن ولم يمتد إلى أبعد من ذلك، فلم يذكر عنه أنه حارب علوم الحديث أو الفقه وهما عماد علم «أهل السنة» ولم تذكر عنه محاولة نشر أفكار سياسة خارجة عن اهتمامات الناس في حينها، كنشر أفكار ساسانية أو إغريقية، ومع أن المصادر تذكر اهتمامه بجمع الكتب الإغريقية، إلا أنه لم يكن مبتدعاً في ذلك، فقد سبقه إليها المنصور والرشيد، ولم يرد خبر عن حرصه على نقل هذه الكتب إلى العربية، ولم يكن ممن أغدق على حنين بن إسحاق وطلب منه نقل أي كتاب.

كانت الحركة الفكرية في زمن المأمون قد وصلت في تطورها الفكري حدّ التمايز بين العلوم، بما في ذلك علم الحديث وروايته والفقه والكلام بل حتى في الأخبار والتاريخ والآداب، وما يتصل باللغة من مفردات ونحو وصرف، ولكن هذا التمايز لم يكن جامداً محدَّد المعالم، وإنما كان فيه كثير من التداخل، والتمايز الواضح هو بين علوم الأوائل، بما فيها العلوم الصرفة والتطبيقية والمنطق والفلسفة والسياسة، وعلوم العرب، علماً بأن نقل كثير من هذه الكتب وثّق صلة العربية بعلوم الأوائل، وأطلع العرب على الكثير من الأفكار الجديدة، غير أنه من حيث العموم كانت علوم الأوائل أروج عند غير المسلمين ولاسيما النصارى واليهود.

لم تحدد المصادر المناطق الجغرافية التي كان يسيطر عليها المهددون، ومن المعلوم أن بغداد كانت فيها مناطق عرف أهلها بميول سياسية متميزة، ففي الكرخ وباب الطاق عرفوا بميولهم العلوية، وفي المدينة المدوّرة والرصافة عرفوا بميولهم السنية، والواقع أن معظم المدن الإسلامية حدثت فيها انقسامات بين أهلها، أو عرفت بميول سياسية معيَّنة ولكنها لم تصل حدّ القدرة على الانشقاق عن الدولة.

حصر المأمون المحنة بفكرة «خلق القرآن» وأشار إلى أن أقوى المدافعين عنها هم من نسبوا أنفسهم إلى السّنة، وأنه كانت لهم هيمنة فكرية على الجمهور الأعظم والسواد الأكبر، وأنه استغلها انتهازيون لأغراض سياسية، إلا أنه لم يوضح العلاقة بين فكرة خلق القرآن والمنتسبين إلى السنّة، أو علاقتها بالتيارات السياسية. ومن الواضح أنه قصد بالمنتسبين المعنيين بالحديث والفقه، غير أن المعلومات المتوافرة لا تظهر أن هؤلاء المعنيين قد أعاروا، قبل المحنة، فكرة خلق القرآن اهتماماً كبيراً.

ولم تخصص كتب الفقه والحديث مكاناً واسعاً لمعالجة القضايا المتعلقة بأحوال الخلافة وقضايا السياسة والإدارة، وأشارت الكتب إلى أن الممتحنين كافة، أقرُّوا بفكرة خلق القرآن، فيما عدا أربعة، وبذلك تركت لهم الحرية في متابعة أبحاثهم دون مضايقة، فالمحنة لم يقصد بها إيقاف دراسة الفقه والحديث وإعادة توجيهه، ولا كانت محاولة لغرض الاعتزال واتخاذه عقيدة رسمية، وإنما هي عمل سلبي محدود بفكرة خلق القرآن، ولم يمتد إلى الأفكار الأخرى الأساسية عند المعتزلة، ولا توجد إشارة إلى تحمس أقطاب الاعتزال للمحنة.

إن المصادر تذكر انفتاح المأمون على مختلف التيارات التي لم يصل تباينها حدّ التصادم ولا يحلّها مجرّد الإقرار، بخلق القرآن. فقد ذكر في كتبه التي أرسلها إلى إسحاق بن إبراهيم، واليه على بغداد، أن يحضر جماعة من الفقهاء والحكام والمحدثين، فحضر ستة وعشرون: فقرأ إسحاق عليهم كتاب المأمون مرتين فأجابوا إجابات مبهمة، فكتب المأمون الى إسحاق كتاباً ثانياً أن يجمع واحداً وعشرين لم يذكروا في الكتاب الأول، فأجابوا عدا أربعة هم أحمد بن

حنبل، وسجادة، والقواريري، ومحمد بن نوح. ثم طلب المأمون أن يشخص إلى الرقة (!) سبعة لم يذكروا في كتابيه، وممن ذكر امتحانه عفان بن مسلم والفضل بن غانم؛ إلا أن أبرز الممتحنين أحمد بن حنبل من العراق، وأبو مسهر من الشام، ونعيم بن حماد من مصر.

إن هؤلاء الممتحنين منوّعون في أصولهم وانتساباتهم، فبعضهم عرب وبعضهم مَوَالٍ، ولدوا في مناطق متعددة، ومنهم عدد من أهل خراسان في الأصل، ولكن أكثرهم نشأ في مدن العراق العربية الرئيسية وهي الكوفة والبصرة وواسط وبغداد التي كانت آنذاك أكبر مراكز علماء الحديث.

وكانت الأحوال المالية لبعضهم تيسّر لهم معيشة بمستوى مناسب، ولم يعرف عن أي منهم شكوى من الفاقة، وبعضهم أولاد كتّاب يعملون في الدواوين، ومنهم أربعة قضاة وهم بشر بن الوليد، وعبد الرحمن بن إسحاق، وقتيبة بن زياد والخراساني، وقد شغَلَ كل منهم منصب القضاء في بغداد زمن المأمون، وكان الفضل بن غانم الخزاعي قاضياً في الفسطاط. واتهم المأمون في كتابه الثاني إلى إسحاق بن إبراهيم عدداً منهم بخيانة الأمانات وابتزاز الأموال.

من الممتحنين عدد ممّن وثقهم علماء الرجال في الحديث، وآخرون عرفوا بسعة اطلاعهم وأمانتهم في العلم، وفيهم عدد من كتّاب ومستملي علماء، وفيهم أيضاً عدد لم تكن لهم مكانة متميزة عند علماء الحديث، وفيهم أيضاً من لم يعرف اهتمامه بالحديث أو الفقه مثل إبراهيم بن المهدي. ولم تذكر المصادر سبب اختيار هؤلاء أو آخرين ليعرضوا للمحنة التي لا ريب في أنها زادت من شهرتهم وقوّت مكانتهم عند العامة ممن استاء من المحنة وكان يقدّر آراء أهل السنة والحديث.

نفّذ المحنة وتابعها رجال في الإدارة ولم يعرف لهم إيمان عميق بها أو حماس لنشرها بمن في ذلك الخليفتان المعتصم والواثق، والبارزون في الإدارة ولاسيما يحيى بن أكثم وأحمد بن أبي دؤاد وإسحاق بن إبراهيم.

أساليب التنفيذ:

لم يقم المأمون بنفسه بتطبيق المحنة، ولم يعد إلى بغداد لمتابعتها، ولعله كان يدرك ضعف خطرها في تهديد خلافته، وأوكل مهمة متابعتها إلى إسحاق ابن إبراهيم المسؤول عن إدارة بغداد والذي لم يعرف عنه اهتمام خاص بالكلام وعلوم الحديث والسنّة، أو أي موقف من أهلها.

لم ينشأ ديوان خاص لمتابعة تنفيذ الفكرة كالذي فعله المهدي مع الزنادقة، وإنما أوكلت محاسبتهم إلى القضاة الذين غالب اختصاص عملهم ما نسميه اليوم المعاملات والأحوال الشخصية، وليس أمور العقائد الكلامية، علماً بأن رئيسهم يحيى بن أكثم كان يرافق المأمون في رحلاته، ولم تكن إقامته الدائمة في بغداد، وأن عدد قضاة بغداد الرسميين ثلاثة: قاضٍ لكل من مدينة المنصور، والشرقية والكرخ، والرصافة والجانب الشرقي. ولم تذكر المصادر تدابير أمنية أو أي عمل اتخذ لملاحقة معارضي فكرة خلق القرآن، أو للقضاء على سيطرتهم على الرأي العام وإضعافها، وهو الهدف الأكبر الذي كان يرمي إليه المأمون كما يتجلى من كتابه، ولم تذكر الأساليب التي تتبّعها المسيطرون على توجيه الرأي العام وتحويل القضايا الكلامية إلى توجهات سياسية ولا مدى سيطرتهم على هذه التوجهات وعمق آثارها في عموم الناس.

إن كتاب المأمون واضح. هو تفكيك السيطرة السياسية على أفكار الجمهور الأكبر والسواد الأعظم، وهي سيطرة لا تتسق مع دعم الخليفة، وإنما قد تهدد هيمنته بما تحدثه من اضطرابات قد تصل حدّ الثورة عليه وخلعه، غير أن كتاب المأمون لم يحدد المطامع السياسية التي يعتنقها المسيطرون، وهل هي مجرّد الحد من سلطانه أو حمله على إجراء تبديلات جذرية في الإدارة وأفكارها، أم الإعداد لبديل عنه شخصياً أو عائلياً، وهل تعبّر سيطرتهم عن أهداف محددة واضحة، ووحدة فكر، أم أنها مجرّد مواقف عامة غامضة المعالم والحدود. علماً بأن التجارب السابقة التي مرت بالدولة العباسية أظهرت أن الشعارات لا تكفي لإزاحة الحكومات، وأن الحركات الثورية المتناثرة مهما كان عنفها فإنها

لا تصمد أمام القوة التابعة للسلطة الحاكمة، بما في ذلك الموارد المالية والمقاتلة والإيمان اللاشعوري بأهمية السلطان مهما كان ضعيفاً.

كانت بغداد المركز الرئيسي للعلماء الذين امتُحنوا، ولم تدم المحنة أكثر من خمس وعشرين سنة، ولا نعلم مدى امتداد وعمق الاستياء الذي ولّدته، إذ إن الفرحة بانتهائها قد تكون بالغت في أثرها في موقف أهل بغداد الذين لم يُذكر قيامهم إبَّانها بأي عمل إيجابي يعبِّر عن استيائهم سواء في العبث بالأمن أو تهديده، كما لم تُذكر جماعة تحمسوا في الدفاع عنها. فآثارها الأمنية والسياسية محدودة.

لم تذكر الأخبار انتفاضة أو ثورة، سوى محاولة لم تنفَّذ في زمن الواثق ببغداد قام بها أحمد بن نصر بن مالك بن الهيثم، وهو حفيد أحد نقباء بني العباس عندما أعدّوا ثورتهم وقاموا بها، وكانت له مكانة في الدولة. وكان أحمد من أهل الفضل والعلم مشهوراً بالخير والأمر بالمعروف. ولما اختلّ الأمن في بغداد بعد مقتل الأمين وكثر الدُعّار والصعاليك مهددين الناس، استطاع أحمد بن نصر أن يسهم في الحد من نشاطهم، ويعيد الثقة بها.

ويروي الطبري أنه سنة ٢٣١ أُعد لثورة في بغداد، ولكن المحاولة كشفت قبل تنفيذها، وأُلقي القبض على رأسها المدبّر أحمد بن نصر، مع عشرين من أتباعه، فأمر الواثق بإعدامه، وظلت جثته منصوبة في سامرّاء إلى سنة ٢٣٧ حيث أمر المتوكل بإنزالها ورفعها إلى أوليائه، ومع أن فشل الثورة لم ترافقه احتجاجات إلا أن العقاب الذي أنزل به أثار عطف الناس عليه وتقديرهم له وظلت ذكراه الطيبة تتردد في الكتب.

الفصل الثالث

المعتصم والجيش

المعتصم نشأته وحياته الأولى

ولد المعتصم، واسمه محمد وكنيته أبو إسحاق، في قصر الخلد ببغداد سنة ١٧٨. أو في بداية سنة ١٨٠، وأمه صغدية مُوَلَّدة من أهل الكوفة اسمها ماردة[١] ولم يذكر أحد أنها تركية أو أنها رُبِّيت في ما وراء النهر، ولا علاقة لها بالترك الذين قدم بعضهم إلى بغداد.

لم يكن المعتصم أكبر أولاد أبيه هارون الرشيد، ولا أقربهم لأبيه، فلم يسمِّه الرشيد لولاية العهد التي سَمَّى لها ثلاثة من أولاده هم: الأمين والمأمون والقاسم. ويبدو أن الرشيد لم يظهر عناية خاصة بتربيته فلم يذكر له مؤدب ولم تعرف له صلة وثيقة بأهل الأدب والفكر، ولم تروَ عنه أقوال مأثورة. والراجح أنه كان في حياته ميالاً إلى الرياضة والفروسية وما يتصل بالحياة العسكرية[٢].

لم يرد للمعتصم ذكر في حوادث النزاع بين الأمين والمأمون، مما يدل على أنه اعتزلها شأن معظم رجال الأسرة العباسية المقيمين في بغداد. ولما بايع أهل بغداد إبراهيم بن المهدي بالخلافة كان المعتصم مقيماً في بغداد، ويبدو أنه أيد إبراهيم الذي أرسله للقضاء على تمرد في أطراف بغداد[٣].

---

(١) الطبري ٣/ ١٣٢٩، وانظر بعض أوجه حكم المعتصم العثمان سيد أحمد إسماعيل.

(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير ١/ ٢٩٥.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٩١.

احتفظ المعتصم بعلاقة طيبة مع المأمون لدى عودته إلى بغداد، ولم يُذكر له إسهام في النشاطات السياسية والفكرية ببغداد، مما يدل على أنه قَصَر اهتمامه على الحياة العسكرية، ولعل هذا ما دفع المأمون إلى تقريبه والإفادة منه في إعادة بناء الجيش في بغداد الذي كان قد تصدع إثْرَ الحرب بين الأمين والمأمون، وبذلك تعززت مكانته، وكان هو والعباس بن المأمون أبرز المقرَّبين للمأمون من رجال الأسرة العباسية.

وفي سنة ٢١٣ ولآه المأمون بلاد الشام ومصر، كما ولّى ابنه العباس الجزيرة الفراتية، وكانت مصر تواجه اضطرابات استطاع أن يقضي عليها، ووجَّهه في حملات على بلاد الروم، وكانت تربطه بالعباس بن المأمون علاقة طيبة، فلم يذكر خبر تنافس بينهما، وظلت ولاية المعتصم على مصر سنتين ولكنه لم يقم خلالهما في مصر أكثر من ستة أشهر وخلّف في المدة الباقية إدارتها إلى أشخاص آخرين اختارهم[1]. غير أن المعتصم كان يتميز بكبر سنه وكانت تتبعه قوة عسكرية تركية قوامها ثلاثة آلاف رجل.

احتفظ المعتصم بالسمة العسكرية التي ميَّزته، وكان أُنموذج الفارس الباسل، فهو من رجال السيف بعيداً عن رجال القلم من الأدباء والكتّاب ورجال الإدارة المدنية، وكان معروفاً بالقوة البدنية.

رافق المعتصم المأمون في رحلته إلى بلاد الشام وشارك في الحملة التي قادها المأمون سنة ٢١٨ على الروم وأحرز انتصارات، غير أن المأمون مرض وأدرك أن منيته عاجلة فعيَّن المعتصم وليّاً للعهد ولم يعيِّن ابنه العباس الذي كان يرافقه ويشارك في قيادة الجيش، ولا بدّ أن المأمون عندما اتخذ هذا القرار كان واقعاً تحت تأثير أحوال الحملة ومتطلباتها العسكرية، فاختار أخاه المعتصم الذي يتميز بالشجاعة وأَشْهَد على ذلك من معه من القضاة والفقهاء والقوَّاد وبحضور ابنه العباس، وكان تعيينه لولاية العهد مفاجأة دون تمهيد مسبق كما كان الأمر معمولاً به في زمن الأمويين والعباسيين. وقد تولّى المعتصم الخلافة

(١) الطبري ٣/ ٩٩٣، ١١٠٥.

بعد أيام من قرار المأمون وتمَّت بيعة المعتصم بإرادة حرة من المأمون وبحضور ابنه العباس الذي شارك في البيعة ممتعضاً، غير أن عدداً من قادة الجيش لم يُرضهم تولّي المعتصم المرتبط بمجموعة من الجند ذوي سمات خاصة، فأظهروا عدم رضاهم ودسوا مؤامرة قضى عليها المعتصم وقتل العباس وعدداً من القادة الذين لم يساندوا اختياره خليفة، وبذلك كان تولّيه الخلافة قائماً على موقف الجند، واستعملت فيه القوة لتثبيته.

وحالما وَلِيَ الخلافة هَدَم بعض حصون الروم، وأمر بإعادة الجيش إلى بغداد لمنع تجديد الفتنة ولإرضاء الجند بإعادتهم إلى أهليهم في بغداد.

تمَّت بيعة المعتصم في معسكر على حدود دولة الروم بعيداً عن بغداد ومن فيها من العلماء والفقهاء ورجال الإدارة وأهل الحل والعقد من المدنيين. وَلِيَ الخلافة دون أن تتاح الفرصة للحصول على تأييد الأمة لهذه البيعة، فكان ذلك بداية انعزال الخلافة عن الأمة التي أصبحت «رعية» تتلقى القرارات وتنفذها دون أن يؤخذ رأيها فيها ولو شكلياً، ولا بدّ أن وَقْعَ ذلك كان أقوى على بغداد التي كانت المكان الذي يبدأ منه إعلان البيعة لولي العهد وللخليفة مما كان يعزز مكانتها في عموم الدولة وعند الخليفة الجديد. وقد قبل أهل بغداد الأمر الواقع ولم يعترضوا على تولّيه الخلافة أو على الأسلوب الذي لم يسبق الأخذ به. فأبعدت بغداد من مركزها المتميز عن المراكز المتعددة للدولة، وأصبحت كبقية مدن الدولة الأخرى تُبَلَّغ باختيار الخليفة ولا تشارك فيه. علماً بأن تحطُّم الجيش الذي كان مقيماً في بغداد، خلال النزاع بين الأمين والمأمون، جعل العناصر الحضرية من العلماء والمفكرين والمثقفين والتجار تطغى فتُعزّز في بغداد مكانتها وتسود فيها سماتها التي تختلف عما تميَّز به الخليفة الجديد من الروح العسكرية والبعد عن الحياة الفكرية.

قَبِل أهل بغداد تولّي المعتصم الخلافة، ولم يُظهروا اعتراضاً عليها على الرغم من أن الطريقة التي اتُّبِعت فيها تُكَوِّن ثَلْمَاً في العلاقة بينهم وبين الخليفة الجديد الذي أسرع بالعودة مع جيشه إلى بغداد ولم يُحدث تبديلات أساسية في الإدارة والأحوال. وعندما وصل بغداد كان أول عمل قام به معالجة خطر الزّطّ الذين كانوا يَعِيثون منذ زمن المأمون في بطائح جنوب العراق ويعرقلون اتصال

بغداد بالبصرة وتجارتها. فأرسل حملة بقيادة عجيف بن عنبسة الذي قضى خمس سنوات أفلح بعدها في القضاء على ثورتهم وعيشتهم. ثم نفَّذ حملة أخرى بقيادة الأفشين للقضاء على بابك الخرمي الذي أعلن العصيان في أذربيجان؛ وبذل المعتصم لهذا الجيش الأموال، واستطاع الأفشين القضاء عليه بعد جهود مضنية دامت ثلاث سنوات(١).

الجيش في بغداد

كان الخلفاء العباسيون الأوائل يعتمدون على قوة عسكرية عظيمة في بغداد تَدين بالولاء للخليفة فَتُثبت سلطانه وتدعم هيبته عند أهلها؛ ولكن هذه القوة تفكَّكت في القتال بين الأمين والمأمون، وصار اعتماد الأمين في الدفاع عن بغداد على أهلها الذين دافعوا ببسالة عن مدينتهم ولم يتضعضعوا إلا بعد أن فرض طاهر بن الحسين حصاراً اقتصادياً قوياً؛ فلما استسلمت بغداد للمأمون لم تعد فيها قوة عسكرية يُعتمد عليها، ولم يكن بالإمكان سحب مقاتلة الثغور من حدود دولة الروم لأن ذلك يُعَرّض حدود الدولة إلى أخطار تجاوزات الروم عليها؛ وكانت هذه القوات قد توجهت لقتال أعداء الدولة وليس للمشاركة في النزاعات الداخلية.

لم يُؤمّن طاهر بن الحسين، بعد سيطرته على بغداد، ولاء أهلها للمأمون؛ وكانت لبعضهم مكانة يحاولون السيادة على بغداد وأطرافها مستغلين ضعف القوة التي يستند إليها الولاة، وتَدَنّي هيبتهم. فلما عاد المأمون إلى بغداد، بعد أربع سنوات من القضاء على الأمين، تابع سياسة «لمّ الشمل»، وجَلب رضى الناس، فأعاد لباس السواد، وهو شعار العباسيين، ولم يضطهد مَنْ عمل في مناوأته، و إنما تسامح معهم، وحاول تقريبهم إليه وكَسْب رضاهم.

ولكن المأمون كان يدرك أن السياسة السلمية لا تكفي وحدها لتثبيت هيبة الخليفة وسلطانه، وأنه كان لا بدّ له من قوة عسكرية بتصرّفه تقيم في بغداد

---

(١) انظر عن هذه الحركة كتاب البابكية لحسين قاسم العزيز الذي رغم غزارة مادته، فإنه يبالغ في السمة القومية المحلية لحركة بابك؛ وانظر عن جهودها العسكرية ما كتبه الطبري في تاريخه.

وتكون موالية له؛ وكان الأفضل أن تكون هذه القوة من عناصر مترابطة في أصولها وسماتها. وقد أشارت المصادر إلى الكتل التي كان يمكن أن يجعلها المأمون قوام جيشه وهي: العرب والخراسانية والترك. وروى طيفور أن المأمون اجتمع مع المعتصم وأحد القواد، وتداولها الشجعان من القواد والجند والموالي، فأطرى المأمون شجاعة عجم أهل خراسان وقوّتهم في دحر أعداء الدولة، وأطرى القائد شجاعة أبناء خراسان، وأطرى المعتصم شجاعة الترك وإقدامهم؛ ثم حكّموا نصر بن شبث فأبدى رأيه في خصائص هذه المجموعات الثلاث وقال: فأما التركي، فبِسهامه، فإذا أنفذها أخذ باليد؛ وأما العجمي، فبسيفه، فإذا كَلَّ استؤصل، وأما الأبناء فلم أرَ مثلهم: لا يكلّون ولا يملّون ولا ينهزمون، يقاتلون في شدة البرد في الإزْر الخَلَق بلا دروع ولا جَوْشَن ولا مِجَنّ، مرة بالسيف ومرة بالرماح ومرة بالسهام، ويخوضون الثلج في الأنهار، ويخوضون في الهجير النار، لا يكلُّون ولا يملُّون[1]، ولا بدّ أنه قصد بالعجم أهل خراسان منهم.

وذكر الجاحظ في رسالته «مناقب الأتراك» عَمَّن زعم أن جند الخلافة اليوم خراساني وتركي ومولى وعرب[2]، وأن الخراساني والتركي أخوان والحيز واحد[3]، وأن البنوي خراساني، وأنَّ نَسَب الأبناء نسب آبائهم، ثم ذَكَر ما يفخر به الخراسانيون بأنهم النقباء وأبناء الدعوة، ومنهم النجباء والدعاة، فيهم أصل الدولة وأصحاب الدعوة، وهم الذين قاموا بفتح البلاد[4]، وذكر أن البنويين خراسانيون[5]، وهم مهيمنون على بغداد، فهم يشاركون العربي في فخره، والخراساني في مجده، ولكنهم متميزون عنهما بأساليبهم الخاصة التي يسَّرت لهم هيمنة الخلافة على بغداد[6].

(١) تاريخ بغداد لطيفور ٢٨.
(٢) مناقب الأتراك للجاحظ ١٦٧.
(٣) م.ن. ١٦٨.
(٤) م.ن. ١٧١.
(٥) م.ن.
(٦) م.ن. ١٨٨.

ثم ذكر خصائص الترك في القتال[1]، وتميُّزهم على الخوارج وعلى بقية أصناف الجيش، واهتمامهم بالتدريب على القتال وعدم الانغماس في التيارات الفكرية والسياسية[2].

وخَصَّص في رسالته خمس عشرة صفحة لكلٍّ من الخراسانيين والترك، وخمس صفحات للأبناء وصفحتين للعرب، وصفحة واحدة للموالي، ولعل هذه الأرقام تعبِّر عن أهمية كلٍّ منهم.

وذكر الأفشين في كتابه إلى المازيار أربعة أصناف لجيش الخلافة، ووصف مدى قوة كل صنف في القتال، وقال إن معه الفرسان وأهل النجدة والبأس، ولا بدّ أنه كان يقصد بهم الفراغنة والأشروسنية وربما عموم جند خراسان. ثم قال إنه فيما عداهم «لم يبقَ أحد يحاربنا إلا ثلاثة: العرب والمغاربة والأتراك»، ثم وصف كلاً منهم فوصف المغاربة والعرب بأوصاف شديدة من التهجم والاستخفاف، ثم ذكر أولاد الشياطين يعني الأتراك، فإنما هي ساعة حتى تنفذ سهامهم ثم تجول الخيالة عليهم جولة فتأتي على آخرهم[3]. وقد ميَّز الأفشين في هذا النص بين العرب والمغاربة، ولكنه لم يبين عدد كلٍّ من الأقسام الأربعة التي ذكرها، ويدل كلامه على أنه كان يدرك أن العرب كانوا أميَل إلى الغنائم منهم إلى الحماس في دعم الخلافة.

يتبين من كلام طيفور والجاحظ أن الأبناء لهم تدريب خاص امتازوا به على الأصناف الأخرى وأن لهم الهيمنة على بغداد، وقد يعني هذا أنهم كانوا "قوات خاصة" مسؤولة عن ضبط الأمن فيها فحسب، والواقع أنه لا يتردد وذكر في أخبار الحركات العسكرية خارجها. وأشار الجاحظ إلى أن البنويين خراسانيون ينتسبون إلى آبائهم، وهي عبارة عامة لا تتوافر في المصادر عنهم معلومات إضافية توضح أصولهم وتنظيماتهم.

---

(١) مناقب الأتراك ٢٠٦.
(٢) المصدر نفسه ٢١٧.
(٣) تاريخ الطبري ٣/ ١٣١٢.

أما العرب فَهُم من الذين كانت مواطنهم شبه جزيرة العرب أو خرجوا منها، وتُميِّزهم اللغة العربية وعدد من النظم الاجتماعية التي تنظِّم حياتهم؛ وكانوا قوام جيش الرسول ﷺ والجيوش التي قضت على حركات الردة والانشقاق في الجزيرة العربية، ثم وسعت رقعة الدولة بعد قضائها على جيوش الساسانيين ودحْرِها جيوشَ الروم ومدِّها حدودَ الدولة إلى الأطلسي والبيرانيس غرباً، وأواسط آسيا شرقاً. واستنفد هذا التوسع طاقات شبه الجزيرة من المقاتِلة فلم تستطع متابعة إمداد الدولة بالمقاتِلة وتغذية الأمصار والجبهات الواسعة بعد أن توزعوا في عدد كبير من المراكز لحماية حدود الدولة وتوسيع رقعتها. وكانوا في أوقاتهم الطويلة في هذه المراكز قد تأقلموا وقويت ارتباطاتهم بها وتطورت أحوالهم الحضرية والفكرية. وتأثر كثير بالتيارات السياسية الداخلية التي تمركز كثير منها حول الخلافة مما أضعف فيهم الروح العسكرية وشغلهم بمتطلبات الحياة المعاشية والفكرية، وظلت الروابط القبلية تؤثر في توجهاتهم السياسية؛ وقد عبّر المأمون عن هذه الأجواء عندما تعرَّض له رجل من أهل الشام وقال له انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان فأجاب المأمون أكثرت علي يا أخا أهل الشام: والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبقَ في بيت مالي درهم واحد، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط، وأما قضاعة فسادتُها تنتظر السفياني وخروجه فتكون من أشياعه؛ وأما ربيعة فساخطة على الله منذ بعث نبيّه من مضر، ولم يخرج اثنان إلا خرج أحدهما شارياً. اعزِبْ فعل الله بك[1].

وتشير الدلائل إلى أن أهل البصرة والكوفة لم يعودوا «مقاتلة» منذ أوائل الخلافة العباسية، إذ لا توجد إشارة إلى توزيع العطاء والرزق على المقاتلة في أي منهما؛ ولم يرد في أخبار بغداد عندما أسّسها المنصور أنه أعطى من استوطنها من المقاتلة من قطائع الأرباض حول المدينة المدوّرة غير قطيعة

---

(١) الطبري ٣/١١٤١؛ ورواه الآبي مع بعض الاختلاف في النص، نثر الدر ٣/١٦-١٧؛ طيفور ١٤٦.

واحدة فحسب لأهل الكوفة، في حين أنه وزّع قطائع كثيرة سُمّيَت بأهلها من مدن خراسان وما وراء النهر؛ ولا توجد إشارة الى أن أياً من الخلفاء العباسيين الأوائل ضرب عليهم البعث، استخدم مقاتلة منهم لإخماد الثورات أو القتال في الجبهات.

وفي سنة ٢١٦ قطع المعتصم إبّان ولايته على مصر عن أهلها العطاء والرزق[1]؛ ولا بدّ أن دافعه راجع إلى إدراكه أن أهل الفسطاط لم يعودوا يقومون بواجب القتال. ونقل المعتصم من مصر «المغاربة»، وهم مقاتلة يمانيون، إلى العراق، فكوَّنوا مجموعة متميزة من المقاتلة فيها، ثم نقلهم إلى سامرَّاء عندما شيدها وأوطنهم قرب قصره، وسنذكر في مكان تالٍ مكانتهم في سامرَّاء.

مكوّنات الجيش

الخراسانيون

أدركت الدولة من وقت مبكّر حاجتها إلى مقاتلين من غير العرب ينضمّون إلى جيوشها، فمنذ زمن الخليفة عمر ضَمَّت الجيوش الإسلامية إليها الأساورة والسيابجة والزطّ في البصرة، وحمراء الديلم في الكوفة والفرس، ثم الروم في الفسطاط، ثم قوات غير عربية في بلاد الشام. وكَوَّن كلٌّ من هؤلاء وحدات متميزة في الجيش، واستقرت في الأمصار بخطط خاصة بها. ولا شك في أن رابطة الدين والمصلحة وحبَّ القتال كانت كلها عوامل أدت إلى قيامهم بخدمات مخلصة في الجيش لم تذكر الأخبار ظهور شكوك حولها، ومما عزَّز ذلك أن أكثر الأعاجم كانوا من الأقاليم الشرقية التي فقدت ملوكها السابقين ومن يؤيدهم، وبقي فيها من الرؤساء مَنْ قَبِلَ حُكْمَ العرب ورضِيَ به. ولهذا كان الروم الذين انضموا إلى المسلمين قلة لأن دولة الروم ظلت قائمة وكان بإمكان محبّيها من المقاتلة اللجوء إليها.

(١) «الولاة» للكندي ١٩٣.

وكانت جبهتا التوسع الرئيسيتان في كلٍّ من الغرب وأقصى الشرق، وأفسح العرب في كلتا الجبهتين المجال لاستخدام غيرهم في جيوشهم، فكان من البربر عدد كبير في الجيوش الإسلامية التي قاتلت في المغرب وشاركت في فتح الأندلس. أما في المشرق فقد ذكر البلاذري أن الأحنف بن قيس عندما تقدم لفتح الجوزجان والطالقان والفارياب، وهي المناطق الواقعة جنوبي خراسان، «قاتلهم وهو في خمسة آلاف من المسلمين، أربعة آلاف من العرب وألف من العجم»[1]. والراجح أن هؤلاء العجم الذين كوَّنوا خُمس الجيش الإسلامي هم أساورة البصرة، وأن مشاركتهم العرب في القتال والفتوح لم تقتصر على هذه المنطقة فحسب، بل امتدّت أيضاً إلى فتح مناطق أخرى لم تذكرها المصادر.

وكانت خراسان من الأقاليم التي فرض فيها العرب على البلاد المفتوحة تقديم رقيق للدولة، فيروي أبو عبيدة أن عبد الله بن عامر صالَحَ مَرْو «على وصائف ووصفاء ودواب ومتاع، ولم يكن عند القوم يومئذٍ عين، وكان الخراج كلّه على ذلك حتى وَلِيَ يزيد بن معاوية فجعله مالاً»[2]. كما أن قتيبة بن مسلم الباهلي لمّا وَلِيَ خراسان فرض على عدد من المدن، التي فتحها فيما وراء النهر، أن تقدم مُقاتِلةً يشاركونه في الفتوح.

لا نعلم تفاصيل أوضاع وتنظيمات القوات الأعجمية التي استخدمها العرب في جيوشهم منذ زمن قتيبة، ومن المحتمل أنهم ظلوا مرتبطين بمواطنهم الأصلية، وكانوا يقاتلون مع العرب في مواعيد القتال أي في الصيف، ثم يعودون في الشتاء، كلٌّ إلى مدينته، وبذلك صار المكان أساس تنظيمهم في الأوقات التي لا يجري فيها قتال. وهذه هي الصورة الظاهرية لجيش الخراسانية الذين استوطنوا بغداد عند تأسيسها، فقد أعطى لأهل كل بلد قطيعة وجعل عليهم رؤساء منهم. وسُمِّيَتِ القطائع بأسمائهم أو بأسماء رؤسائهم.

---

(١) فتوح البلدان ٤٠٦.

(٢) المصدر نفسه ٤٠٥.

الخراسانيون في جيش العباسيين:

كان الخراسانيون عماد الجيش الذي استند إليه العباسيون في ثورتهم وانتزاعهم الخلافة من الأمويين، وقد استقر كثير منهم في بغداد بعد تأسيسها[1]، ونُقلت أعداد كبيرة منهم في زمن أبي جعفر المنصور ومحمد المهدي وهارون الرشيد إلى الثغور الشمالية في أطراف بلاد الشام والجزيرة لتعزيز القوات الإسلامية التي تحمي حدودها وتصد غارات الروم وتقوم بِغَزْوِهِم، كما نقلت أعداد منهم إلى بلاد المغرب لتثبيت سلطان الخلافة العباسية في تلك البلاد.

وأساس الجيش الخراساني هو القوات العربية التي نُقلت من البصرة والكوفة وأوطنت مع عيالاتها لتقوم بحماية الحدود وتوسيع الدولة في أواسط آسيا، وكان قوامها في أوائل زمن الخلافة الأموية خمسين ألف مقاتل مع عيالاتهم وكانوا مقسّمين إلى أخماس، على غرار تقسيم أهل البصرة، وهذه الأخماس هي تميم، وبكر، والأزد، وعبد قيس، وأهل الحجاز، وكانت تضاف إليهم في بعض الأحوال قوات جديدة تعوِّض عن خسائرهم من القتلى، ثم أضيفت إليهم في زمن خلافة هشام بن عبد الملك قوات من مقاتلة أهل الشام.

وكانت مرو مركز الإدارة والديوان، وفيها مقام الوالي ومعظم المقاتلة العرب، غير أن متطلبات الإدارة قضت بأن تتوزع إقامة العرب في أماكن متعددة أبرزها نيسابور، وطوس، وهراة، ومرو الروذ، وبلخ، إضافة إلى عدد من القرى في أطراف هذه المدن. ومع أن العرب احتفظوا في تسمياتهم بالعشائر التي ينتسبون إليها، إلا أنهم على مر الأيام صاروا ينتسبون أيضا إلى المدن التي كانوا يقيمون فيها[2].

أُضيفت إلى المقاتلة العرب أعداد غير قليلة من المقاتلة من أبناء خراسان وبلاد ما وراء النهر، وكانوا يُنْسبون إلى أقوامهم الأصلية أو مدنهم، وحدث بينهم وبين العرب اختلاط واسع، فلبس كثير من العرب أزياء أهل البلاد وتعلَّم

(١) انظر تفاصيل أوفى من كتبنا «بغداد مدينة السلام».
(٢) المصدر نفسه.

هؤلاء الأعاجم العربية بعد اعتناقهم الإسلام وخدمتهم له، وبذلك أصبحت النسبة إلى المدن والأقاليم في خراسان وما وراء النهر تشمل العرب والأعاجم ولا يميِّز بينهما إلا التأكيد على ذكر العشيرة التي ينتمي إليها الفرد، علماً بأن كثيراً من الأعاجم نُسبوا إلى العشائر العربية بالولاء.

ولما أسَّس أبو جعفر المنصور بغداد أوْطَنَها كثيراً من أهل خراسان، وكانت قطائعهم بأسماء المدن التي جاءوا منها وبأسماء رؤسائهم. ويتبين من دراسة خطط بغداد أن أصحاب القطائع الخراسانيين كانوا من مرو، ومروالروذ، وبلخ، وخوارزم، وفارياب، وبغشور، وأهل ما وراء النهر من البخارية، والصغد، والصامغان، والفارياب، والفراغنة[1].

وتطلبت تطورات الأحوال أن يستخدم العباسيون في جيشهم رجالاً من غير الخراسانيين، وتكشف دراسة خطط بغداد أن المنصور وَضَع أكثر من قطائع لقادة عرب من غير أهل خراسان، كما كان في الجيش حتى زمن الأمين مجموعات من الأبناء، والأفارقة، والأعراب، والأتراك.

أصيب الجيش العباسي في بغداد بضربة قاصمة عندما اندحر قائده علي بن عيسى بن ماهان وتشتت جيشه، واعتمد الأمين في دفاعه عن بغداد على قوات «الميليشيا» من الأهالي الذين استطاعوا الدفاع عن مدينتهم بوجه قوات المأمون، ولم يفلح طاهر بن الحسين بالقضاء على الأمين إلا بعد لجوئه إلى الحصار الاقتصادي.

ولابدّ أن عدداً من هؤلاء الترك قد شغلوا مناصب في إدارة الدولة، وذكرت المصادر منهم حماد التركي، الذي كان من المقربين في بلاط المنصور[2] وولاه المدائن[3]، ثم تعديل السواد[4]، وهو عمل يتطلب اطّلاعاً على أحوال الإدارة المالية ودواوينها.

---

(١) انظر تفاصيل أوفى في كتابنا «بغداد مدينة السلام».
(٢) الطبري ٣/ ٢٧٦، ٢٤٩، ٤٤٣.
(٣) أنساب الأشراف ٣/ ٢٦٤.
(٤) الوزراء للجهشياري ١٣٤.

أهل ما وراء النهر في جيش بغداد

ولما وَلِيَ المأمون خراسان بعد وفاة أبيه الرشيد اهتم بتوسيع الدولة ومدّها شرقاً في أواسط آسيا، وفي هذا يقول البلاذري «لما استخلف المأمون أمير المؤمنين أغزا السغد وأشروسنة ومن انتقض عليه من أهل فرغانة، الجند، وألحّ عليهم بالحروب بالغارات أيام مقامه بخراسان وبعد ذلك، وكان مع تسريبه الخيول إليهم يكاتبهم بالدعاء إلى الإسلام والطاعة والترغيب فيه[1]. ومن أبرز المنضمين إليه كاوس ملك أشروسنة وابنه الأفشين[2]. وتابع المأمون بعد توليه الخلافة سياسته في الاهتمام بتوسيع الدولة في أواسط آسيا وضم الترك إلى حضرتها، فكتب إلى عماله على خراسان في غزو من لم يكن في الطاعة والإسلام من أهل ما وراء النهر، ووجّه رسله فيفرضون لمن رغب في الديوان وأداء الفريضة من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم، ويستميلهم بالرغبة، فإذا وردوا بابه شرّفهم وأسنى صِلاتهم وأرزاقهم.

ثم استُخلف المعتصم بالله فكان مثل ذلك، حتى صار جلّ شهود عسكره من أهل ما وراء النهر من السغد والفراغنة والأشروسنية وأهل الشاش وغيرهم. وحضر ملوكهم، وغلب الإسلام على من هناك، وصار أهل تلك البلاد يغزون مَنْ وراءهم. وأغزى عبد الله بن طاهر ابنه طاهر بن عبد الله بلاد السغد، ففتح مواضع لم يصل إليها أحد من قبل.

إن اهتمام المأمون بتوسيع الدولة في بلاد أواسط آسيا يرجع كثير منه إلى انتقال أغلب مقاتلة خراسان إلى العراق والثغور في أطراف بلاد الروم وإلى نقل بعضهم إلى المغرب ليسهموا في إخماد الثورات على الخلافة، فكانت سيطرته على الترك تيسّر له جمع رجال متميزين بالكفاءة القتالية، لم تدخلهم الأهواء ولم يتعرضوا للانقسامات السياسية والعقائدية التي انتشرت في أقاليم الدولة.

---

(١) فتوح البلدان ٤٣٠.
(٢) المصدر نفسه ٤٢٩.

ومما يسَّر تحقيق سياسته أن الترك لم تكن لهم ثقافة عميقة حَرِيّة بالتمسك، فلم يصعب على الإسلام بخصائصه المميزة أن ينتشر في الترك، ولا سيما أن الإسلام تسنده دولة قوية تتميز بتيسير الحرية للناس، فضلاً عن أن الازدهار الاقتصادي فيها يوفر للتجار مجالاً للربح.

اهتم المأمون بالتوسع في المشرق منذ أوائل سني ولايته على خراسان، ولم تذكر المصادر صعوبات واجهها في هذا التوسع الذي لم تصلنا تفاصيله، ومن المحتمل أن جيش طاهر بن الحسين الذي وجَّهه المأمون للسيطرة على بغداد كان فيه من الترك عدد يصعب تقديره.

السغد

كانت خراسان في زمن الخلفاء الراشدين آخر إقليم للدولة الساسانية في المشرق، وحدُّها في الشرق نهر جيحون. أما البلاد التي ما وراءه فكان أهلها من السغد، ووراءهم بلاد الترك ثم بلاد المغول.

والسغد قوم تميَّزوا بسمات حضارية متقدمة، وقد وصلهم الإسكندر المكدوني في فتوحه في المشرق وضمَّهم إلى دولته، وأقام فيهم جالية إغريقية كونت بعده دولة باكتريا، وعاصمتها بلخ[١]؛ وكانت بلادهم عند تقدُّم العرب متقدمة في الحضارة وفيها عدد من المدن المزدهرة فلجأت إليها أعداد من مختلف هذه التيارات، بمن فيهم معتنقو البوذية من الصين، حيث كان لهم في بلخ معبد النوبهار ومن سدنته برمك جد أسرة البرامكة، كما لجأت إلى بلادهم أعداد من معتنقي المانوية التي اضطهدها الساسانيون، وأعداد من النصارى واليهود، وربما أصحاب عقائد أخرى، مستفيدين من الحرية الواسعة المتوافرة لهم في هذه البلاد. غير أنهم لم تكن لهم عند تقدُّم المسلمين إلى بلادهم دولة يهيمن عليها حاكم يوحِّدهم سياسياً، فكانت غالبية مدنهم تتمتع باستقلال

(١) انظر كتاب «الإغريق في باكتريا» لتارن بالإنكليزية.

سياسي، ولابدّ أنه كانت بين حكام هذه المدن مناقشات ومشاحنات أضعفتهم سياسياً(١).

تعرضت بلاد السغد لعدد قليل من غزوات الساسانين الذين استقرت حدودهم عند نهر جيحون، وقلما تجاوزوه(٢). ولما قامت الدولة الإسلامية اتَّبعت منذ بدء تكوُّنها سياسة التوسع التي مكّنتها من القضاء على الدولة الساسانية، ومدت توسعها إلى الهضبة الإيرانية حتى وصلت جيوشها في زمن الخلفاء الراشدين إلى خراسان فضمت إلى دولتها البلاد كافة، الواقعة غربي نهر جيحون.

وتابع الأمويون سياسة التوسع، وكان عماد قوّتهم العسكرية العرب؛ ونظراً لبعد هذه البلاد عن قلب الدولة الإسلامية، فقد نقلوا منذ أوائل خلافة معاوية مُقاتِلةً من العرب يقيمون دائماً في خراسان، ويقومون بمهمة حماية حدود الدولة وتوسيعها، غير أن الحروب الكثيرة التي خاضها هؤلاء المقاتلة تطلّبت إمدادهم بمقاتلة جدد للتعويض عمّا تفقده من القتلى والجرحى،(٣) إضافة إلى أن كثيراً من الجيل الجديد من المقاتلة العرب لم يحتفظوا بنفس الروح العسكرية والتدريب الذي كان لآبائهم، وضعف شعورهم بأهمية التوسع، وسَرَتْ فيهم بعض الخلافات القَبلية التي زادت من إضعافهم.

وقد استنفدت الجزيرة العربية طاقتها في تزويد الجيوش الإسلامية بالمقاتلة. وكان لا بدّ من البحث عن مصادر أخرى غير جزيرة العرب، لمدّ الجيوش الإسلامية بالمقاتلة؛ وعالجت الدولة هذا الوضع ففرضوا على ما يفتحونه من

(١) بارتولد، انظر كتاب «تركستان حتى الفتح المغولي» لبارتولد. ترجمة صلاح الدين عثمان.
(٢) كرستنسن انظر تفاصيل في كتاب «إيران في عهد الساسانيين» لكرستنسن. ترجمة يحيى الخشاب.
(٣) انظر كتابنا «امتداد العرب في صدر الإسلام».

الأقاليم تقديم الرقيق المقاتلة كجزء مما يفرض عليهم وقد طُبِّقَ هذا، من زمن مبكر، فيروي أبو عبيدة أن عبد الله بن عامر عندما فتح مرو صالح أهلها على وصائف ووصفاء ودواب ومتاع، ولم يكن عند القوم يومئذٍ عين، وكان الخراج على ذلك حتى وَلِيَ يزيد بن معاوية فصيَّره مالاً[١]. ويروي البلاذري أن سعيد ابن عثمان أخذ رهناً خمسة عشر من أبناء ملوكها (سمرقند) ويقال أربعين، ويقال ثمانين، وأخذهم معه ليعملوا في مزارعه، وشدّد عليهم في العمل، فاعتدوا عليه وقتلوه[٢]. ولعل أمثال هؤلاء كوَّنوا «رقيق الخمس» الذي يتردد ذكره في كتب التاريخ والفقه[٣].

ويبدو أن العرب تابعوا أخذ الرقيق من هذه البلاد كضريبة مفروضة عليهم، فيذكر أبو الوزير عمر بن المطرف في قائمة الجبايات التي أعدها للرشيد عند توليه الخلافة أن مما فرض على خراسان ألفي راس[٤]، ويذكر ابن خرداذبة أن ما ضُمّ إلى عبد الله بن طاهر من السبي الغزية قيمته ستمائة ألف درهم[٥]، ويذكر قدامة بن جعفر أن هذه الوظيفة قررت سنة ٢٢١[٦]، ولكنه يدمج مقدارها مع ضرائب أخرى. إن هذين النصَّين اللذين وصلانا يظهران أن جباية الوصائف كانت وضيعة ثابتة مقررة، ولا نعلم متى أعيدت بعد زمن يزيد بن معاوية، كما لا نعلم استمرارها. ويبين هذان النصان أحد مصادر الرقيق في بغداد وإن كان الأرجح أن معظمهم كانوا يستخدمون في الأغراض المدنية، وقليل منهم كان يستخدم في الجيش.

وكان للحرب بين الأمين والمأمون أثر كبير على الدولة، إذ أدت إلى تشتت الجيش العباسي الذي كان يقيم في بغداد ويعتمد عليه الخلفاء العباسيون في

(١) فتوح البلدان ٤٠٥.
(٢) المصدر نفسه ٤١٢.
(٣) انظر «التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة».
(٤) الوزراء والكتاب ٢٨٣.
(٥) المسالك والممالك ٣٧، ٣٩؛ وانظر «الوزراء» لابن شاذان ١٧١.
(٦) كتاب الخراج ٢٤٣.

تثبيت سلطانهم والاستقرار في بغداد والعراق، بالإضافة إلى المهمات التي كانت تستند إليه في تقوية الثغور والمشاركة في الحملات التي ترسل للتوغل في أطراف بلاد الروم، وفي إخماد بعض الثورات في بلاد المشرق، وكذلك في تدعيم سلطان العباسيين في شمالي أفريقيا وأقاليم المغرب.

ولما استتبت الخلافة للمأمون ظلت الحاجة ملحّة لجيش قوي تستند إليه الخلافة في قمع الثورات، وفي حماية الحدود وصدّ أخطار الروم، وفي تثبيت الأمن في البلاد. وكان الخراسانيون عماد الجيش الذي ارتكز عليه المأمون، غير أن الحروب الكثيرة التي شاركوا فيها أرهقتهم واستنزفت طاقة خراسان بإمداد الخلافة بالرجال، كما أن المقاتلة العرب كانت تهزهم التيارات السياسية التي تعرّضوا لها ودفعت كثيراً منهم إلى اتخاذ مواقف ليست من مصلحة الخلافة، ولم يكن من السهل الاعتماد على جزيرة العرب بمدّ جيوش العباسيين بالرجال، فكان لا بدّ من البحث عن مصادر أخرى لإدامة قوة الجيش، ورأى المعتصم أن الترك في أواسط آسيا يُكَوّنون مصدراً معتمداً في إمداد الجيش الإسلامي بالرجال.

الترك

الترك شعب قديم الأصول تميِّزهم لغة عامة يستعملونها وإن اختلفت لهجاتها، وديانتهم الشنتوية ضحلة في عقائدها وضعيفة في قدرتها على التأثير في حياتهم وأفكارهم وعقائدهم[١]. وفيهم خصائص تميِّزهم وتُغري باستخدامهم في الجيش، وقد أفاض الجاحظ في التعبير عنها في رسالته «مناقب الأتراك». وكان مما قاله: التركي في بلاده ليس بقاتل على دين ولا على تأويل ولا على ملك ولا على خراج ولا على عصبية، ولا على غيرة دون الحرمة والمحرم ولا على حمية ولا على عداوة، ولا على وطن ومنع دار ولا مال[٢]. وذكر أن

(١) انظر تفاصيل أوفى في كتاب بارتولد «تاريخ الترك في أواسط آسيا».
(٢) مناقب الأتراك ٥٢.

الأتراك قوم لا يعرفون الملق ولا الخلافة ولا النفاق ولا السعاية ولا التصنع ولا النميمة ولا الرياء ولا البذخ على الأولياء، ولا البغض على الخلفاء، ولا يعرفون البذخ، ولم تفسدهم الأهواء، ولا يستحلون الأموال على التأويل[(١)]، وذكر كذلك ميزاتهم التي اختصوا بها في القتال مما ذكرناه أعلاه.

كانت ديار الترك الأولى في أواسط آسيا، بين بلاد المغول المحاذية للصين وبلاد الصغد المحاذية لخراسان[(٢)]، وانتشر بعض أفرادهم في بلاد الصغد واستوطنوا مدنها واختلطوا بأهلها وتأثروا بحضارتها؛ وكانت لهم عند ظهور الإسلام دولتان سيطرت إحداهما على البلاد المحاذية للصغد. وبسبب بعد بلادهم عن دولة الإسلام فإن المعلومات المتوافرة عنهم في الكتب العربية عامة ومقتضبة وغير مفصّلة، وكان احتكاكهم بالعرب في المراحل الأولى ضعيفاً، إذ إن العرب بعد قضائهم على الحكم الساساني وضمّهم خراسان ركزوا جهودهم على مدّ دولتهم إلى أقاليم الصغد المتاخمة لخراسان، والغنية بمواردها الاقتصادية وتقدُّم أهلها في الحضارة وكان قد اعتنق كثير منهم المانوية كما انتشرت فيهم البوذية والمسيحية وبعض اليهود. وخلال فتوح بلاد الصغد حدث أول احتكاك بين العرب والترك الذين أعان بعضهم الصغد في قتالهم مع العرب، ومن ذلك أنهم استمدوا الخاتون حاكمة بخارى عندما هاجمها العرب في زمن ولاية عبيد الله بن زياد وسعيد بن عثمان، وأعانهم دهقان الترمذ في مقاومتهم تقدُّم العرب. وازداد احتكاك العرب بالترك لما توغل كلٌّ من قتيبة بن مسلم ثم الجراح الحكمي وسعيد خدينة إلى أشروسنة والشاش واشتيخن، وكذلك عندما توغل أسد بن عبد الله واشتبك مع خاقان الترك، وعندما غزا نصر بن سيار أشروسنة[(٣)].

كانت هذه الحركات في أقاصي حدود الدولة الإسلامية وهي غزوات متفرقة

(١) مناقب الأتراك ٦٢.

(٢) مروج الذهب ١/١٤١-٥؛ التنبيه والإشراف ٥٧، ٧٧؛ لطائف المعارف للثعالبي ٢٤، ١٥٣.

(٣) انظر تاريخ تركستان لبارتولد «تاريخ الترك في أواسط آسيا»، وانظر فتوح البلدان، «للبلاذري» ٤٠٩، ٤١٧، ٤١٨، ٤٢٠، ٤٢٥، ٤٢٦-٤٢٨.

أكثر منها حملات قوية منظمة لضمّ بلاد الترك، ولا بدّ أن مرجع ذلك بُعْد هذه البلاد، وقوة شكيمة الترك. غير أن الترك، رغم قوّتهم العسكرية، لم يقوموا بحركات جدية لانتزاع البلاد التي فتحها المسلمون، ولعل من أهم أسباب موقفهم هذا هو أنهم كانوا متفرقين لا تنظمهم دولة قوية توحدهم أو حكام طموحون في التوسع.

ولما وَلِيَ العباسيون الخلافة لم يحاولوا التوسع تجاه الترك، وفي هذا يقول البلاذري: «فلما استخلف أمير المؤمنين أبو العباس ومَنْ بعده من الخلفاء كانوا يولون عمّالهم فينقصون حدود أرض العدو وأطرافها، ويحاربون مَنْ نَكَث البيعة ونقض العهد من أهل القبلة، ويعيدون مصالحة من امتنع من الوفاء بصلحه بنصب الحرب له»[1] ولا ريب في أن بعض أسباب قلة اهتمام العباسيين الأوائل في مدّ سلطان الدولة في أواسط آسيا أنهم نقلوا عماد جيش خراسان إلى بغداد واستخدموه في قمع الثورات وتأمين سيطرتهم على الغرب، والوقوف بوجه الروم.

إن الحروب في أواسط آسيا بين العرب والترك في هذا الزمن المبكر لم توقف نمو علاقات سلمية بينهما. ولا يبعد أن سياسة عمر بن عبد العزيز في نشر الإسلام جعلته يمتد إلى الترك[2]، كما أن الحرية التي وفَّرها العرب في التنقل والتجارة يسَّرت قدوم أتراك إلى البلاد الإسلامية للتجارة أو لأغراض أخرى. فعندما أسَّس المنصور بغداد أقطع بعض من كان في مناطق الترك قطائع فيها، فكان في ربض حرب في الأطراف الشمالية الغربية من بغداد قطائع لأهل الختل، وأهل بخارَى، وأهل أشتاخنج، وبالقرب من هذا الربض كانت قطيعة لأسد بن المرزبان وهو من أهل أشتاخنج[3]. ومن المحتمل أن الخطط الكثيرة لعدد ممن نسبوا إلى مدن في إقليم خراسان والصغد كان فيها عدد من الترك.

---

(١) فتوح البلدان ٤٢٨.

(٢) انظر: فان فلوتن، السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات، وانظر: توماس ارنولد، انتشار الإسلام، وانظر كتابنا عمر بن عبد العزيز.

(٣) البلدان لابن الفقيه ٢٤٨، وانظر دراستنا «بغداد مدينة السلام» ٢/ ١٧٢.

يدَّعي أبو عبيدة أن هذه الوضيعة وضعت منذ بداية فتوح خراسان بسبب قلة النقود، وأنها استمرت إلى زمن يزيد بن معاوية فصيَّره مالاً. غير أن قوائم جباية خراسان التي وصلتنا تُظْهر أن هذه الوضيعة كانت قائمة في زمن العباسيين الأوائل، ففي قائمة موارد الدولة التي أعدها أبو الوزير عمر بن المطرف لهارون الرشيد كان مما ترسله خراسان إلى مركز الخلافة ببغداد وصائف.

وذكر الجاحظ أن المأمون عرض جنده وكان للأتراك تميُّز في ثباتهم على ظهور خيلهم فأعجب بهم وقال «أشهد أن المعتصم كان أعرف بهم حين جمعهم واصطفاهم»[1].

وذكر المسعودي فقال: «وكان المعتصم يحب جمع الأتراك وشراءهم من أيدي مواليهم، فاجتمع له منهم أربعة آلاف، فألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة والحلية المذهبة، وأبانهم عن سائر جنوده».

وذكر اليعقوبي أن المعتصم لما قَدِم بغداد منصرفه من طرس سنة ٢١٨، كان معه خلق من الأتراك، وهم يومئذٍ عجم: «أعلمني جعفر الحشكي كان المعتصم يوجّه بي في أيام المأمون إلى سمرقند إلى نوح بن أسد في شراء الأتراك، فكنت أقدِمُ عليه في كل سنة منهم بجماعة، فاجتمع له في أيام المأمون منهم زهاء ثلاثة آلاف غلام. فلما أفضت إليه الخلافة ألحَّ في طلبهم واشترى من كان ببغداد من رقيق الناس، كان ممن اشترى ببغداد جماعة جملة منهم أشناس وكان مملوكاً لنعيم بن خازم أبي هارون بن نعيم، وإيتاخ وكان مملوكاً لسلام بن الأبرش، ووصيف كان زرّاداً مملوكاً لآل النعمان، وسيما الدمشقي وكان مملوكاً لذي الرئاستين الفضل بن سهل[2]».

يتبين من كلام الجاحظ واليعقوبي أن المعتصم أخذ يجمع الأتراك منذ زمن خلافة المأمون، وأنهم كانوا له رقيقاً اشترى بعضهم من بغداد، وكان نوح بن

(١) مناقب الأتراك ٦٢.
(٢) البلدان لليعقوبي ٢٥٥.

أسد يشتري بعضهم من بلاد ما وراء النهر، وكان عددهم قبل أن تقضي عليه الخلافة ثلاثة آلاف، ولعل عددهم بلغ أربعة آلاف عندما وَلِيَ الخلافة، وأنه كانت كل مجموعة من مجموعاتهم الأربع في سامرَّاء تبلغ ألفاً عليهم قائد.

عدد الأتراك:

يروي علي بن يحيى المنجم، لما استتم المعتصم عدة غلمانه الأتراك بضعة عشر ألفاً، وعلق له خمسون ألف مخلاة على فرس وبرذون وسرج[1]، أن هذا العدد أكبر بكثير من العدد الذي ذكرته المصادر التي ذكرناها أعلاه والتي قدرت بين ثلاثة وأربعة آلاف، ولا يمكن أن يرجع إلى تزايدهم بهذا المقدار الكبير إنشاء سامرَّاء.

يروي الطبري أن المستعين عاتب الأتراك عندما نَقِموا عليه وقال لهم: «ألم ترفعوا إليّ في أولادكم، فألحقتهم بكم، وهم نحو من ألفي غلام، وفي بناتكم فأمرت بتصييرهن في عداد المتزوجات وهن نحو أربعة آلاف امرأة في المدّركين والمولودين. وكل هذا قد أجبتكم إليه، وأدررت لكم الأرزاق حتى سبكت لكم آنية الذهب والفضة ومنعت نفسي لذتها وشهوتها»[2]. إن هذه الأرقام المعتمدة على السجل في الديوان لا تجعل تقدير الرجال أكثر بكثير من أربعة آلاف. ويلاحظ أن المعتصم وزّع الأتراك في أربع مجموعات خططية، مما قد يشير إلى أن كل مجموعة كانت تتكون من قرابة ألف مقاتل.

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب ٣/ ١٤٦.

(٢) الطبري ٣/ ١٥٤٤.

الفصل الرابع

البحث عن المكان واختيار الرقعة

تميّزت سامرّاء بكونها مدينة واسعة امتد العمران فيها ثمانية فراسخ (حوالى ثلاثين كيلو متراً) وتخلل ذلك فراغات واسعة وميادين متعددة، وقام ازدهارها على إقامة ثمانية خلفاء فيها ثماني وخمسين سنة (٢٢١-٢٧٩). فلما انتقلوا منها تدهورت أحوالها بسرعة ولكن لم يُقْضَ عليها فظلت مركزاً لسكّ النقود منذ تأسيسها سنة ٢٢٣ إلى سنة ٣٣٣؛ ما عدا سنوات قليلة متفرقة لم يعثر خلالها على نقود مسكوكة فيها وترجع بعض أسباب المكانة المتواضعة التي احتفظت بها إلى أنه كان فيها مدفنا علي الهادي والحسن العسكري اللذين لهما مكانة عند الشيعة.

غرض الخلفاء من تأسيس المدن:

شيد العرب منذ أوائل تكوين دولتهم مدناً كان لأغراض إنشائها أثر في تنظيمها، فقد شيّدوا، منذ زمن الخليفة عمر بن الخطاب، أمصاراً ليسكنها المقاتلة العرب ولتكون مراكز قواتهم العسكرية العاملة في حفظ الأمن والإدارة، وتوسيع الدولة. واتخذ بعض الخلفاء الأمويين مراكز متفرقة في البادية وأطراف العمران للإقامة فيها ترويحاً للنفس، ويمكن أن نضع في هذا الصنف مدينة الزهراء التي شيدها الخليفة الناصر في الأندلس في القرن الرابع الهجري.

إن المراكز التي شيدها العرب كانت لإقامة المقاتلة من أجل أداء عملهم في صد غزوات أعداء الدولة من خارجها أو القيام بحملات منها على أولئك الأعداء. ومن أمثلة هذه المراكز مدن الثغور في الأطراف المحاذية لبلاد الروم في بلاد الشام والجزيرة وكذلك عدد من المدن في خراسان[1].

---

(١) انظر كتابنا «امتداد العرب في المشرق»؛ وانظر دراستنا عن أهل القيروان المنشورة في مجلة «المنارة» التي تصدرها جامعة آل البيت.

وشيد العرب مدناً ليقيم فيها الحاكم وحاشيته وهي في الغالب قرب مراكز قديمة كالعباسية التي أنشأها أمراء شمال أفريقيا قرب القيروان.

أما بغداد فإن تخطيطها يظهر أن المنصور أراد منها إقامة مدينة تحميه من الأخطار الداخلية والخارجية كالتي هددته عندما حاصر الراوندية مدينة الهاشمية التي كان يقيم فيها بالكوفة، ولذلك أحاط قصره والجامع وبيوت أولاده الصغار بسور وزع خارجه الحرس والشرطة وأحاطهم بسورين وخندق لصدّ أي خطر يداهمه[1].

ولا ريب في أن أكثر هذه المدن سرعان ما تطورت فيها حياة حضرية واقتصادية وفكرية غيرت سماتها الأولى، ودام بعضها سنين أو قروناً يحمل السمات التالية التي تخالف ما كانت فيها نشأتها الأولى.

أما سامرّاء فإن المعتصم أسسها واتخذها مقراً لتجنُّب الأخطار الناجمة عن أن الاحتكاك بأهل بغداد قد يؤدي إلى تهديد خلافته، فغرضه دفاعي بالدرجة الأولى. وذكرت بعض المصادر أنه قام بنقل مقر إقامته من بغداد بسبب حوادث اصطدامات متفرقة حدثت بين جنده الأتراك وأهل بغداد الذين تأذّوا منها. وفي هذا يروي الطبري أن سبب خروج المعتصم إلى القاطول كان أن غلمانه الأتراك كانوا لا يزالون يجدون الواحد بعد الواحد منهم قتيلاً في أرباضها، وذلك أنهم كانوا عجماً جفاة يركبون الدواب، فيتراكضون في طرق بغداد وشوارعها، فيصدمون الرجل والمرأة ويطأون الصبي، فيأخذهم الأبناء، فشكت الأتراك ذلك إلى المعتصم، وتأذت بهم العامة[2]. وينقل عن أحمد بن خالد أن المعتصم بعثه في سنة ٢١٩ وقال اشتري بناحية سامرّاء موضعاً أبني فيه مدينة فإني أتخوف أن يصيح هؤلاء الخُرّمية صيحة، فيقتلوا غلماني، حتى أكون فوقهم فإن رابني منهم ريب أتيتهم في البر والبحر، حتى آتي عليهم[3].

---

(١) انظر كتابنا «بغداد مدينة السلام» من منشورات المجمع العلمي العراقي.
(٢) الطبري ٣/ ١٠١١-١٠١١.
(٣) المصدر نفسه ٣/ ١١٧٩.

إن عزم المعتصم الانتقال من بغداد بعد إقامة أقل من سنة لا يبرره احتكاكات محدودة بين جنده وبعض أهل بغداد في الخُرّمية كما تدَّعي رواية الطبري، إذ إن مثل هذه الحوادث يمكن معالجتها لأنها كانت محدودة، فلا بدّ أن الانتقال جرى لأسباب أبعد وهي إدراك المعتصم ضعف وشائج صلته بأهل بغداد الذين لم تكن لهم به صلات وثيقة مما يجعل وضعه في بغداد غير راسخ ويعرِّضه لأخطار مهددة، لذلك عجل في الانتقال عنها وارتاد موضعاً جديداً.

كان الغرض من إنشاء سامرّاء غرضاً دفاعياً وكانت مصادر الأخطار المهددة من الجيش والعامة، وقد اتخذ في معالجتها أسلوباً يختلف عما اتخذه المنصور عند تأسيسه بغداد، إذ إنه لم يحرص على تحصين مدينته أو قصره بالأسوار والخنادق، وإنما عمد إلى توزيع منازل مَنْ معه من الجند في أماكن متباعدة فتفرقهم وتعرقل تجمعهم وتهديدهم، كما أن العامة لم يكونوا خطراً عليه لأنهم عند تأسيسها كانوا قليلين نسبياً وهم من الكَسَبَة ومتفرقون في أرجائها الواسعة ولم تستقر فيهم توجيهات سياسية وأحزاب كالتي كانت في بغداد.

البحث عن المكان:

ذكر الطبري: «فلما كانت سنة ٢١٩، وقيل سنة ٢٢٠، وذلك عندي خطأ، خرج المعتصم يريد القاطول، ويريد البناء بسامرَّاء، فصرفه كثرة زيادة دجلة، فلم يقدر على الحركة، فانصرف إلى بغداد إلى الشماسية، ثم خرج بعد ذلك»[١].

وذكر المسعودي أن المعتصم عزم على النقلة من بغداد وأن ينزل في فضاء من الأرض فنزل البردان على أربعة فراسخ من بغداد فلم يستطب هواءها، فلم يزل يتنقل ويتقرى المواضع والأماكن في دجلة وغيرها حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالقاطول فاستطاب الموقع وكان هناك قرية يسكنها خلق من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول آخذاً من دجلة. فبنى هناك قصراً

(١) الطبري ٣/ ١١٨٤.

وبنى الناس وانتقلوا من مدينة السلام ونالت مَنْ مع المعتصم شدة عظيمة لبرد الموضع وسلامة أرضه وتأذوا بالذباب[١]. وقد تفرَّد المسعودي بذكر الجرامقة في هذه المنطقة، لأن المعروف أن الجرامقة يقيمون في بلاد الشام، ولعل بعضهم نقل إلى هذه المنطقة في زمن، ولم تجد له المصادر.

لفتت منطقة سامرَّاء نظر عدد من الخلفاء العباسيين. فيروي ابن الفقيه أن السفاح أراد أن يبني فيها ثم بنى مدينة الأنبار، وأن المنصور عندما أراد اختيار موضع لبناء مدينة يتخذها مقاماً له أرسل من يفتش عن موضع مناسب، وابتدأ بالبناء في البردان ثم بدأ له وبنى بغداد[٢].

وذكر أن الرشيد كان إذا ضجر من المقام ببغداد يتنزه بالقاطول وقد كان بنى هناك مدينة آثارها وسورها قائم ولكنه لم يتمها[٣]. وأراد الرشيد أيضاً بناءها، فبنى بحذائها فابتدأ في البناء، فبنى عندها قصراً سمّاه المبارك، وهو بحذاء بناء قديم كان الأكاسرة قد بنوه. ولعلها هي التي ذكرها الجاحظ بقوله، المباركة في القاطول[٤].

وقد وجدت دراهم فضية ذكر عليها أنها ضربت في المبارك زمن الخلافة الأموية في السنوات ١٠٧-١١٠/١١٧-١٢٠ ولا بدّ أنها غير المباركة التي بناها الرشيد.

يذكر البلاذري أن الرشيد كان قد ابتنى قصراً حين بنى قاطوله الذي دعاه أبا الجند.

إن هذه المواضع كافة تقع شرقي دجلة على الطريق إلى الموصل ولم تُقَمْ فيها مقاتلة من العرب، وكانت في العصر الأموي معرضة إلى اضطرابات سببها حركات الخوارج، وقد اهتم بها هارون الرشيد عندما عمّر القاطول وسمّاه أبا الجند.

(١) مروج الذهب ٣/٤٦٦.
(٢) البلدان ١٤٣ (مخطوطة مشهد).
(٣) معجم البلدان ٣/١٥.
(٤) مناقب الأتراك ٦٢.

ذكر ابن خرداذبة الأبعاد بين هذه المواضع في وصفه الطريق بين بغداد والموصل فقال «من بغداد إلى البردان أربعة فراسخ ثم باحمْشا ثلاثة فراسخ ثم إلى القادسية سبعة فراسخ ثم إلى سُر من رأى ثلاثة فراسخ ثم إلى الكرخ فرسخان»[١].

اختيار الموقع

تنسب بعض الروايات سبب اختيار المعتصم للرقعة التي أنشأ عليها سامرَّاء إلى تنبؤ راهب، فيروي اليعقوبي أن المعتصم ارتاد موقع سامرَّاء «فقال له بعض الرهبان نجد في كتبنا المتقدمة أن هذا الموضع يسمى سُرَّ مَنْ رَأى وأنه كان مدينة سام بن نوح، وأنه سيُعمَّر بعد على يد ملك جليل عظيم مظفر منصور له أصحاب كأن وجوههم وجوه طير الفلاة ينزلها وينزلون فيها» «ويذكر أيضاً أن الرشيد تنبأ للمعتصم ببناء المدينة»[٢].

رقعة أرض سامرَّاء

تقع سامرَّاء في رقعة من الأرض تتيح مجال الاستيطان فيها، وقد درس العرب قدم تاريخ الاستيطان فيها وأرجعوا اشتقاق اسمها من اسم سام بن نوح، والواقع أنه ورد في عدد من النقوش البابلية المكتشفة ذكر «سمارو» التي يرجِّح أن سامرَّاء مشتق منها[٣].

لا تذكر المصادر معلومات وافية عن أحوالها في العصر الساساني سوى أن بقربها القاطول الكسروي الذي تدل تسميته على أنه يرجع إلى ذلك العهد، وأن الساسانيين عملوا على إعمار المنطقة بحفر ذلك النهر أو تجديده.

لم يرد اسم سامرَّاء في أخبار الحوادث زمن الراشدين والأمويين، وذكر

---

(١) المسالك ٩٣، الخراج لقدامة ٢١٤.

(٢) البلدان ٢٥٧.

(٣) انظر كتاب «الامبراطورية الفارسية» لهرزفيل.

الأزدي في تعليل ذلك فقال: إن سامرّاء كانت مدينة عظيمة عامرة كثيرة الأهل فخربت حتى صارت خربة، وكان سبب خرابها أن أعراب ربيعة وغيرهم كانوا يغيرون على أهلها فرحلوا منها[١]. والواقع أن هذه المنطقة تأثرت من الاضطرابات التي رافقت حركات الخوارج فيها مما حمل الأمويين على إقامة حامية عسكرية دائمة في الراذان لحفظ الأمن والسلام في المنطقة. ويقول المسعودي «إنها في القديم كانت عظيمة عامرة، فلم تزل تتناقص على مر الأيام وكان آخر خرابها في أيام فتنة الأمين والمأمون»[٢].

إن الرقعة التي اختارها المعتصم لإنشاء مدينته بعد أن قرر التخلي عن الإقامة في القاطول ذكر عنها المسعودي فقال «كان هناك للنصارى دير عادي». وذكر في مكان آخر «أن موضع قصر المعتصم كان ديراً للنصارى فابتاعه منهم»[٣]. وذكر اليعقوبي أن المعتصم عندما ارتحل من القاطول إلى سرّ من رأى فوقف في الموضع الذي فيه دار العامة، وهناك دير للنصارى فاشترى من أهل الدير الأرض واختطّ فيه، وصار إلى موضع قصر الجوسق على دجلة[٤]. ويقول الأزدي إن المعتصم ابتاع أرض سامرّاء بخمسمائة ألف درهم من أصحاب دير كان هناك، واشترى موضع البستان المعروف بالخاقاني بخمسة آلاف درهم[٥].

تُلْقِي هذه النصوص الضوء على أسعار الأراضي عند بناء المدينة، وتدل على أن المنطقة كانت قليلة السكان، وربما قليلة المزارع أيضاً.

يقول حفيد حاجب النعمان إن المعتصم لما نزل سامرّاء «وَلّى راشداً المغربي كورتَيْن تتصلان بسرّ من رأى، وهما تكريت والطيرهان، وأخرجهما من الموصل، وبقي من كور الموصل ما ينسب إليها سبع كور». ولم يحدد هذا الحفيد أو غيره من المصادر حدود كلٍّ من تكريت والطيرهان ولعل سامرّاء كانت من الطيرهان.

---

(١) تاريخ الموصل ٤١٦.

(٢) التنبيه والإشراف ٣٠٩.

(٣) مروج الذهب ٣/٤٦٦، التنبيه والإشراف ٣٠٩.

(٤) تاريخ اليعقوبي ٣/١٨٦.

(٥) تاريخ الموصل ٤١٦.

وذكر ابن خرداذبه أن كور الموصل الطيرهان وتكريت والسن وباجرمي والبوازيج، وكان ارتفاعها في عبرة سنة ٢٠٤ سبعمائة وثمانين ألف درهم. وذكر في مكان آخر أن وظيفتها تسعمائة ألف. وتجدر الإشارة إلى أنه كانت من كور الموصل شهرزور والصامغان وارتفاعها ٢,٧٥٠,٠٠٠ درهم. وكانت من كور الموصل في الجانب الشرقي الحديثة وحزة وبهدرا والمعلة والحناية وأواسط ارتفاعها ٦,٣٠٠,٠٠٠ درهم. وكانت من الموصل كور الجزيرة، ونينوى والمرج[١].

لا يستبعد اعتماد المعتصم في اختيار رقعة الأرض على التنبؤ الذي ذكر في اختيار رقع مدن أخرى، ففي اختيار موقع الفسطاط يروي ابن عبد الحكم أن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الإسكندرية لقتال مَنْ بها من الروم أمر بنزع فسطاطه فإذا فيه يمام قد فرّخ، فقال عمرو بن العاص لقد تحرّم منا بمتحرّم فلما قفل المسلمون من الإسكندرية قالوا الفسطاط لفسطاط عمرو الذي كان قد خلّفه[٢].

ولما بحث أبو جعفر المنصور عن موقع المدينة التي اعتزم تأسيسها اختار المكان، وثَبَّتَ عزمه مشورة راهب قال له تجدون في كتبكم أنه تبنى ههنا مدينة؟ قال الراهب: نعم، يبنيها مقلاص، قال أبو جعفر المنصور: أنا كنت أدعى مقلاصاً في حداثتي، قال فأنت صاحبها، وكذلك لما أراد أن يبني الرافقة بأرض الروم احتج أهل الرقة، وأرادوا محاربته، وقالوا تعطل علينا أسواقنا، وتذهب بمعاشنا وتضيق منازلنا، فَهَمَّ بمحاربتهم، وبعث إلى راهب في الصومعة، فقال: هل عندك علم أن يبنى هاهنا مدينة؟ فقال له: بلغني أن رجلاً يقال له مقلاص يبنيها، قال أنا مقلاص[٣]. فبناها على بناء مدينة بغداد، سوى السور وأبواب الحديد وخندق منفرد.

---

(١) المسالك لابن خرداذبة ٩٤؛ الخراج لقدامة بن جعفر ٢٤٥؛ وانظر عن كور الموصل تاريخ الموصل للازدي.

(٢) فتوح مصر ٩١، وانظر الفصل الذي كتبناه في كتابنا «عمر بن عبد العزيز» عن هذه التنبؤات.

(٣) الطبري ٣/٢٧٦.

وصف الإصطخري الرقعة التي شيدت عليها سامرَّاء فقال «إنها كلها في شرقي دجلة وليس معها في الجانب الشرقي ماء، لكن عمارتها وزرعها وأشجارها فيما يقابلها من غربي دجلة»[١].

وذكر اليعقوبي أن الرقعة التي شيدت عليها سامرَّاء كانت صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة بها إلا دير للنصارى بالموضع الذي صارت في دار السلطان المعروفة بالعامة[٢].

(١) المسالك ٨٥.
(٢) البلدان ٢٥٧، ٢٥٧.

الفصل الخامس
المنطقة ومعالمها

منطقة سامرَّاء

شُيدت سامرَّاء في منطقة من كورة الطيرهان[١] وكانت قبل خلافة المعتصم من كور الموصل في أقصى جنوبيها وتتاخم إقليم العراق الذي كان حدّه الأعلى في الجانب الشرقي الطيرهان من طسوج برز بينه جسابور، وبإزائها من الجانب الغربي حربي من طسوج مسكن[٢]. ولما شيد المعتصم سامرَّاء أدخل تعديلات في التقسيمات الإدارية، فذكر حفيد حاجب النعمان أن الموصل كانت ثماني عشرة كور وكان خراجها يجري مع المغرب، ثم أخرج منها المهدي ثلاث كور هي شهر زور والصامغان وداريا، وأخرج منها المأمون أربع كور هي باجرما وخانيجار والكرخ ودقوقا، ثم استخلف المعتصم فلما نزل سُرَّ من رأى وَلِيَ راشد المغربي كورتين تتصلان بسرّ من رأى، وهما تكريت والطيرهان وأخرجهما من الموصل، وبقي من كور الموصل ما يُنْسب إليها وهي سبع كور ويذكر كذلك «فأما سُرَّ من رأى، فمحدثة ابتناها المعتصم وضم إليها دقوقا وخانيجار وما يجري مع ذلك من طريق الموصل»[٣].

إن أبرز المعالم التي تحدد منطقة سامرَّاء من شرقيها هي القاطول الأعلى الكسروي الذي يدل اسمه على أنه كان قائماً منذ أيام الساسانيين، يبلغ طوله من مأخذه من دجلة في الشمال إلى حصن القادسية في الجنوب أربعين كيلومتراً.

---

(١) التنبيه والإشراف ٣٠٩.

(٢) المصدر نفسه ٣٥ الأعلاق النفيسة ١١٤٢.

(٣) الوزراء ١٢٢ ب.

قدّم سهراب أوسع وصف في الكتب العربية للقاطول الكسروي وما عليه من المعالم فقال «القاطول الأعلى الكسروي أوله أسفل دور الحارث بشيء يسير مماس لقصر المتوكل على الله المعروف بالجعفري، وعليه هناك قنطرة حجارة، ثم يمر إلى الإيتاخية وعليه هناك قنطرة كسروية، ثم يمر إلى المحمدية وعليه هناك جسر زوارق، ثم يمر إلى الأجمة قرية كبيرة، ثم يمر إلى الشاذروان، ثم يمر إلى المأمونية وهي قرية كبيرة، ثم يمر إلى القناطر، وهذه قرى عامرة وضياع متصلة، ثم يمر إلى قرية يقال لها صولي ويعقوبا ويسمى هناك تامرا.

وفي الأطراف الجنوبية من منطقة سامرّاء تجري القواطيل الثلاثة وصف سهراب مجراها فقال: الثلاثة القواطيل أوائلها كلها موضع واحد أسفل مدينة سرّ من رأى بفرسخين بين المطيرة وبركوارا، ويسمى الأعلى منها اليهودي وعليه قنطرة وصيف ماداً إلى أن يصبّ القاطول الكسروي أسفل القناطر، والثاني يقال له المأموني وهو الأوسط ويمر بقرى وضياع وهو طسوج من السواد ومصبه في القاطول الكسروي أسفل قرية القناطر. والثالث يقال له أبو الجند وهو الأسفل وهو أجلُها وأعمرُها شاطئاً يمر بين ضياع وقرى ويتفرع منه أنهار تسقي الضياع التي على شاطئ دجلة الشرقي، ويصبّ أكثرها إلى دجلة، ثم يمر إلى طفر وعليه هناك جسر، ثم يمر في القاطول الكسروي فوق صلوى بأربعة فراسخ[1]. إن هذين النصين المتكاملين هما أشمل ما في كتب البلدان يجري في الأطراف الشرقية من منطقة سامرّاء وهما يُظهران أن القاطول الأعلى الكسروي هو أبرز معلم لحدودها الشرقية، ولم تذكر المصادر دور الحارث، ولعله خطأ من الناسخ وصوابه دور عربايا غير أن نص سهراب مقتضب، تكمله معلومات إضافية وردت في كتب البلدانيين والمؤرخين، ويتضح من حصيلتها أن الأطراف الشمالية الشرقية القاصية من منطقة سامرّاء فيها ثلاثة معالم عمرانية بارزة تدل أسماؤها على أنها كانت قائمة منذ ما قبل الإسلام، وهذه المعالم هي الدور والكرخ والماحوزة.

---

(١) سهراب ١٥٠، وانظر معجم البلدان ١٦/٤.

الدور

فأما الدور فإن اليعقوبي يقول إن المعتصم أقطع أشناس الكرخ، وأقطع أقواماً آخرين ما فوق الكرخ وسماه الدور[١]. ويقول إن المتوكل لما بنى المتوكلية «أقطع الناس بها القطائع وجعلها فيما بين الكرخ المعروف وبين القاطول المعروف بكسرى، ودخلت الدور والقرية المعروفة بالماحوزة فيها ويقول في كلامه عن الجعفرية واتصل البناء من الجعفرية إلى الموضع المعروف بالدور ثم بالكرخ وسُرَّ من رأى ماداً إلى الموضع الذي كان فيه ينزل ابنه أبو عبد الله المعتز، ليس بين شيء من ذلك فضاء ولا فرج ولا موضع لا عمارة فيه، فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ»[٢] ويقول في مكان آخر «اتصل البناء من بلكوارا إلى آخر الموضع المعروف بالدور أربعة فراسخ»[٣]. ويتبين من هذين النصين أن الدور كانت آخر حدود الإعمار في أوج توسع سامرّاء، إلا أنه ذكر للمسافة بين بلكوارا والدور تقديرين: سبعة وأربعة فراسخ خلالها الدور والقطائع والمساجد والحمّامات.

ذكر البلاذري أن المعتصم عندما شيد سامرّاء أنزل أشناس مولاه فيمن ضم إليه من القواد كرخ فيروز، وأنزل بعض قواده الدور المعروف بالعربائيين[٤]. ويقول إن المعتصم أقطع فوق الكرخ وكان الدور وبنى لهم خلالها الدور والقطائع والمساجد والحمّامات، وإن الدور والقرية المعروفة بالماحوزة دخلت في المتوكلية[٥]، ويقول ياقوت دور عربايا بين سامرّاء وتكريت تُعرف بدور عرباي[٦]، ويذكر أن دير الطواويي متصل بكرخ جدان يشرف على حدود آخر الكرخ على بطن يعرف بالبني، فيه مزدرع يتصل بالدور وبنيانها وهي الدور

(١) البلدان ٢٥٩.
(٢) م.ن ٢٦٦-٧.
(٣) م.ن ٢٦٥.
(٤) فتوح البلدان ٢٩٦.
(٥) المصدر نفسه ٢٩٧.
(٦) معجم البلدان ٢/ ٦٥.

المعروفة بدور عربايا، وهو قديم كان مَنْظَرَةَ لذي القرنين، ويقال لبعض الأكاسرة، فاتخذه النصارى ديراً في أيام الفرس[1] وكان من أبرز مَنْ أوطَنَهم المعتصم فيهم الموالي.

قدم الطبري في تاريخه أوسع المعلومات عن أهل الدور في كلامهم عن الحوادث التي جرت في زمن المستعين[2]، ثم في زمن المعتز[3] والمهتدي[4]. ويتبين من معلومات هذه الحوادث أنهم مقاتِلَةٌ أتراك، وأن لهم قواداً[5] وأن أحوالهم المعاشية السيئة كانت الدافع لتمردهم على الخلفاء، ولم تشر المعلومات إلى الجماعات التي سكنتها. ويبدو أنها كانت مركز حركة تجارية، فيذكر الطبري أنه في سنة ٢٧٤ دخل صديق الفرغاني دور سامرّاء فأغارَ على أموال التجار، وأكثَر العيث في الناس، وكان صديق هذا يخفر أول الطريق ثم تحوّل حارباً يقطع الطريق[6].

الكرخ:

وفي جنوب الدور تقع الكرخ التي يتردد ذكرها في الأخبار أكثر من غيرها، واسمها الكامل كرخ فيروز، وهو اسم يرتبط فيه «الكرخ» ومعناه بالآرامية «القلعة» بفيروز الذي ربما كان المقصود به فيروز بن يزدجرد، والد قباذ، وكان قد حكم أكثر من عشرين سنة مرت خلالها الدولة الساسانية بأحداث كثيرة. ذكر البلاذري أن المتوكلية «فيما بين الكرخ المعروف بفيروز وبين القاطول المعروف بكسرى»[7]، وذكر ياقوت كرخ سامرّاء وهو أقدم من سامرّاء، فلما بُنِيَتْ سامرّاء

(١) معجم البلدان ٢/ ٦٧٥، وانظر «الروض المعطار» للحميري ٣٣٠.
(٢) الطبري ٣/ ١٥١٣، ١٥٤٤.
(٣) م. ن ٣/ ١٧١٠.
(٤) م. ن ٣/ ١٧٩٦-١٨٢٢.
(٥) م. ن ٣/ ١٧٩٩.
(٦) م. ن ٣/ ٢١١٣.
(٧) فتوح البلدان ٢٩٧، معجم البلدان ٢/ ٥٩ وقد يدل هذا على أنها لم تكن على القاطول، ومما يؤيد ذلك أن سهراب لم يذكرها في كلامه عن مجرى القاطول.

اتصل بها وهو إلى الآن باقٍ وخربت سامرَّاء[١]، ويذكر أن سامرَّاء خربت حتى لم يبقَ فيها إلا موضع المشهد.. ومحلة أخرى بعيدة منها يقال لها كرخ سامرَّاء[٢]. وذكر ابن خرداذبه أن الكرخ إحدى محطات الطريق بين بغداد والموصل، وهي تلي سامرَّاء، وبينهما فرسخان، ثم بعدها بسبعة فراسخ جبلتا[٣]. وذكر المقدسي أن الكرخ مدينة متصلة بسامرَّاء وأعمر منها من نحو الموصل[٤]، وذكر في وصف محطات الطريق بين بغداد والموصل القادسية ثم الكرخ وبينهما مرحلة، ولم يذكر محطة في سامرَّاء[٥]. وذكر ياقوت أن دير الطواويس بسامرَّاء متصل بكرخ جدان يشرف عند حدّه، وآخر الكرخ على بطن يعرف بالسيف فيه المزدرع يتصل بالدور وبنيانها، وهو الدور المعروف بعربايا، وهو قديم كان مَنْظَرَةً لذي القرنين، ويقال لبعض الأكاسرة، واتخذه النصارى ديراً أيام الفرس[٦].

قصر أشناس

إن أبرز ما في الكرخ قصر أشناس وهو موضع مدينة قديمة على ارتفاع من الأرض[٧]. وأشناس من رجال المعتصم، كان معه في قتال الخوارج زمن خلافة إبراهيم بن المهدي، ثم كان معه عندما غزا المأمون بلاد الروم ففتح حصن سندس، وشارك في فتح عمورية[٨]، وقد استخلفه المعتصم على سامرَّاء عندما خرج إلى السن، وأجلسه على كرسي وتوّجه ووشّحه[٩]، وبقي ذا حظوة

(١) معجم البلدان ٣/ ٦٥٦.
(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٩.
(٣) المسالك والممالك ٩٣.
(٤) أحسن التقاسيم ١٢٢.
(٥) المصدر نفسه ١٣٤-٥.
(٦) معجم البلدان ٢/ ٦٥٧.
(٧) المصدر نفسه ٣/ ١٩ سهراب ١٢٧.
(٨) الطبري ٣/ ١٢٣٦، ١٢٤٤، ١٢٤٨، ١٢٤٩، ١٢٦١.
(٩) المصدر نفسه ٣/ ١٣٠٣.

عند الواثق الذي توجّه وألبسه وشاحين[١] وتوفي سنة ٢٣٠[٢].

ويقول اليعقوبي إن المعتصم أقطع أشناس الموضع المعروف بالكرخ وضم إليه عدة من قواد الأتراك والرجال وأمره أن يبني المساجد والأسواق[٣].

ولما شَغَب الأتراك على المهتدي صاروا به إلى دار أشناس وقد صيَّروها مسجداً جامعاً لهم[٤]. ويقول إن المتوكل عندما شيَّد المتوكلية مدَّ الشارع الأعظم من دار أشناس التي بالكرخ وهي التي صارت للفتح بن خاقان مقدار ثلاثة فراسخ إلى قصوره[٥].

الماحوزة:

الماحوزة هي المَعْلَم العمراني الثالث البارز في الأطراف الشمالية الشرقية من منطقة سامرّاء، واسمها آرامي معناه «البلدة» وهو يدل على قِدَمها، غير أن المعلومات الواسعة عنها لم تتوافر إلا عندما اختارها المتوكل لتشييد مدينته التي أرادها أن تحلّ محلّ سامرّاء مقراً للخلافة والإدارة.

ذكر البلاذري أن المتوكل أحدث مدينة سماها المتوكلية وعَمّرَها وأقام بها وأقْطَع الناس فيها القطائع وجعلها فيما بين الكرخ المعروف بفيروز وبين القاطول المعروف بكسرى وخلت الدور والقرى المعروفة بالماحوزة، وبنى بها مسجداً جامعاً وكان يسميها المتوكلية[٦].

وذكر الطبري أنه في سنة ٢٤٥ أمر المتوكل ببناء الماحوزة وسماها الجعفري، وأقطع القواد وأصحابه فيها، وجدّ في بنائها وتحوَّل إلى المحمدية ليتمّ أمر الماحوزة[٧]. وذكر أنه في سنة ٢٤٦ تحوّل المتوكل إلى المدينة التي

---

(١) الطبري ٣/ ١٣٣٠.
(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٧٩٧.
(٣) البلدان ٢٦٦.
(٤) م.ن ٢٥٨.
(٥) م.ن ٢٥٨.
(٦) فتوح البلدان ٢٩٧، معجم البلدان ٢/ ٥٩.
(٧) الطبري ٣/ ١٤٣٧.

بناها في الماحوزة ونزلها يوم عاشوراء من هذه السنة[١]. وذكر كذلك لما كانت صبيحة اليوم الذي بويع فيه المنتصر شاع الخبر في الماحوزة وهي المدينة التي كان جعفر بناها وأن الخبر شاع في أهل سامرَّاء وتوافى الجند والشاكرية بباب العامة بالجعفرية وغيرهم من الغوغاء والعوام فحملوا على الناس فدفعوهم إلى الثلاثة الأبواب[٢].

وذكر ياقوت أن الجعفرية قرب سامرَّاء بموضع يقال له الماحوزة[٣] وأن المتوكلية مدينة بناها المتوكل على الله قرب سامرَّاء وسماها الجعفرية أيضا سنة ٢٤٦، وبها قتل في شوال سنة ٢٤٧ فانتقل الناس عنها وخربت[٤]، وذكر اليعقوبي «عزم المتوكل على أن يبني مدينة ينتقل بها وتنسب إليه ويكون له بها للذكر فأمر محمد بن موسى المنجم ومن يحضره من المهندسين أن يختاروا موضعاً، فوقع اختيارهم على موضع يقال له الماحوزة، وقيل إن المعتصم قد كان على أن يبني هناك مدينة».

الجعفرية:

ذكرت المصادر الجعفرية مفردةً أيضاً، فذكر الطبري أنه في سنة ٢٤٦ صلى المتوكل فيها صلاة الفطر بالجعفرية وصلى عبد الصمد بن موسى في مسجد جامعها، ولم يصل بسامرَّاء أحد[٥]، وذكر أن المنتصر أقام في منزله وكان بالجعفرية[٦].

وفي موضع قصر المتوكل بالجعفرية قتل شيرويه أباه فيروز[٧].

(١) الطبري ٣/١٤٤٩.
(٢) المصدر نفسه ٣/١٤٧٩.
(٣) معجم البلدان ٣/١٨، ٢/٣٨٦.
(٤) المصدر نفسه ٤/٤١٣.
(٥) الطبري ٣/١٤٥٢.
(٦) المصدر نفسه ٣/١٤٥٤.
(٧) مروج الذهب ٤/٢٦.

الإيتاخية والمحمدية:

يقول سهراب في وصف مجرى القاطول الكسروي بعد أن يمر مُمَاسًا لقصر المتوكل على الله المعروف بالجعفري،وعليه هناك قنطرة حجارة، ثم يمر إلى الإيتاخية وعليه هناك قنطرة كسروية، ثم يمر إلى المحمدية وعليه هناك جسر زوارق ثم يمر إلى الأجمة(١) ويتبين من هذا أن الإيتاخية ليست بعيدة عن الجعفرية، وأن المحمدية في جنوبها. ولكنه لم يحدد الأبعاد بين هذه المعالم.

إن الإيتاخية منسوبة إلى إيتاخ، وهو من القواد الأتراك(٢) وكان في الأصل مملوكاً لسلام بن الأبرش فاشتراه المعتصم(٣) وكان من كبار القواد في حملة المعتصم على عمورية، وكان مُقرَّباً للمعتصم وولّي اليمن، وأرسل لحرب خارجي(٤) وكان كاتبه سليمان بن وهب، وولّي الحج، ثم غضب عليه المتوكل وقتله(٥) وذكر له اليعقوبي قطيعة قرب باب البستان في سامرّاء(٦).

ذكر ياقوت وقال البلاذري الإيتاخية تعرف بإيتاخ التركي ثم سماها المتوكل المحمدية باسم ابنه محمد المنتصر، وكانت تعرف أولاً بدير أبي الصفرة وهم قوم من الخوارج، وهي بقرب سامرّاء(٧). ونقل ابن أبي أصيبعة في ترجمته سلمويه عن ابن الداية أن دير بني الصقر، وهو الموضع الذي سُمّي في أيام المعتصم والواثق بالإيتاخية، وفي أيام المتوكل بالمحمدية(٨). لم أجد معلومات عن أبي الصفرة وديره، وإنما ذكرت المصادر أن مما بنى المتوكل قصر بستان الإيتاخية وانفق عليه عشرة آلاف درهم(٩). ولما أمر المتوكل ببناء الماحوزة

(١) سهراب ١٢٧.
(٢) الطبري ٣/١٣٠٦.
(٣) البلدان ١٥٤.
(٤) الطبري ٣/١٣٢٨.
(٥) المصدر نفسه ١٣٣١، ١٣٣٥.
(٦) البلدان ٢٦٢.
(٧) معجم البلدان ٤/٤٣٠ ولم يرد النص في المطبوع من فتوح البلدان.
(٨) عيون الأنباء في طبقات الأطباء.
(٩) معجم البلدان ٣/١٧.

تحوّل إلى المحمدية ليتم بناء الماحوزة[١]. وقد أقبل منها سليمان بن عبد الله ابن طاهر بعد أن صار إلى الإيتاخية[٢].

المطيرة:

المطيرة من المعالم العمرانية البارزة في سامرّاء، سُمِّيَتْ باسم مطر بن فزارة الشيباني الخارجي الذي كان نشطاً من زمن المامون. وفي المصادر معلومات تحدد موقعها، فقد ذكر اليعقوبي أن المعتصم بعد تركه الإقامة ببغداد ارتاد عدة مواضع بالتتابع، «ثم انتقل إلى القرية المعروفة بالمطيرة فأقام بها مدة ثم مد إلى القاطول فقال هذا أصلح المواضع».

ذكر سهراب معلومات عن مواقعها والمعالم العمرانية قربها فقال إن دجلة يحمل منه أيضاً الثلاثة القواطيل، أوائلها كلها موضع واحد أسفل مدينة سرّ من رأى بفرسخين بين المطيرة وبركوارا، ويسمى الأعلى منها اليهودي، وعليه قنطرة وصيف، يمر ماداً إلى أن يصب في القاطول الكسروي أسفل المأمونية[٣].

كان في المطيرة دير نصارى، وفيها بيعة «محدثة بنيت في خلافة المأمون ونسبت إلى مطر بن فزارة الشيباني وكان يرى رأي الخوارج»[٤].

وبالقرب من المطيرة قنطرة وصيف وعندها دير ماري «وكان عامراً بالكثير من الرهبان، ولأهل الهوى به كلام[٥]. وبالمطيرة دير مار جرجس، ودير ابن عبدون بن صاعد أخي صاعد بن مخلد»[٦].

نزل المعتصم المطيرة في آخر تنقلاته قبل استقراره على البناء في موقع

---

(١) الطبري ٣/ ١٤٣٨.
(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٨٢٥.
(٣) عجائب الأقاليم السبعة ١٢٨.
(٤) معجم البلدان ٢/ ٥٦٨ (عن البلاذري).
(٥) المصدر نفسه ٢/ ٦٩٣ (يذكر أن أبا الفرج والخالدي ذكراه).
(٦) المصدر نفسه ٢٥٩.

سامرَّاء، ويذكر اليعقوبي أن المعتصم انتقل من باحمشا إلى المطيرة فأقام بها مدة، ثم مدّ إلى القاطول فقال هذا أصلح المواضع، فصيَّر النهر المعروف بالقاطول وسط المدينة ويكون البناء على دجلة وعلى القاطول، فابتدأ بالبناء، وأقطع القواد والكُتَّاب والناس، فبنوا حتى ارتفع البناء، واختطت الأسواق على القاطول وعلى دجلة.

وسكن هو في بعض ما بُنِيَ له، وسكن بعض الناس أيضاً ثم قال إن أرض القاطول غير طائلة، وإنما هي حصى وأفهار، والبناء بها صعب جداً وليس لأرضها سعة[1]. ويتبين من هذا النص أن المعتصم شيد مدينة عند القاطول، ولعل هذه المدينة لم تكن بعيدة عن المطيرة، واختلطت بها عند توسع المطيرة، فأغفلت المصادر ذكرها، ولم يحدد اليعقوبي أي قاطول نزل المعتصم: الكسروي القديم أم أبا الجند الذي احتفره هارون الرشيد.

وأبرز ما في المطيرة قصر الأفشين وكان عند إنشاء سامرَّاء آخر البناء مشرقاً على قدر فرسخين، وقد تردد ذكر هذا القصر، ولم تذكر المصادر هل كان هذا القصر من بناء المعتصم قبل نزول سامرَّاء أم أن الأفشين بناه بعد بناء سامرَّاء، ويذكر اليعقوبي أن الأفشين أقطع أصحابه الأشروسنية وغيرهم من المضمومين إليه حول داره وأمره أن يبني فيما هناك سويقة فيها حوانيت للتجار فيما لا بدّ منه ومساجد وحمّامات[2].

ولما قتل الأفشين أقطع المعتصم «وصيفاً دار الأفشين التي بالمطيرة، وانتقل وصيف عن داره القديمة إلى دار الأفشين، ولم يزل ينزلها، وكان أصحابه ورجاله حوله[3]».

من المعالم البارزة في أطراف المطيرة خشبة بابك الذي وصلته أبنية سامرَّاء[4] فكأنه كان في حدود إعمارها، وهو جبل في آخر الأسواق، وبقربه

(١) البلدان ٢٥٦.
(٢) م.ن ٢٥٩.
(٣) م.ن ٢٦٤.
(٤) م.ن ٢٦٠.

قطيعة الحسن بن سهل[١] وكانت سُمِّيَتْ بذلك لأن بابك صلب بدنه بسامرَّاء فموضع خشبته مشهور[٢] وكانت هذه المنطقة على بعد فرسخين من العمران، ولم يكن في ذلك الموضع شيء من العمارة، ثم أحدث العمارة حتى صارت قطيعة الحسن بن سهل وسط سرّ من رأى، وامتد بها الناس من كل ناحية، واتصل البنيان بالمطيرة[٣].

وبالقرب من المطيرة وادي إسحاق بن إبراهيم، سُمِّيَ بذلك لأن إسحاق بن إبراهيم انتقل من قطيعته أيام المتوكل، فبنى على رأس الوادي، واتسع البناء[٤].

أنزل المتوكل ابنه المؤيد في المطيرة؛ وأنزل سنة ٢٦٥ ابنه المعتز خلف المطيرة مشرقاً بموضع يقال له بلكوارا، فاتصل البناء من بلكوارا إلى الموضع المدون بالدور أربعة فراسخ[٥].

يمتد وادي إسحاق بن إبراهيم بين المطيرة وشارع السريجة، وهو الشارع الأعظم الذي تقع على جانبيه القطائع ممتدة في دروب تنفذ إلى دجلة من جهة وإلى شارع أبي أحمد من جهه أخرى، وهو يمتد إلى قصر الواثق ودار العامة والخزائن، وفيه ديوان الخراج الأعظم وقطائع المغاربة وبعض العباسيين وقطائع قواد خراسانيين وفيه أيضا الرطابون، وسوق الرقيق، ومجلس الشرطة، والجامع القديم الذي بناه المعتصم ثم هدمه المتوكل. وهو يمتد إلى خشبة بابك[٦].

وتجدر الإشارة إلى أن هذا الشارع الأعظم هو الذي ذَكَر اليعقوبي أن المتوكل عندما بنى الجعفرية في الماحوزة «مدّ الشارع الأعظم من دار أشناس

---

(١) البلدان ٢٥٩.
(٢) الطبري ٣/ ١٢٤١.
(٣) البلدان ٢٥٩.
(٤) المصدر نفسه ٢٦٠، وفي طرف وادي إسحاق بن إبراهيم يقع مسجد لجين أم المتوكل، الطبري ٣/ ١٨٠٦.
(٥) البلدان ٢٦٥.
(٦) المصدر نفسه ٢٦١.

التي بالكرخ، وهي التي صارت للفتح بن خاقان، ثلاثة فراسخ إلى المطيرة، وجعل عرض الشارع الأعظم مائتي ذراع، وقدّر أن يحفر في جانبي الشارع نهرين يجري فيهما الماء من النهر الكبير الذي يحفره»[1].

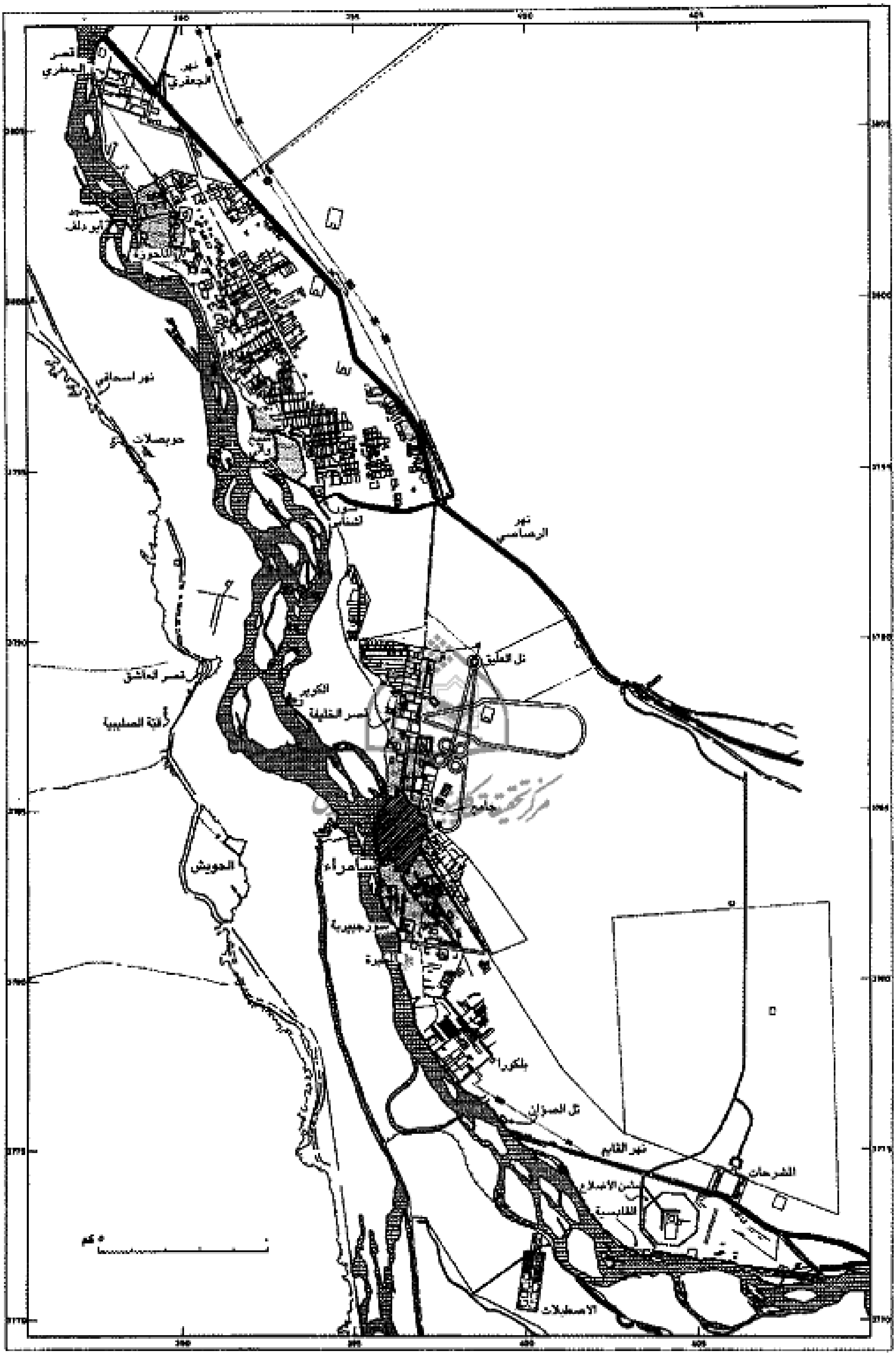
ويمتد من المطيرة عند قطائع الأفشين شارع برغامش الذي على ظهر القبلة منه قطائع الأتراك وعلى المشرق قطائع المغاربة[2].

يتصل بوادي إسحاق بن إبراهيم وادٍ هو أصل شارع الحير الأول الذي فيه دار أحمد بن الخطيب[3]. وهذا الوادي يمتد إلى وادي إبراهيم بن رباح[4]. وهو الوادي الغربي الذي ينتهي به شارع أبي أحمد الذي أوله من المشرق دار بختيشوع الطبيب[5] وهو موازٍ لشارع السريجة وفي جنوبيه، وفي هذا الشارع قطيعة إبراهيم بن رباح وقطائع عدد من كبار رجال الإدارة، وفي وسطه قطيعة أبي أحمد، وتمتد عليه القطائع إلى باب البستان وقصور الخليفة، ويمتد شارع الأسكر وهو شارع صالح العباسي، من المطيرة إلى دار صالح التي على رأس الوادي[6]. ويدل السياق على أن هذا الوادي هو وادي إبراهيم بن رباح.

ولما بنى المتوكل جامعه الجديد، وضع عنده شارعاً يأخذ من وادي إبراهيم ابن رباح وتخرج منه طرق في ثلاثة صفوف واسعة، عرض كل صف مائة ذراع بالسوداء، وبين الصفوف دروب وسكك فيها قطائع جامعة من عامة الناس[7].

ويتبين من هذا العرض أن ثلاثة من الشوارع الخمسة الرئيسية التي ذكرها اليعقوبي في سامرّاء كانت تنتهي عند المطيرة.

(1) البلدان ٢٦٦.
(2) م.ن ٢٦١.
(3) م.ن ٢٦٢.
(4) م.ن ٢٦١.
(5) م.ن ٢٦٢.
(6) م.ن ٢٦٢.
(7) م.ن ٢٦٥.



خارطة منطقة سامرّاء

القادسية:

في جنوب المطيرة تقع القادسية، يفصل بينها القاطول الذي يأخذ من دجلة من مكان بينهما وصف الشابشتي القادسية فقال إنها من أحسن المواضع لأهل الشراب، ومناخاً وللمطربين، جامعة لما يطلب أهل البطالة والخسارة والمواضع بينها وبين سامرّاء كلها متنزهات وبساتين[1].

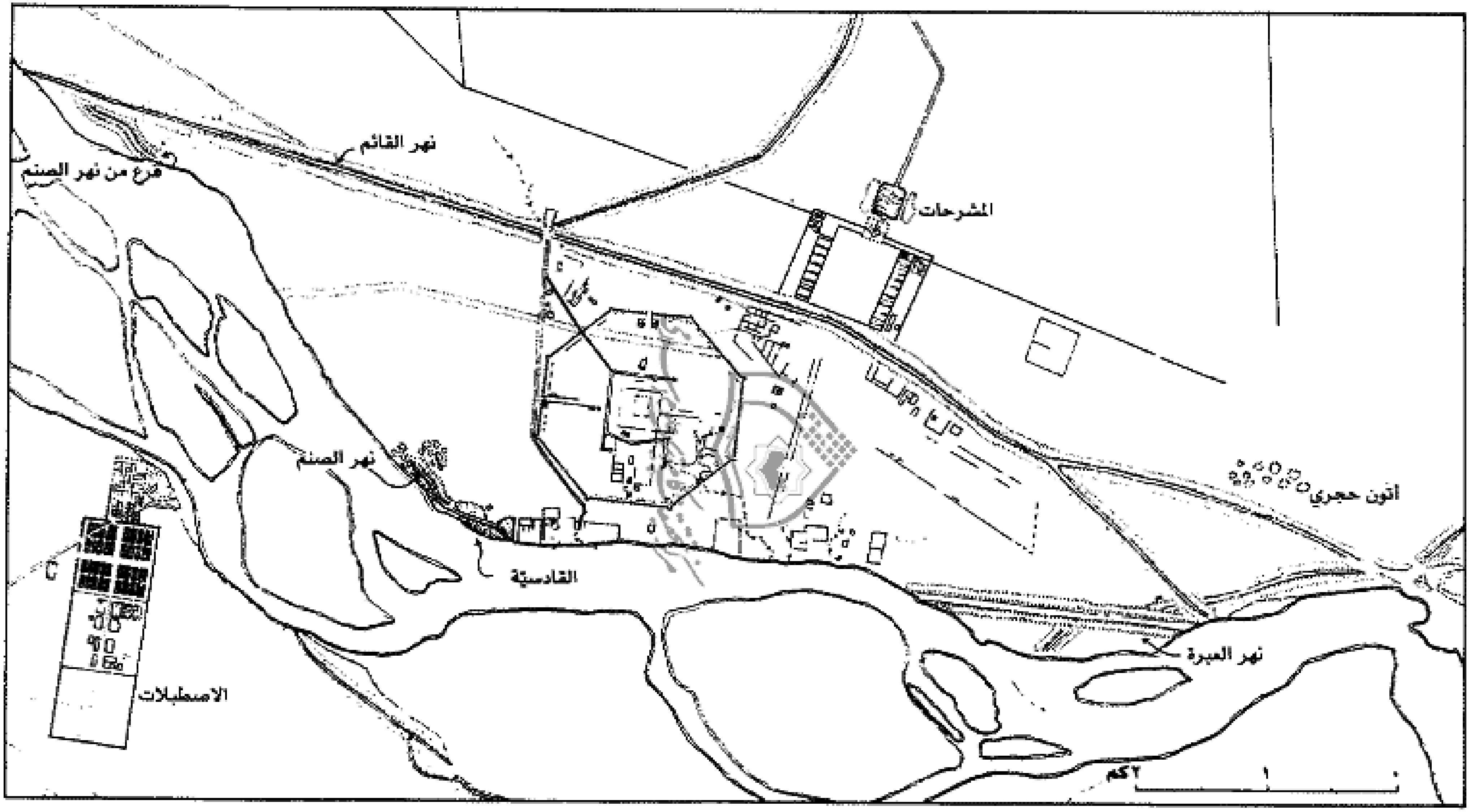
وذكر ابن الداية كنيسة القادسية[2]، وذكر البيروني عيد دير القادسية في الجمعة الثالثة من تشرين الثاني[3]، ولا بدّ أنها قادسية سامرّاء. وفي القادسية يقع دير السويس على شاطئ دجلة بقادسية سرّ من رأى، وبين القادسية وسرّ من رأى أربعة فراسخ، والمطيرة بينهما، وهذه النواحي كلها متنزهات وكروم، والقادسية من أحسن المواضع وأنزهها[4].

ونقل ياقوت عن البلاذري أن دير السوس «هو دير بناه رجل من أهل السوس وسكنه هو ورهبانه معه فسمّي به وهو بنواحي سامرّاء في الجانب الغربي[5]». وذكر الشابشتي أن دير مارماري بسرّ من رأى عند قنطرة وصيف، وهو دير عامر كثير الرهبان حوله كروم وشجر، وهو من المواضع النزهة والبقاع الطيبة الحسنة[6]، وقنطرة وصيف على نهر اليهودي الذي يأخذ من القاطول من فوهته.

وأشهر ما في القادسية قصر بلكوارا وفيه يقول الشابشتي «وبالقادسية بنى المتوكل قصره المعروف بركوارا، ولما فرغ من بنائه وهبه إلى ابنه المعتز وجعل اعذاره فيه، وكان من أحسن أبنية المتوكل وأجلّها، وبلغت النفقة عليه عشرين

---

(١) الديارات للشابشتي ١٥٠.
(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢٣٧.
(٣) الآثار الباقية للبيروني ١٠٥.
(٤) معجم البلدان ٣/٤٦٧، الشابشتي ١٥٠.
(٥) معجم البلدان ٣/١٣٣.
(٦) الشابشتي ١٤٩.



خارطة منطقة القادسية ونهر القائم

ألف ألف درهم[١] وذكر الرشيدي بعد وصفه المفصّل للاحتفال بتدشين قصر بلكوارا، أن قصر القادسية سرّ من رأى بينه وبين سرّ من رأى أربعة فراسخ[٢]، وذكر كذلك أن طول إيوان بلكوارا مائة ذراع، وعرضه خمسون، وفرش ببساط إبريسم من مخلفات هشام بن عبد الملك قوّم بعشرة آلاف درهم، وكانت حفلة فخمة في افتتاحه، وكان في صحن الدار في الإيوان أربعة آلاف مرفع ذهب مرصعة بالجوهر[٣].

ذكر اليعقوبي أن المتوكل أنزل ابنه أبا القاسم المؤيد بالمطيرة، وأنزل ابنه المعتز خلف المطيرة مشرقاً بموضع يقال له بلكوارا فاتصل البناء من بلكوارا إلى آخر الموضع المعروف بالدور مقدار أربعة فراسخ[٤]، وقال في مكان آخر اتصل البناء من الجعفرية إلى الموضع المعروف بالدور ثم الكرخ وسرّ من رأى ماداً إلى الموضع الذي كان ينزله ابنه أبو عبد الله المعتز، ليس بين ذلك شيء فضاء ولا خراب ولا موضع لا عمارة فيه فكان ذلك سبعة فراسخ[٥].

وفي القادسية توفي المستعين[٦] ويقول الخطيب إن المهتدي ولد بالقاطول، وذكر ياقوت أن القادسية قرية كبيرة من نواحي دجيل بين حربي وسامرّاء يعمل فيها الزجاج[٧]، وكلامه يوحي أنها في الجانب الشرقي، ولعله أخطأ التعبير. وقد وصفت مديرية الآثار العامة في نشرة لأطلال القادسية سوراً عظيماً يحيط ساحة مثمّنة كل ضلع من أضلاعها نحو ستمائة وأربعين متراً، وذكرت أنها من اللّبن، وفيها مائة وأربعون برجاً.

(١) الشابشتي ١٥٠.
(٢) الذخائر والتحف ١٣٢.
(٣) الشابشتي ١٥٠-١٥٦.
(٤) البلدان ٢٥٩.
(٥) المصدر نفسه ٢٦٣.
(٦) الذخائر والتحف ١٣٢.
(٧) معجم البلدان ١٣٦.

الماء في منطقة سامرَّاء

إن الرقعة التي استقر المعتصم على تشييد مدينته عليها في الجانب الشرقي من دجلة كانت صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة فيها ولا أنيس، فهي أرض جرداء لم يكن فيها قبل بناء سامرَّاء غير دير صغير؛ ولم تكن فيها أنهار تزودها بالماء فكان شربهم جميعاً من دجلة مما يحمل في الرَّوايا على البغال والإبل؛ لأن آبارهم بعيدة الرِشاء، مالحة غير سائغة، فليس فيها اتساع في الماء، ولكن دجلة قريبة والروايا كثيرة[1]، وهي تفضل ماء دجلة العذب وتزوِّد البلد بماء الشرب، وربما للغسيل وسَقْيِ البساتين والأغراض الأخرى.

ولا بدّ أن المعتصم كان يدرك أهمية توفير الماء لمدينته الجديدة، ويعرف ملاحظة الوافد الرومي للخليفة المنصور على عيب مدينته المدوّرة بخلوّها من مصادر الماء[2]. وكان هو قد توقف عن تشييد بلدته في المطيرة لعدم توافر الماء اللازم فيها للشرب وإرواء البساتين التي كان يحرص على الإكثار منها. ومما يظهر اهتمامه بالماء كثرة استخدامه المهندسين، وهم المعنيون بتدبير الماء، عند أول تأسيسه سامرَّاء؛ وذكر اليعقوبي أن المعتصم عندما قرر تشييد مدينته «أحضر المهندسين فقال اختاروا أصلح هذه المواضع فاختاروا عدة مواضع للقصور» وأنه «أقدم من كل بلد من يعمل من الأعمال أو يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل والغروس وهندسة الماء ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعه من الأرض»[3]. ثم إن المعتصم عنى بالحمّامات في عدد من المواضع التي أوطنها جماعته، ومع أن المصادر لم تذكر في داخل سامرَّاء حمّاماً، أو حفر أنهار مما كشف عن عدد غير قليل منها، فالراجح أنها أمدت سامرَّاء ببعض، وليس كل، ماتحتاجه من الماء.

وكان المتوكل أول خليفة أولى اهتماماً بتزويد سامرَّاء بماء الأنهار، فيذكر

---

(١) البلدان لليعقوبي ٢٦٣؛ وانظر: المسالك للإصطخري ٨٥.

(٢) الطبري ٣/٣٢٣؛ تاريخ بغداد للخطيب ١/ ٨٠؛ معجم البلدان ٤/ ١٥٤.

(٣) البلدان لليعقوبي ٢٥٨.

ياقوت أن المتوكل «اشتق من دجلة قناتين شتوية وصيفية، تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامرّاء، واشتق نهراً آخر قدره للدخول إلى الحير، فمات قبل أن يتم، وحاول المنتصر تتميمه، فلقصر أيامه لم يتم، ثم اختلف الأمر بعد فبطل، وكان المتوكل أنفق عليه سبعمائة ألف دينار»[1] ومن الواضح أن هذا غير النهر الذي عمل على حفره عند المتوكلية، وقول ياقوت إن إحدى القناتين صيفية والأخرى شتوية قد يدل على أنهما كانتا تأخذان ماءهما من دجلة بإحدى الوسائل الصناعية كالنواعير والكرود، إذ بهما وحدهما يمكن التحكم في أجزاء الماء في موسم معيّن. وأن قوله «تدخلان الجامع وتتخللان شوارع سامرّاء» قد يدل على أنهما كانتا تدخلان الجامع قبل السوق، أما النهر الثاني الذي لم يتم فيقتضي أنه كان قريباً من هاتين القناتين لأن الحير قريب من الجامع.

ذكر ابن الفقيه أن «ما يأخذ منها ويسقي الجانب الشرقي القناتان الشتوية والصيفية، وهما اللتان عملهما المتوكل بسرّ من رأى، كانتا تدخلان المسجد الجامع وتتخللان شوارع سامرّاء... ثم النهر الذي قدره أيضاً وعمل على أن يدخل الحير فلم يتم. وقد كان انفق عليه سبعمائة ألف دينار، وكان السبب في أنه لم يتم أن المتوكل قتل قبل الفراغ منه، وقد حاول المنتصر أن يتممه، فلقصر أيامه لم يستمر ذلك»[2] ولعل هذا مصدر قول القزويني عن المتوكل «اشتق من دجلة قناتين شتوية وصيفية تدخلان الجامع وتتخللان شوارع المدينة»[3].

ومن مظاهر اهتمام المتوكل بتوفير الماء للأهالي ما قام به عند تشييد المدينة. فذكر اليعقوبي أن المتوكل عزم على أن يبتني مدينة ينتقل إليها وتنسب إليه ويكون له بها الذكر، فأمر محمد بن موسى المنجم ومن يحضر بابه من المهندسين أن يختاروا موضعاً، فوقع اختيارهم على موضع يقال له الماحوزة،

---

(١) آثار البلاد للقزويني ٣٨٦.
(٢) البلدان لابن الفقيه ١٤٢.
(٣) البلدان لليعقوبي ٢٦٦، الروض المعطار ١٧٧.

وقيل له إن المعتصم كاد أن يبني ههنا مدينة ويعيد حفر نهر قديم، فاعتزم على ذلك وابتدأ النظر فيه في سنة ٢٤٥ ووجه من حفر ذلك النهر لسَقْيِ المدينة فقدّر النفقة على النهر بألف وخمسمائة ألف دينار، فطاب نفساً بذلك، ورضي به وابتدأ الحفر وأنفقت الأموال على ذلك النهر[١]، ولا بدّ أن حفر هذا النهر لم يقتصر على تزويد الجعفرية بالماء فحسب، بل امتد إلى تزويد جامع سامرّاء وشوارعها بالماء أيضاً.

ذكر الطبري أن المتوكل أمر في سنة ٢٤٥ ببناء الماحوزة التي سماها الجعفري وأمر بحفر نهر يأخذ خمسة فراسخ فوق الماحوزة، من موضع يقال له كرمى يكون ثرياً لما حولها من فوهة النهر إليها، وأمر بأخذ جبلتا والخصاصة العليا والسفلى وكرمى، وحمل أهلها على بيع منازلهم وأرضهم، فأجبروا على ذلك حتى تكون الأرض والمنازل في تلك القرى كلها له ويخرجهم عنها.

وقدّر للنهر من النفقة خمسمائة ألف دينار، وصيّر النفقة عليه إلى دليل بن يعقوب النصراني في ذي الحجة سنة ٢٤٥، وألقى في حفر النهر اثني عشر رجلاً يعملون فيه، فلم يزل دليل يعمل فيه ويحمل المال بعد المال ويقسم عامته في الكتاب حتى قتل المتوكل، فبطل النهر، وأخربت الجعفرية ونقضت، ولم يتم أمر النهر[٢].

إن عمل دليل إداري محض هو الإشراف على النفقات، وإنه «قسم عامته في الكتاب» ولم يشر إلى عمل المهندسين في التخطيط والإشراف على العمل، ولا إلى فشل الشروع، وإنما يذكر أنه توقف بعد مقتل المتوكل، إذ إن الطبري ذكر في نصه تفاصيل عن القسم الأعلى من النهر، وأحكامه في تملك ما عليه من مزارع، مما يظهر أنه قصد من المشروع إعمار المنطقة وإنماءها ليفيد منها أصحابه، ولتزويد مدينته بحاجاتها من المنتوجات الزراعية. ولم يذكر منتهى ذلك النهر أو إرواءه المتوكلية، ثم قال «إلا أن النهر لم يتم أمره ولم يجرِ الماء

(١) البلدان ٢٦٧، التنبيه والإشراف ٢٦٧.
(٢) الطبري ١٤٣٨/٣.

فيه إلا جرياً ضعيفاً، لم يكن له اتصال ولا استقامة، أي إنه قد أنفق عليه بسببها ألف دينار، ولكن حفره كان صعباً جداً، إنما كانوا يحفرون حصىً ولا يعمل فيها المعاول».

وذكر النويري أن المتوكل تقدم إلى محمد وأحمد ابني موسى بن شاكر «في حفر النهر المعروف بالجعفري، فأسندوا أمره إلى أحمد بن كثير الفرغاني، فغلط في فوهة النهر المعروف بالجعفري، وجعلها أخفض من سائره، لا يغمر سائر النهر[1]».

فصار ما يغمر فوهة الأعلى الكسروي الذي يذكر سهراب «أوله دور للحارث بشيء يسير مماس لقصر المتوكل المعروف بالجعفري وعليه هناك قنطرة من أحجاره ثم يمر إلى الإيتاخية[2]».

وهذا النهر غير الثلاثة قواطيل التي «أولها كلها موضع واحد أسفل مدينة سرّ من رأى بفرسخين بين المطيرة وبركوارا، ويسمى الأعلى منها اليهودي وعليه قنطرة ضيقة، يمر إلى أن يصبّ في القاطول الكسروي والمأمونية[3]».

وكان في المنطقة شرقي سامرّاء والمتوكلية نهر يأخذ من الزاب عند السابروج والسودقانية تنزرع منه أنهار منها السيب وتفرعاته، إلى أن يصبّ في القاطول عند المأمونية[4]».

---

(١) نهاية الأرب ١٦٥/٩؛ وانظر: عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ٢٨٦.
(٢) سهراب ١٢٧.
(٣) المصدر نفسه ١٢٨.
(٤) الوزراء لحفيد صاحب النعمان ١٥٩-١٦٠.

الفصل السادس
التخطيط والتشييد

ذكر الأزدي أن المعتصم ابتاع الدير والأرض التي شيدت عليها سامرَّاء سنة ٢١٩[١]. ويقول ابن الفقيه إن المعتصم بناها ونزلها سنة ٢٢١[٢]. أما اليعقوبي فذكر أن المعتصم خرج للبحث عن موقع مدينته في ذي القعدة سنة ٢٢٢[٣].

وهذا الاختلاف بين الروايات في تحديد موعد بنائها واكتماله غير كبير، وهو يظهر أن «بناءها تم بأسرع مدة[٤]»، وترجع هذه السرعة في الإنجاز إلى أن المعتصم جدّ في البناء».

وذكر الأزدي أن المعتصم عندما خرج إلى سامرَّاء وقرر بناءها ضربت له المضارب والقباب، وضرب الناس الخيام والأخبية وعلَّوْا في البناء[٥].

ذكر المسعودي «كان المعتصم يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة، فأولها عمران الأرض التي يجبى بها. وعليها يزكو الخراج وتكثر الأموال وتعيش البهائم وترخص الأسعار ويكثر الكسب ويتسع المعاش»[٦]. إن هذا

---

(١) تاريخ الموصل ٤٣٦.
(٢) البلدان ١٤٢.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) التنبيه والإشراف ٣٠٩، اليعقوبي ٣/ ١٤٨.
(٥) تاريخ الموصل ٤٢٨.
(٦) مروج الذهب ٣/ ٤٦١.

الكلام عام عن أعمار البلاد. وهو يعبّر عن مُثُل عليا تذكر الأخبار أنه طبقها في حفر الأنهار والقيام بأعمال بارزة في ميادين الزراعة والإنتاج. ويظهر اهتمام المعتصم بالعمران في أعماله في بناء سامرّاء. وذكر الطبري «لم يكن للمعتصم لذة في تزيين القصور وكانت غايته فيه الأحكام[1]».

المهندسون:

ذكر اليعقوبي الذي قدّم أوسع المعلومات عن بناء سامرّاء أن المعتصم هو الذي اختار موقع المدينة، كما ذكر أنه بعد أن استقر على اختيار الموقع واشترى الأرض «أحضر المهندسين فقال اختاروا أصلح هذه المواضع، فاختاروا عدة مواضع للقصر[2]».

لم تذكر المصادر عدد وأسماء المهندسين الذين يدل ظاهر النص أنهم كانوا يرافقونه، ولعلهم أسهموا قبل ذلك في الإشراف على تشييد الأبنية في المراكز التي اختارها قبل استقراره على التشييد في سامرّاء. إنهم كانوا في الأصل من أهل بغداد وراعوا أحوال بغداد العمرانية وتأثروا بها، وتحاشوا بعض ما كان في تخطيطها من أخطاء.

وفي المشرفين على العمل ذكر اليعقوبي فقال: «صير إلى كل رجل من أصحابه بناء قصر: فصيّر إلى خاقان عُرطوج أبي الفتح، بناء الجوسق الخاقاني، وإلى عمر بن فرج بناء القصر المعروف بالعمري، وإلى أبي الوزير بناء القصر المعروف بالوزيري[3]». وهذا النص يظهر أن عمل المهندسين اقتصر على اختيار مواضع القصور، أي إنه عمل تخطيطي وليس اختيارياً، وأن هذه القصور صمّمت على أن تكون متفرقة في عدة مواضع. ولم ترد إشارة إلى القواعد التي راعوها في الاختيار، ولا نعلم على التقريب مواضع أكثر هذه

(١) الطبري ٣/ ١٣٢٦.
(٢) البلدان ٢٥٨.
(٣) المصدر نفسه ٢٥٨.

القصور، والراجح أنهم راعوا بالدرجة الأولى مواقعها في التخطيط العام للمدينة.

لم تذكر المصادر أسماء واضعي التخطيط العام للمدينة، إنما ذكر اليعقوبي أن المعتصم هو الذي وزع القطائع على أصحابها، وهذا عمل إداري، ولابدّ أنه تم بعد وضع التخطيط العام الذي من المحتمل أن المهندسين وضعوا أسسه ثم أقرّه المعتصم.

التخطيط:

كان التخطيط العام لسامرّاء يختلف عن بغداد، ولعل من أبرز العوامل المؤثرة في ذلك أنه لم تكن فيها تضاريس ومعالم تحدد ذلك التخطيط أو تتحكم فيه ما عدا دجلة في غربيها ومجراه العميق وجرفه العالي الذي أعان على عدم تعرّض سامرّاء للغرق الذي كان يهدد بغداد.

وأرض سامرّاء متموجة، وفيها وديان ذكر اليعقوبي منها وادي إسحاق بن إبراهيم «لأن إسحاق انتقل من قطيعته في أيام المتوكل فبنى على رأس الوادي وكان الشارع الأعظم وهو السريجة ممتداً من المطيرة إلى هذا الوادي، ووادي إبراهيم بن رباح الذي ينتهي به الشارع الغربي شارع أبي أحمد. كما ذُكر وادٍ يتصل بوادي إبراهيم بن رباح فينتهي عنده الشارع الرابع وهو شارع برغامش وأول هذا الشارع من المطيرة إلى هذا الوادي، وهذه الوديان قرب المطيرة، أي إن هذه الشوارع المتصلة بالوديان تقع بعيدة عن دجلة وتمتد بينها وبين المطيرة.

كانت الشوارع المحاور الأساسية في تنظيم تخطيط المدينة ولابدّ أنها كانت واسعة لتكفي سير السابلة والخيل. ومن المحتمل أنها كانت متشابهة في العرض والراجح أنها كانت متوازية، ولا يوجد ما يشير إلى أنها كانت متقاطعة، وإنما تتعامد عليها دروب لابدّ أن كلاً منها أقصر وأضيق من الشارع العام وبعضها

ينفذ من شارع إلى آخر، ومن المحتمل أنها أو بعضها كانت مستقيمة فهي بذلك بها شبه من تنظيم المدن الإغريقية التي تشبه الشطرنج[1].

نص الطبري على أن المعتصم لم يكن يميل إلى الزخرفة، مما يدل على أن هذه الشوارع كانت بسيطة في مظهرها ليس فيها طاقات أو أقواس تزينها أو أبواب تحصرها ولم تكن مسرحاً لحوادث. وكان المحور الأساس في سامرّاء قصور الخليفة وكبار رجال الدولة من العسكريين خاصة وبصرف النظر عمن كان يعيش في داخل القصر، فإن كل قصر كانت حوله مساكن الجند والمرتبطين بالقائد.

طراز التخطيط :

كانت رقعة أرض سامرّاء محصورة في الغرب بدجلة الذي يجري في وادٍ منخفض يحمي المدينة من أخطار الفيضان التي لم يذكر التاريخ تعرّضها للأخطار، وكانت مفتوحة في جهاتها الأخرى وليس فيها عوارض مائية أو طبيعية عدا واديين ذكرناهما وكانت تنتهي إلى أحدهما الشوارع.

لم يبنِ أي من الخلفاء سوراً حول سامرّاء، ويرجع ذلك إلى أن الخلفاء فيها لم يقدِّروا أخطار حصار يهددها، بل حتى قصور الخلفاء لم تكن محاطة بأسوار حصينة للدفاع بوجه قوات تحاصرها، ولعلهم كانوا يدركون ولاء القوات العسكرية لهم، إضافة إلى تنوع أصولهم، وانعدام رابطة تجمعهم سوى الولاء للإسلام والخليفة، وفيما عدا ذلك فقد احتفظوا بتكتلاتهم العسكرية القائمة على أصول عرقية وما يرتبط بها. ويذكر اليعقوبي أن المعتصم تعمّد عزل الأتراك، ولم يذكر هو أو أي مؤرخ آخر قيامه بمثل هذا العمل مع الكتل العسكرية الأخرى.

---

(١) انظر في ذلك «المدينة على مر العصور» للويس ممفورد.

المشرفون على البناء:

ذكر اليعقوبي المشرفين على بناء قصور المعتصم، وهم من كبار رجال الإدارة، وفيهم بعض رجال الجيش، وسميت أكثر هذه القصور باسم المشرفين على بنائها، ولابدّ أن هذا الإشراف شمل تنظيم الإنفاق على البناء ومتابعة سَيْرِه، أما التخطيط فقد أعده مهندسون لم يرد ذكر لأسمائهم.

جامع المعتصم:

وضع المعتصم في تخطيطه الأول لسامُرًا جامعاً واحداً، قال عنه البلاذري إن المعتصم (خط المسجد الجامع، واختط الأسواق حول الجامع)[1] أي إن الجامع كان المحور الأساسي الثابت في التخطيط، ولم يجعله ملاصقاً لقصره كما فَعَل المنصور في تخطيط المدينة المدوّرة والرصافة، وإنما جعله قرب الأسواق فيكون محور تجمع أصحاب الحِرَف وأهل السوق.

حدد اليعقوبي موقع الجامع الذي شيده المعتصم، فذكر أنه في شارع السريجة وهو الشارع الأعظم الذي يمتد إلى وادي إسحاق بن إبراهيم وإلى المطيرة. وذكر أن في هذا الشارع الأعظم قطائع الناس يمنة ويسرة، وفي دروب من جانبي الشارع الأعظم تنفذ إلى شارع أبي أحمد وتنفذ إلى دجلة. وتمر القطائع إلى ديوان الخراج الأعظم، وفي هذا الشارع قطائع قواد خراسان، ثم مواضع الرطابين وسوق الرقيق، ثم مجلس الشرط والحبس الكبير ومنازل الناس والأسواق في هذا الشارع، ثم الجامع الكبير الذي لم يزل يجمع فيه إلى أيام المتوكل، فضاق على الناس فهدمه وبنى مسجداً جامعاً واسعاً في طرف الحير[2]. ويتضح من هذا إدراك المعتصم أهمية السوق والناس في الحياة العامة. فجعل الجامع، وهو الوحيد فيها.

---

(١) فتوح البلدان ٢٦٨.

(٢) البلدان ٢٦٧، معجم البلدان ٣/ ١٧.

جامع المتوكل:

ذكر اليعقوبي أن الجامع القديم الذي بناه المعتصم «لم يزل يجمع فيه إلى أيام المتوكل فضاق على الناس، فهدمه وبنى مسجداً جامعاً واسعاً في طرف الحير، المسجد الجامع والأسواق من أحد الجانبين، ومن الجانب الآخر القطائع والمنازل وأسواق أصحاب البياعات الدنيّة مثل أصحاب الفُقاع والهرائس والشراب»[١].

وذكر البلاذري أن المتوكل بنى مسجداً جامعاً كبيراً، وأعظم النفقة عليه، وأمر برفع منارته لتعلو به أصوات المؤذنين فيها، وحتى ينظر إليها من فراسخ، فجمع الناس فيها وتركوا المسجد الأول[٢].

وذكر ابن الجوزي أن في سنة ٢٣٢ ابتدىء ببناء الجامع بسامرَّاء، وأنه في سنة ٢٤٧، كمل بناء جامع سامرَّاء، وقد ابتدئ سنة ٣٧، وبلغت النفقة عليه ثلاثمائة ألف وثمانية آلاف ومائتين واثني عشر ديناراً، وإنما هذه النفقة على البنّائين والنجارين وما شاكل ذلك. وحملت القصة الحجارة التي في الصوان من باب الحرة في الهاروني على عجل ومرّ بها الفِيَلة التي كانت للمتوكل، وأنفق مع ذلك في حمولها إلى أن دخلت المسجد ألف وخمسمائة دينار، ولولا الفيلة لأنفق ضعف ذلك. واستعمل الطوابيق الزجاج التي في المقصورة وهي ألفان وأربعمائة طابق بألفين وأربعمائة دينار، وأنفق على الأطواق الستة التي جعلت ريحان لها ألفين وأربعمائة دينار[٣].

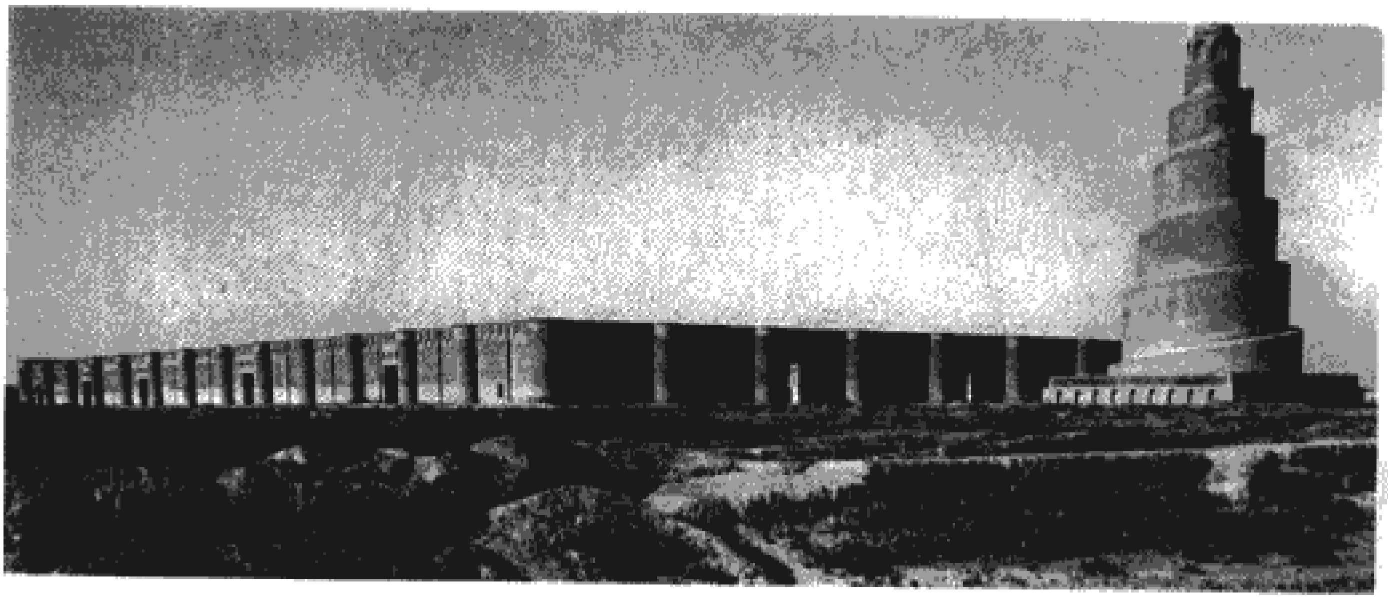
وأشار المقدسي إلى جامع سامرَّاء وذكر أنه جامع كبير يُخْتار على جامع

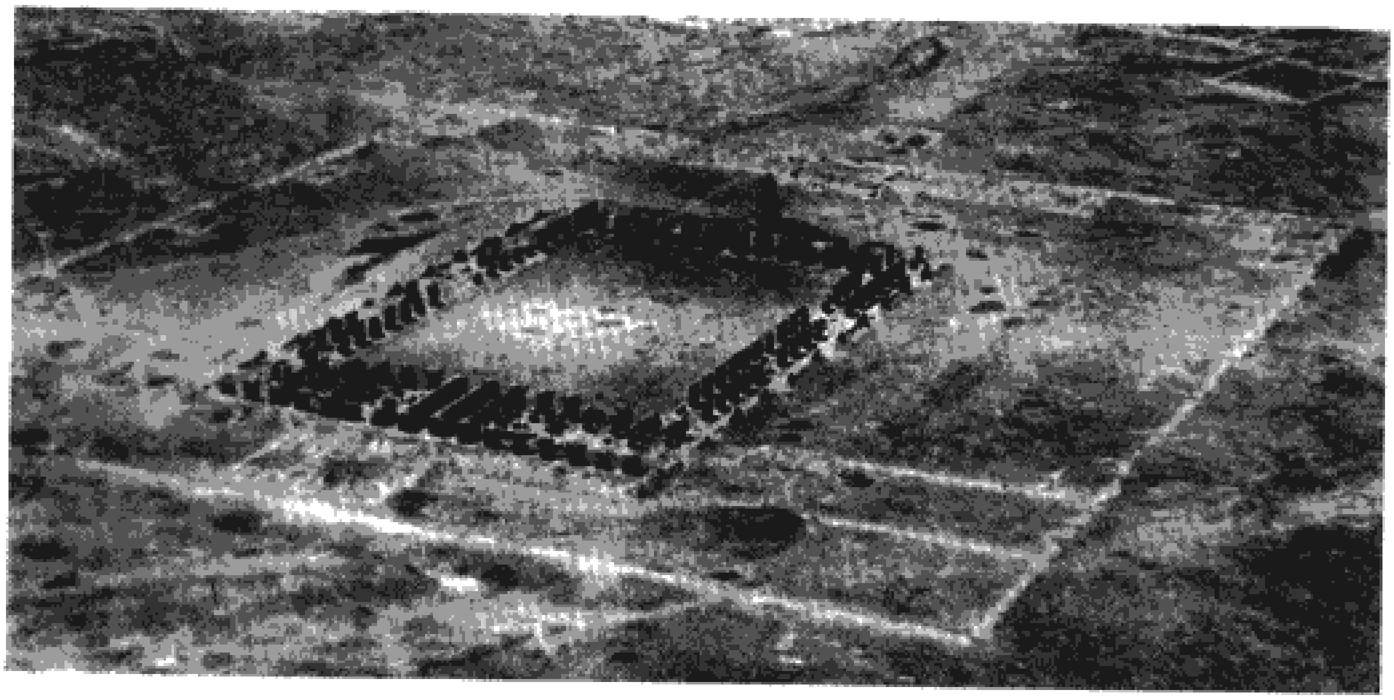
---

(١) البلدان ٢٦٠.

(٢) فتوح البلدان ٢٩٧، معجم البلدان ٣/ ١٧.

(٣) المنتظم لابن الجوزي، حوادث سنة ٢٣٢.





جامع أبو دلف

دمشق قد لبست حيطانه بالمينا، وجعلت فيه أساطين الرخام وفرش به، وله منارة طويلة وأمور متقنة[١]. وفي سنة ٤٠٧ وقع حريق في بعض الجامع بسامرّاء[٢].

مساجد محلية:

ذكر اليعقوبي مساجد محلية في المواضع التي أسكنها بعضَ الجند في أطراف سامرّاء. ومن هذه المواضع الكرخ التي أقطعها أشناس وأصحابه وضمّ إليه عدة من قواد الأتراك والرجال، وأمره أن يبني المساجد والأسواق، وذكر أنه في الكرخ والدور بنى لهم في خلال الدور والقطائع والمساجد والحمّامات، وأمر الأفشين أن يبني في المطيرة مساجد وحمّامات[٣]. وتدل صيغة الجمع على أنه بنى في كل من هذه المواضع عدة مساجد لم يذكر عددها، ولم تشر المصادر إلى أسمائها، ولعل مساجد محلية أخرى أنشئت في مواضع أخرى، غير أن صغرها وتحديد استعمالها من سكانها المحليين جعلها أقل أهمية، والراجح أنها لم تصلَّ فيها الجمعة.

الحير:

الحير من أبرز المعالم العمرانية في سامرّاء، وكان يطل عليه الجوسق[٤]، وقد أنشأه المعتصم وسمّاه، وذكر الجاحظ «الحيوانات التي تأنس في حير المعتصم بالله والواثق»[٥].

وذكر اليعقوبي أن المتوكل بنى مسجده الجامع في أول الحير في موضع واسع خارج المنازل لا يتصل به شي من القطائع والأسواق[٦]. ولابدّ أن شارع

---

(١) أحسن التقاسيم ١٢٢.

(٢) المنتظم لابن الجوزي ٧/ ٢٨٣.

(٣) البلدان ٢٥٦.

(٤) الطبري ٣ / ٢٠٤٠.

(٥) الحيوان ٤ / ٤٢٢.

(٦) البلدان ٢٦٥.

الحير الجديد الذي ذكره اليعقوبي وقال إن فيه أخلاطاً من الناس من قواد الفراغنة والأشروسنية والأشناخنجية وغيرهم من سائر كور خراسان، وإن هذا الشارع يقع خلف شارع الأسكر[1].

وذكر اليعقوبي أيضا أن المعتصم «أقطع وصيفاً مما يلي الحير، وبنى حائطاً سماه حائر الحير ممتدا»[2]. وقال أيضا: «وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمعت إلى إقطاعات لقوم هدم الحائط وبنى خلفه حائطاً غيره، وخلف الحائط الوحشي من الضباء والحمير الوحشي والإبل والأرانب والنعام وعليها حائط يدور في صحراء حسنة»[3]. وذكر أيضا أن المتوكل «زاد في شوارع الحير شارع الأسكر والشارع الجديد، وبنى المسجد في أول الحير في موضع واسع خارج المنازل، لا يتصل به شيء من القطائع والأسواق[4]».

تُظهر هذه النصوص أن الحير كان محاطاً بحائط لم يبقَ محله ثابتاً، وإنما كان بين الفينة والأخرى يُهْدم ليُبنى خلفه حائط غيره، وأن المنازل والإقطاعات كانت ملاصقة للحائط.

ذكر الطبري أن بابك لما جيء به إلى المطيرة «لم يصبر المعتصم حتى ركب إليه بين الحائطين فدخل إليه متنكراً»[5]. وذكر الطبري أن الأتراك في زمن المهتدي «لزموا الحير حتى خرجوا مما يلي الحائطين، ثم خرجوا، فأما مفلح وواجن ومن انضم إليهما فسلكوا شارع بغداد حتى بلغوا سوق الغنم، ثم عطفوا إلى شارع أبي أحمد، حتى لحقوا بجيش موسى. وأما موسى وجماعة القواد «فإنهم سلكوا على سَمْت شارع أبي أحمد، حتى صاروا إلى الوادي، وانصرفوا إلى الجوسق»[6].

---

(١) البلدان ٢٦٢.

(٢) المصدر نفسه ٢٥٨ ولعل في هذه المنطقة دار صالح بن وصيف الذي تلقاه ربع القبة (الطبري ١٨٠٩/٣ وانظر المصدر نفسه ١٨٠٧/٣).

(٣) البلدان ٢٦٢.

(٤) المصدر نفسه ٢٦٥.

(٥) الطبري ٣/ ١٢٢٠.

(٦) المصدر نفسه ١٨٠٧/٣.

إن «الحائطين» مَعْلَم عمراني واضح لعل المقصود بهما الحائط القديم الذي هُدِم بسبب تزايد المنازل قربه، والحائط الجديد الذي استقر بعد المتوكل، وفي أي حال فإن هذين الحائطين كانا من جهة المعمور من سامرّاء، وجنوبي المسجد وبينه وبين شارع أبي أحمد يقع شارع بغداد وسوق الغنم، وكل هذه المعالم في جهة الجوسق.

ورد في الأخبار ذكر «باب الحير» مفرداً مما يدلّ على أنه لم يكن للحير باب غيره، وذكر الطبري باب الحير الذي يلي قبلة المسجد الجامع. فلما صار إلى حدّ المنارة[1] أي إن باب الحير في الجنوب الغربي من الجامع. وذكر الطبري أيضاً «باب الحير الذي يلي القطائع من الجوسق»[2]، أي إن باب الحير يواجه القطائع والجوسق. ومما يؤيد الصلة المكانية بين الحير والجوسق قول الطبري إن إسحاق بن كنداج «نزل الجوسق المطل على الحير»[3].

وفي خارج باب الحير يقع باب ياجور[4]، «وكان موسى بن بغا حمل من كان على حرسه وراء المهتدي من الجوسق إلى باب ياجور»[5].

وفي الطبري نصان يدلان على أن باب الحير بين الجوسق والكرخ فذكر أن المهتدي وجّه موسى في زهاء خمسمائة فارس فوقفوا على باب الحير بين الجوسق والكرخ[6]، وذكر أن موسى خرج من باب الحير الذي يلي القطائع بين الجوسق والكرخ فعسكر هناك[7].

وبالقرب من باب الحير يقع القصر الأحمر، فيذكر الطبري أن موسى بن بغا «أخذ في الحير عِبْءَ أصحابه ميمنة وميسرة وقلب في السلاح حتى صار إلى باب الحير مما يلي الجوسق والقصر الأحمر»[8]. وفي إحدى الروايات أن

(١) الطبري ٣/ ١٨٠٧.
(٢) ن.م ٣/ ١٨١٠.
(٣) ن.م ٣/ ١٨٠٤.
(٤) ن.م ٣/ ٢٠٤٠.
(٥) ن.م ٣/ ١٧٨٩.
(٦) ن.م ٣/ ١٨٤٨.
(٧) ن.م ٣/ ١٨٠٢.
(٨) ن.م ٣/ ١٨٠٤.

الثائرين على المهتدي خرجوا من الدار مما يلي باب القناة، ودخل الموالي مما يلي باب القصر الأحمر[1].

وذكر الطبري قنطرة الرفيف قد نزل الناس بها وخرج المهتدي في هذا اليوم إلى الحير وعرض الحرس، وأمر أن تنصب الخيام والمضارب فتضرب في الحير[2].

الشوارع:

عندما اختط المعتصم سامرّاء وضع لها خمسة شوارع عريضة متوازية ذكر اليعقوبي أنها تمتد من الشمال إلى الجنوب وهي:

١. شارع السريجة: وهو الشارع الأعظم ممتداً من المطيرة إلى وادي إسحاق بن إبراهيم.

٢. شارع أبي أحمد بن الرشيد: وهو يتصل بخشبة بابك وبالجامع الذي شيده، وينتهي بوادي إبراهيم بن رباح.

٣. شارع الحير الأول: وهو يتصل بوادي إسحاق بن إبراهيم.

٤. شارع برغامش: أوله من المطيرة عند قطائع الأفشين ويمتد إلى الوادي الذي يتصل بوادي إبراهيم بن رباح.

٥. شارع صالح العباسي: وهو شارع الأسكر.

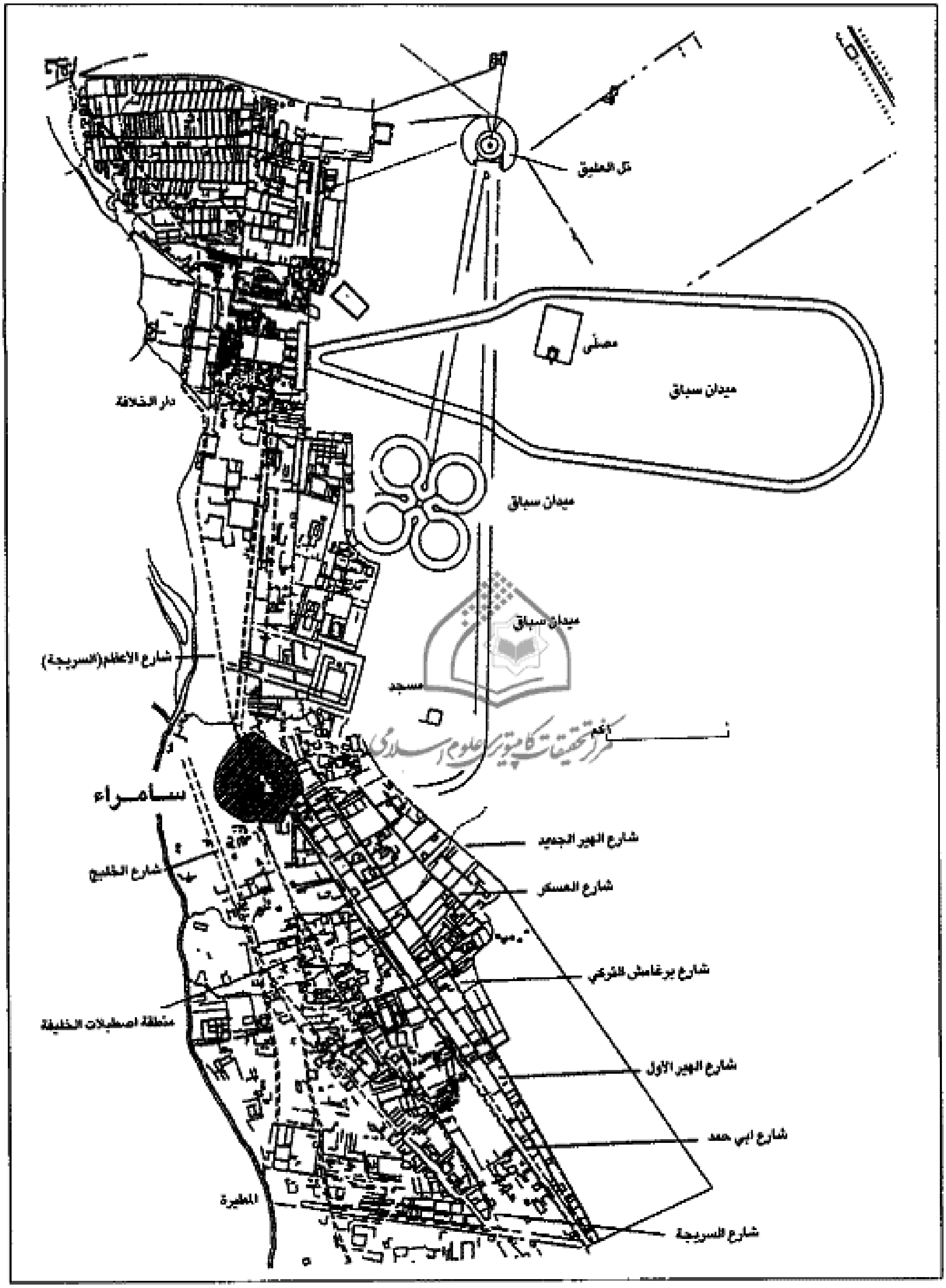
٦. شارع الحير الجديد: وهو خلف شارع الأسكر.

٧. شارع الخليج: وهو على دجلة وعنده الفرض والسفن والتجارات التي تأتي في دجلة من البلاد الشمالية والجنوبية.

---

(١) الطبري ٣/ ١٧٨٨.

(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٨٢٧.



المعالم العمرانية في سامرّاء وشوارعها

وعقد جسراً واحداً يربط بين الجانبين الشرقي الغربي،

وعلى هذه الشوارع القطائع، وبينها دروب لم تذكر أسماؤها.

إن اثنين من هذه الشوارع مُسَمَّيين برجلين من الأسرة العباسية هما أبو أحمد بن الرشيد، وصالح العباسي الذي لم أتحقق من هويته، وشارعاً واحداً باسم برغامش التركي، وشارعين سميا باسم موضعهما الخليج والحير، واثنين من هذه الشوارع سُمّيا باسم غريب (هما شارع السريجة، وشارع الأسكر) وذكر الآبي شارع السرى لم يذكره اليعقوبي، ولم يسمّ المعتصم شارعاً باسمه أو باسم أحد أولاده أو البارزين من رجال الإدارة. إن هذين الشارعين ضبطت رسمهما المخطوطات التي اطّلعت عليها، وليس لهما معنى لغوي، وفيما عدا ما ذكره الآبي، فإن المصادر لم تذكر أسماء شوارع قد تُصَوّب ما جاء في كتاب البلدان لليعقوبي وتبقى هذه التسميات الغريبة لهذين الشارعين مثار شك لأنها لا تنسجم مع أي تفسير منطقي. أما شارع السريجة فقد مرّ ذكره.

تطور العمران والشوارع زمن المتوكل

عُنِيَ المتوكل منذ توليه الخلافة بالإعمار وبناء القصور، وأعاد تنظيم إعمار سامرّاء «فاتصل البناء من بلكوارا إلى آخر الموضع المعروف بالدور مقدار أربعة فراسخ، وزاد في شوارع الحير وشارع الأسكر الشارع الجديد، وبنى المسجد الجامع من أول الحير في موضع واسع خارج المنازل لا يتصل به شيء من القطائع والأسواق» وجعل الطرق إليه من ثلاثة صفوف واسعة عظيمة من الشارع الذي يأخذ من وادي إبراهيم بن رباح ومن كل صف حوانيت فيها أصناف التجارات والبياعات وعرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء.

ومد الشارع الأعظم من دار أشناس التي بالكرخ، وهي التي صارت للفتح ابن خاقان مقدار ثلاثة فراسخ إلى قصوره.. وأقطع الناس يمنة الشارع ويسرته، وجعل عرض الشارع الأعظم مائتي ذراع، وقدر أن يحفر من جنبَي الشارع نهرين يجري فيهما الماء من النهر الكبير.. واتصل البناء من الجعفرية إلى

الموضع المعروف بالدور ثم الكرخ وسُرَّ مَن رأى مادًّا إلى الموضع الذي كان ينزله ابنه أبو عبد الله المعتز (بلكوارا)، ليس بين شيء من ذلك فضاء ولا فرج ولا موضع لاعمارة فيه، فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ.

إلا أن هذا الإعمار لم يدم إذ لمّا وَلِيَ المنتصر «انتقل إلى سُرَّ من رأى وأمر الناس جميعاً بالانتقال من الماحوزة، وأن يهدموا المنازل ويحملوا النقض إلى سر من رأى، فانتقل الناس وحملوا أنقاض المنازل إلى سرّ من رأى وخَرِبت قصور الجعفري ومنازله ومساكنه وأسواقه في أسرع مدة، وصار الموضع موحشاً لا أنيس به ولا ساكن، والديار بلاقع كأنها لم تعمّر ولم تسكن.

ويتبين من هذا أن التحول الذي أراده المتوكل لم يدم طويلاً، فعاد الناس بعد مقتله إلى سامرّاء، والراجح أنهم او أكثرهم، عادوا إلى منازلهم الأولى، وأعادوا إعمارها، ولا بدّ أن نشير إلى أن في هذا الكلام مبالغة يصعب قبولها بحرفيتها.

مواد البناء والعمال

إن أول مستلزمات بناء المدينة هو توافر المواد الأولية وتوافر الأيدي العاملة للقيام بالبناء. ولا ريب في أن أرض سامرّاء توفّر المادة لصنع اللَّبِن والجِص والطابوق، وهذه تؤمن البناء البسيط كالذي كانت عليه الكوفة والبصرة في السنوات الأولى من تشييدهما، وهي تُؤَمِّن بناء البيوت البسيطة لعامة الناس كما أنها أساسية لبناء حتى القصور. غير أن المعتصم استهدف إنشاء مدينة متقدمة في العمران لا تقلّ في مستواها عما كانت عليه بغداد في زمنه، أي بعد مرور أكثر من سبعين سنة على تأسيسها، وكان هذا يتطلب استيراد بعض المواد الضرورية لتحقيق هذا المستوى العمراني، وفي هذا يقول اليعقوبي إن المعتصم «كتب في حمل الساج وسائر الخشب والجذوع من البصرة وما ولاها وسائر السواد، ومن أنطاكية وسائر سواحل الشام وفي حمل عملية الرخام وفرش

الرخام، فأقيمت باللاذقية وغيرها دور صناعة الرخام[1]»، ولا بدّ أن هذا بعض وليس كل ما يحتاجه تشييد هذه المدينة من مواد وأن كثيراً منها تم استيراده من مناطق وجودها كالأخشاب اللينة في المناطق الجبلية شمال العراق، ومعادن الحديد والنحاس ومصنوعاتها. ولا بدّ أن استمرار نموّ سامرّاء جعل استيراد هذه المواد مستمراً ليتابع نموّها الذي يمكن القول بأنه استمر إلى آخر زمن المتوكل وقد أسهم في نشاط التجارة والعمل وفي ما يطلبانه من عمال وصُنّاع. وامتد الاستيراد إلى الغروس والمزروعات فحمل النخل من بغداد والبصرة وسائر السواد وحملت الغروس من الجزيرة والشام والجبل والري وخراسان وسائر البلدان[2]، ولم تذكر المصادر أنواع هذه الغروسات التي لا بدّ أن كثيراً منها من نباتات الزينة والنباتات الطبية، وأنها زوّدت القصور بهذه النباتات.

الصناع:

يذكر اليعقوبي أن المعتصم «كتب في أشخاص الفَعَلة والبنائين وأهل المِهَن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات»، ويذكر أيضاً أنه أقدم من كل بلد مَنْ يعمل عملاً من الأعمال أو يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل وهندسة الماء ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعه من الأرض. وحمل من مصر مَنْ يعمل القراطيس وغيرها. وحمل من البصرة مَنْ يعمل الزجاج والخزف والحصر، وحمل من الكوفة مَنْ يعمل الخزف ومَنْ يعمل الأدهان ومن سائر البلدان من أهل كل مهنة وصناعة فأنزلوها في هذه المواضع، وأقطعوا فيها، وجعل لهم هناك أسواقاً لأهل المهن بالمدينة[3].

اشتهرت كلٌّ من المدن الثلاث التي ذكرها اليعقوبي، وهي مصر والكوفة والبصرة، بإنتاج سِلَع عُرفت بها، فجُلِب صُنَّاع الخزف من البصرة والكوفة، ولعل منتوجات أخرى جُلِب صنَّاعها من أكثر من مدينة، ولا بدّ أنه حرص على

(١) البلدان ٢٥٨.
(٢) م.ن ٢٦٣.
(٣) م.ن ٢٦٤.

إقامة الصناعات المتميزة الراقية، وقامت بجانبها صناعات تسد الحاجات «الشعبية» للعدد الكبير من السكان، غير أن إنتاج هذه الصناعات في سامرّاء كان لسدّ حاجاتها، وليس لتصديرها، فلم يرد في المصادر ما ينص على أن سامرّاء أصبحت مركزاً لإنتاج مصنوعات تصدَّر إلى مدن أخرى.

ويذكر أن المعتصم استورد أهل كل مهنة وصناعة، مع عيالهم إلى هذه المواضع وأُقطعوا فيها، وجعل هناك أسواقاً لأهل المهن بالمدينة[1]. يتبين من هذا النص أن الذي أورده اليعقوبي وهو معروف بسعة اطلاعه أن المعتصم ألزم الصنّاع الأحرار بالمجيء إلى مدينته الجديدة، مع عيالاتهم للإقامة الدائمة فيها. ولابدّ أن المعتصم كان يدرك أن إقامتهم ستكون دائمة لأن الحاجة إلى أعمالهم ستستمر مع دوام نمو المدينة التي جلبهم إليها. وهذا يدل على أن هدفه منها إنشاء مركز حضري متنام وليس مجرّد معسكر، وهؤلاء الصنّاع مرتبطون بمِهَنِهم وليس بأصولهم العرقيةً، وأصول سكناهم منوعة، عدّد منها مصر والبصرة والكوفة، وأشار إلى جماعات جيء بهم «من سائر البلدان» أي من مدن متعددة لم يسمّها، ولكنهم يحتفظون بسيماتهم المتميزة بارتباطهم بالمهنة بالدرجة الأولى. ولعلهم كانوا يسيرون وفق تقاليدهم الخاصة القديمة في المهنة، وأن الدولة لم تتدخل في تغيير هذه التقاليد التي كان يرى بعض الفقهاء «إذا كانت في البلاد سُنَّة أعجمية فليس للإمام أن يغيِّرها»[2].

تتابعت هجرة العمال والكَسَبَة إلى سامرّاء بعد تأسيسها لأن الإعمار تتابع، والنمو استمر، وتَدفُّق الأموال لم ينقطع، وكان انتقاء هؤلاء العمال والصناع حرًّا غير مقيد وانحصر عملهم بِحِرَفِهم فلم يُسْهِموا في الأحداث السياسية ولم يخلقوا مشاكل أمنية، نظراً لازدهار الحياة الاقتصادية والمعاشية وقوة الخليفة القائمة على مكانة الخلافة المُثْبَتة وعلى الجيش الموالي والذي لم تكن له صلة قوية بالكسبة والصناع من العناصر المدنية التي جاءت من بغداد والمناطق المجاورة لسامرّاء.

(١) البلدان ٢٦٤.
(٢) البخاري : بيوع ٩٥،ابن سعد ٦/ ٩٤، أخبار القضاة لكويج ٢/ ٣٥١،٣٧٢.

أسواق سامرَّاء:

أدرك المعتصم أهمية السوق فحدَّد في تخطيطه الأول لسامرَّاء مكاناً لها، وفي هذا يقول اليعقوبي: إن المعتصم «خطّ المسجد الجامع واختط الأسواق حول المسجد الجامع وذكر في مكان آخر ووسعت صفوف الأسواق، وجعلت كل تجارة منفردة، وكل قوم على حدتهم على مثل ما رسمت عليه أسواق بغداد»[1].

وفي كلامه عن شارع السريجة، وهو الشارع الأعظم، ذكر مواقع الرطابين وسوق الرقيق في مربعة فيها طرق متشعبة فيها الحُجَر والغرف والحوانيت للرقيق، ثم مجلس الشرطة والحبس الكبير ومنازل الناس. والأسواق في هذا الشارع يمنة ويسرة مثل سائر البياعات والصناعات، ويتَّصل ذلك بخشبة بابك، ثم السوق العظمى لا تختلط بها المنازل، كل تجارة منفردة، وكل أهل مهنة لا يختلطون بغيرهم، ثم الجامع الكبير الذي لم يزل يجمع فيه إلى أيام المتوكل، والأسواق من أحد الجانبين، ومن الجانب الآخر القطائع والمنازل وأسواق أصحاب البياعات الدنيّة مثل أصحاب الفقاع والهرائس[2].

يتبين من النص الأول أن تحديد مواقع الأسواق واختطاطها جرى منذ أول إنشاء سامرَّاء، وأن مواقعها جعلت حول المسجد الجامع، أما النص الثاني فيُظْهر أن هذه الأسواق كانت في منطقة واحدة من شارع السريجة، وهو الشارع الأعظم وعلى طرفيه، ويوحي هذا النص أنه كان في سامرَّاء «السوق العظمى» وهي متميزة عن بقية الأسواق، ولكنها ليست بعيدة عنها، يفصلهما مجلس الشرطة والحبس، وهي ممتدة إلى خشبة بابك. أما السوق العظمى فتمتد إلى جامع المعتصم، وفي آخره أسواق أصحاب الصناعات والبياعات الدنيّة.

وجاء في النص الأول أن الأسواق وُسّعت صفوفها، وجُعلت فيها كلّ تجارة منفردة، وكل أهل مهنة لا يختلطون بغيرهم. ولم يذكر اليعقوبي من هذه

---

(١) البلدان ٢٥٨.
(٢) المصدر نفسه ٢٦٠.

الأسواق الفرعية غير سوقي الرطابين والرقيق وكانتا في أوله، وأسواق أصحاب البياعات الدنيّة مثل أصحاب الفقاع والهرائس.

نَظَّم المعتصم أسواق سامرَّاء على غرار أسواق الكرخ في بغداد حيث قال إنه أفرد كل تجارة في سوق ضمن السوق العظمى «على مثل ما رسمت عليه أسواق بغداد»، وقد تحاشى المعتصم ما غاب عن أبي جعفر المنصور في تخطيطه الأول للمدينة المدوّرة وأطرافها في بغداد فسببت له بعض المشاكل الأمنية وحملته على أن ينقل في سنة ١٥٧ الأسواق وفي ناحية الكرخ وباب الشعير، ويجعلها صفوفاً وبيوتاً لكل صنف ويعرفها الناس[١]. ولكل تاجر وتجارة شارع معلوم وصفوف في تلك الشوارع، وحوانيت وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة، ولا يباع صنف مع غير صنفه، ولا يختلط أصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم، وكل سوق مفردة، وكل أهل منفردون بتجارتهم، وكل أهل مهنة معتزلون عن غير طبعتهم وقد وضع على أسواق بغداد خراج[٢].

ثم نمت سوق على شاطئ دجلة كانت فيها «الفُرَض والسفن والتجارات التي ترد من بغداد وواسط وكسكر وسائر السواد من البصرة والأبلة والأهواز وما اتصل بذلك، ومن الموصل وعربايا وديار ربيعة وما اتصل بذلك»[٣].

أقيمت أسواق سامرَّاء في موضعها الذي اختطَّهُ لها المعتصم، وأدى ازدهارها ونمو الحياة الحضرية فيها إلى ازدحامها، فلما وَلِيَ الواثق الخلافة «زاد في الأسواق وعظمت الفُرَض التي تردها السفن من بغداد وواسط والبصرة والموصل»[٤]، ولم تذكر المصادر المناطق التي زيدت فيها الأسواق، ولعل الامتداد إلى خشبة بابك ترجع إلى زيادة الواثق.

(١) الطبري ٣/ ٤٣٣.
(٢) البلدان ٢٤٦، تاريخ بغداد للخطيب ١/ ١٢٣.
(٣) البلدان ٢٦٣.
(٤) المصدر نفسه ٢٦٥.

ولما وَلِيَ المتوكل الخلافة وبنى الجامع الجديد «جعل الطريق إليه من ثلاثة صفوف واسعة عظيمة من الشارع الذي يأخذ من وادي إبراهيم بن رباح، في كل صف حوانيت فيها أصناف التجارات والصناعات والبياعات، عَرْض كل صفّ مائة ذراع بالذراع السوداء، لئلا يضيق عليه الدخول إلى المسجد في الجمع في جيوشه وجموع خيله ورجاله، ومن كل صف إلى الصف الذي تليه دروب وسكك فيها قطائع جماعة من عامة الناس فاتسعت على الناس المنازل والدور، واتسع أهل الأسواق والمهن والصناعات في تلك الحوانيت التي هي في صفوف الجامع»[(١)].

وفي سنة ٢٤٥ شَيَّد المتوكل في الماحوزة على بُعد ميلين من الكرخ مدينة الجعفرية ضمّت قصوره وإقطاعات وُلاة عهوده وسائر أولاده وقوّاده وكتّابه وجُنْده والناس كافة وربطها مع الكرخ بشارع عرضه مائتا ذراع، أقْطَعَ الناسَ على جانبيه، وجدّ الناس في البناء الذي امتد واتصل من الدور والكرخ فسامرّاء وإلى بلكوارا في القادسية (ليس بين شيء من ذلك فضاء ولا فرج ولا موضع لا عمارة فيه فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ)[(٢)] ونقل إلى الجعفرية الدواوين.

شَيَّد المتوكل في الجعفرية أسواقاً جُعلت في موضع معتزل وجُعل في كل مربعة وناحية سوقاً، وبنى المسجد الجامع،[(٣)] أي إن الجعفرية لم تقتصر على سوق واحدة، وإنما على عدة أسواق منها الرئيسية في موضع معتزل، ومنها المتفرقة في المربعات والنواحي، ولابدّ أن هذه الأسواق كانت واسعة فيها سلع متعددة لسدّ حاجة هذه المدينة الكبيرة، ولعل معظم أهلها والعاملين فيها انتقلوا من أسواق سامرّاء التي ضعفت بهذا الإعمار الجديد الذي لم يطُلْ أمده لأن المتوكل لم يقم فيها إلا تسعة أشهر ثم قُتِل وَوُلّي ابنه المنتصر الخلافة فعاد إلى سامرّاء وأمر الناس جميعاً بالانتقال من الماحوزة، وأن يهدموا المنازل ويحملوا النقض إلى سُرّ من رأى، فانتقل الناس وحملوا نقض المنازل إلى سرّ من رأى،

---

(١) البلدان ٢٦٠.

(٢) م.ن ٢٦٦-٧.

(٣) م.ن ٢٦٦-٧.

وخَرِبت قصور الجعفري ومنازله ومساكنه وأسواقه في أسرع مدة، وصار موضعها موحشاً لا أنيس فيه ولا سكن، والديار بلاقع كأنها لم تعمّر ولم تُسكن(1).

أهل السوق:

كان قِوام السوق الحوانيت التي تعرض السلع المستوردة أو المصنَّعة في سامرّاء والعاملين في ذلك. فتنظيم السوق وثيق الصلة بتنظيم أهلها والعاملين فيها. وأُنشئت سامرّاء في منطقة سكانها قليلون. ولكن، بالتعاون مع الجند الذين تقرَّرت إقامتهم فيها صارت عملية تشييدها في غنًى عن العمال غير الماهرين. ولابدّ أن استمرار نموّها أبقى الحاجة لهؤلاء العمال الذين استقر كثير منهم فيها وتحوّلوا من العمل في الأرض إلى العمل في المدينة، ولعلهم كانوا أعظم من سمّاهم اليعقوبي «الناس» ونصّ على سُكناهم في الشارع الأعظم، وشارع أبي أحمد، وشارع الحير ثم في الجعفرية وبالقرب من جامع المتوكل، ومنع الأتراك من الاختلاط بهم.

ولابدّ أن هذه السوق الجديدة كانت تحتوي على أكثر أصناف السلع في السوق الأولى التي أقامها المعتصم، وأن تشييد هذه السوق خفف الازدحام وآثاره في سوق المعتصم والتي من الأرجح أنها ظلت قائمة، ولكن خفّ النشاط فيها، كما أن كثيراً من الساكنين قربها من أهل الحِرَف نقلوا مساكنهم إلى أماكن قريبة من السوق الجديدة.

أسواق محلية:

قصد المعتصم من تخطيطه سامرّاء أن يجعلها مركزاً واسعاً، ويقيم الأتراك في مراكز فرعية على مسافة من المركز، وكان أبرز هذه المراكز الفرعية في المطيرة الواقعة في الأطراف الجنوبية الشرقية، والكرخ الواقعة في الأطراف الشمالية الشرقية، والحير في الجنوب.

---

(1) البلدان ٢٦٧.

فأما المطيرة فقد أنزلها الأفشين الأشروسني الذي بنى فيها قصراً وأقْطَعَ أصحابه الأشروسنية وغيرهم من المضمومين إليه حول داره، وأمره المعتصم أن يبني هناك سويقة فيها حوانيت تجار فيما لابدّ منه، ومساجد وحمّامات، وكانت المطيرة تبعد فرسخين عن معمور مركز سامرَّاء وليس في ذلك الموضع شيء من العمارات ثم أحدقت العماره فيه، وكانت للحسن بن سهل قطيعة في آخر الأسواق تمتد إلى خشبة بابك، فامتدَّ بناء الناس من كل ناحية، واتَّصل البناء بالمطيرة حتى صارت قطيعة الحسن بن سهل وسط سرّ من رأى[1].

أما الكرخ فقد أقطعه أشناس وأصحابه «وضمّ إليه عدة من القواد الأتراك والرجال، وأمره أن يبني المساجد والأسواق[2] وأمر أشناس أن لا يطلق لغريب من تاجر ولا غيره مجاورتهم، فأقطع قوماً آخرين فوق الكرخ وسمَّاه الدور. وجعل في كل موضع سويقة فيها عامة حوانيت الفاميين وهم باعة البقول والقصابين ومن أشْبَهَهم ممن لابدّ لهم منهم، ولا غنى لهم عنهم.[3] ويوحي هذا النص أن هذه السويقات كانت للأتراك ولم يشغلها غرباء. أما خاقان عرطوج الذي أُقطِع مع أصحابه قرب الجوسق، ووصيف الذي أُقطع مع أصحابه عند الحير[4]، فلم تُذكر في قطائعهم أسواق ولعل الاعتماد في ذلك كان على السوق الرئيسية.

أما أهل الصناعات والحِرَفيون من أهل المهن، فكان لابدّ من جلبهم من المناطق الأخرى. وقد ذكر اليعقوبي منهم من جُلِب من البصرة والكوفة ومصر، وأشار إلى أنه جلب أيضاً من بلاد أخرى لم يُسَمِّها والراجح أنه جُلِب من كل بلد صنَّاع صناعةٍ واحدة كالحرفيين الذين جُلِبوا من الكوفة والبصرة، وبذلك تنسقت أصولهم الجغرافية مع حِرَفهم، إلا أن الدولة عاملتهم على أساس حِرَفهم وراعت تَميُّزَ هذه الحِرف، ولعل أكثر الصناع أسكنهم المعتصم في الجانب الغربي.

(١) البلدان ٢٥٦.
(٢) م.ن ٢٥٨.
(٣) م.ن ٢٥٩.
(٤) م.ن ٢٢٨.

تشمل السوق حوانيت لبيع السلع، وربما لمعالجة بعضها. ولم تُذكر في سِلَعِها صناعات واسعة كالنسيج وغيره، ويبدو أن أكثر الأعمال فيها تتصل ببيع المنتوجات وليس صناعتها، ولم يرد ذكر صناعة تميزت بها سامرَّاء أو كانت تصدّرها، فَسِلَعُها استهلاكية تعتمد على ما تستورده من مواد أوَّلية أو مصنوعات.

لم يُذْكر للتجَّار في سامرَّاء دور متميز، ولعل تُجَّار بغداد كانت لهم الهيمنة على العمليات التجارية في سامرَّاء، وأن بغداد احتَفَظت بمركزها التجاري العالمي، وجَعَلت من سامرَّاء مركزاً فرعياً تابعاً لها، ومما يؤيِّدُ هذا أنه لم يرد ذكر للخانات والفنادق في سامرَّاء التي كانت ترتبط ببغداد وبالموصل بالطريقين النهري والبري، والآخر كان يسلك الجانب الشرقي من دجلة، وفي هذا يقول اليعقوبي: «اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسرّ من رأى في البر والبحر، أعني في دجلة وجانبَيْ دجلة»[1].

يقول اليعقوبي: «وبلغت غلاَّت سامرَّاء ومستغلاتها وأسواقها عشرة آلاف ألف درهم في السنة»[2] وهذا المبلغ قريب من نظيره في بغداد حيث كانت أجرة الأسواق ببغداد في الجانبين جميعاً مع رحا البطريق وما اتصل بها في كل سنة اثني عشر ألف ألف درهم،[3] علماً بأن جباية بغداد تدخل فيها موارد رحا البطريق، وهي في الراجح احتفظت بالتجارة العالمية.

ولا بدّ أن تنامي سامرَّاء وتزايد السكان فيها أدّيا إلى ازدحام السكن وارتفاع الأسعار فامتدت العمارات فيها، بعد أن كانت قطائع وهبتها الدولة. وكانت قطيعة الحسن بن سهل في آخر الأسواق وبين خشبة بابك والمطيرة، وليس في ذلك الموضع يومئذٍ شيء من العمارات، ثم أحدقت العمارة به حتى صارت قطيعة الحسن بن سهل وسط سرّ من رأى، وامتد بناء الناس من كل ناحية واتصل البناء بالمطيرة[4].

---

(١) البلدان ٢٤٥.
(٢) م.ن ٢٦٠.
(٣) م.ن ٣٥٤.
(٤) م.ن ٢٥٩.

وجرى أيضاً توسُّع في جهة الحير حيث كلما اجتمعت إلى إقطاعات لقوم هدم الحائط وبُنِيَ خلف حائط غيره «واتسع الناس في البناء بسُرَّ مَن رأى أكثر من اتساعه في بغداد[1] وأصبح الجريب من الأرض كبيراً»[2] ثم شَيَّد المتوكل جامعه الجديد وانتقل إلى أطرافه الناس، فاتسعت على الناس المنازل والسوق واتسع أهل الأسواق والمهن والصناعات في تلك الحوانيت والأسواق التي في صفوف المسجد الجامع[3]. ولا ريب في أن امتداد رقعة السكن وسعة الأراضي يخففان من غلاء أسعارها، كما أن النشاط الاقتصادي الذي ساد فيها بسبب تتابع الأعمال أمن موارد لحياة معاشية طيبة، فلم يذكر حدوث موجات غلاء فيها.

الجانب الغربي وإعماره

وصف الإصطخري الجانب الغربي من دجلة فقال: وتكريت من غربها إلى أن تنتهي إلى الأنبار بين دجلة والفرات قليلة العمارة، وإنما العمارة منها ما يحاذي سامرَّاء أميالاً يسيرة، والباقي بادية[4]. ويقول: سامرَّاء كلها في شرقي دجلة، وليس منها في الجانب الشرقي كله، وعمارتها وزروعها وأشجارها فيما يقابلها من غربي دجلة[5]. إن هذا الإعمار يرجع إلى انخفاض نسبي وانبساط في الأرض، وأن تربتها ليست كلسية، واعتمدت في زراعتها على نهر الإسحاقي الذي قال عنه سهراب: وأوله أسفل من تكريت بشيء يسير في غربي دجلة، عليه ضياع وعمارات، يمر بطيرهان ويجيء إلى قصر المعتصم المعروف بقصر الجص، ويسقي الضياع التي هناك في غربي مدينة سرّ من رأى

(١) البلدان ٢٦٣.
(٢) م.ن ٢٣٤.
(٣) م.ن ٢٦٥ - ٦.
(٤) المسالك ٨٧.
(٥) المصدر نفسه ٨٥.

المعروفات بالأولى والثانية والثالثة إلى السابعة، ويصب في دجلة بإزاء المطيرة[١] .

لم تذكر العمارات التي كانت على الإسحاقي، وأكثرها فيما يظهر منذ زمن المعتصم، واقتصر سهراب على القول بأن عليه عمارات وضياع وقصر الجص، ولم يُسمِّ أيًا من الضياع السبع التي عليه.

أورد اليعقوبي أشمل ما وصلنا من وصف للجانب الشرقي فقال: ولما فرغ المعتصم من الخطط ووضع الأساس للبناء في الجانب الشرقي من دجلة، وهو جانب سرّ من رأى، عقد جسراً إلى الجانب الغربي من دجلة، فأنشأ هناك العمارات والبساتين والأجنة، وحفر الأنهار من دجلة، وصيّر إلى كل قائد عمارة ناحية من النواحي وحمل النخل من بغداد والبصرة وسائر السواد، وحملت الغروس من الجزيرة والشام والجبل والريّ وخُراسان وسائر البلدان، فكثرت المياه في هذه العمارة في الجانب الشرقي بسرّ من رأى وصلح النخل وثبتت الأشجار، وزكت الثمار، وحَسُنت الفواكه، وحَسُن الريحان والبقل، وزرع الناس أصناف الزروع والرياحين والبقول والرطاب، وكانت الأرض مستريحة ألوف السنين، فزكا كل ما غرس فيها وزرع بها حتى بلغت غلة العمارات بالنهر المعروف بالإسحاقي وما عليه، والإيتاخي، والعمري، والعبد الملكي، ودالية ابن حماد، والمسروري، وسيف، والعربات المحدثة، وهي خمس قرى، والقرى السفلى وهي سبع قرى، والأجنة والبساتين، وخراج الزرع أربعمائة ألف دينار في السنة.

وأقدم المعتصم من كل بلد من يعمل عملاً من الأعمال أو يعالج مهنة من مِهَن العمارة ومن سائر البلدان من أهل كل مهنة وصناعة، فأُنزلوا مع عيالهم بهذه المواضع، وأقطعوا فيها وجعل هناك أسواقاً لأهل المهن بالمدينة، وحمل المعتصم إلى سامرَّاء صناع القراطيس مع تربتها ومائها وأمرهم باتخاذه هناك ولم يُخرج إلا الخشن الذي يتكسر[٢] .

---

(١) سهراب ١٢٧ .

(٢) البلدان لليعقوبي ٢٦٣-٤، الروض المعطار للحميري ٢٥٣ .

يتبين من الفقرة الأخيرة من نص اليعقوبي أن الجانب الغربي أوطنه الحِرَفيين الذين أقدمهم من سائر البلاد من أهل كل مهنة وصناعة، وخص بالذكر من أوردهم من البصرة والكوفة ومصر. وذكر أن كل هؤلاء أنزلوا بعيالهم بهذه المواضع، وأقطعوا فيها، وجعل هناك أسواقاً لأهل المهن بالمدينة. ولم تحدِّد المصادر مواقع هذه الأسواق التي لا بدّ أنها كانت متقاربة وغير بعيدة عن منازلهم التي يكوّن مجموعها مدينة لم تسمِّها المصادر بذلك. وقد يشير توكيله قائداً بعمارة كل ناحية إلى أنه كانت لهم عدة مجموعات سكنية؛ وفي أيٍّ حال فكلُّهم أغراب، ومن مدن عربية، إذ لم يشر إلى استقدامه ذوي مِهَن من مدن أعجمية، وإن كان أشار إلى جلبه من سائر البلدان وهي عبارة عامة.

استورد المعتصم المهنيين لإعمار بلد نشأ في قفر، ولا بدّ أن الذين أسكنهم في الجانب الغربي كانوا يعملون في إعمار الجانب الشرقي، فعمله محاولة لفصل الحِرَفيين في السكن عن الجانب الشرقي.

وأولى المعتصم اهتماماً خاصاً بالإعمار الزراعي في الجانب الغربي؛ ويسّر لنجاحه توافر الماء وصلاحية التربة، ويبدو أن اهتمامه الأكبر كان بالبساتين وأشجار النخيل والفواكه والبقول والرياحين والرطاب؛ مما يعين على اكتفائها الذاتي من هذه المنتوجات ويقلل اعتمادها الخطر على المستورد من البلاد الأخرى؛ ومن الطبيعي أن هذه المنتوجات لاستهلاك أهل الجانب الشرقي، وقد وصف المسعودي المعتصم بأنه يحب العمارة، إعمار الأرض التي يجبى بها وعليها يزكو الخراج وتكثر الأموال وتعيش البهائم وترخص الأسعار ويتسع المعاش[1].

وعقد المعتصم جسراً، لم تحدد المصادر موقعه بدقة، يربط بين الجانبين ويُيَسّر نقل السلع. ولعله كان على شارع الخليج، وهو الشارع الذي على دجلة حيث الفُرَض والسفن والتجارات التي ترد من بغداد وواسط وكسكر السواد، ومن البصرة والأبلة والأهواز وما اتصل بذلك. وفي هذا الشارع قطائع المغاربة

(١) مروج الذهب ٣/ ٤٦٢.

كلهم أو أكثرهم، والموضع المعروف بالأزلاخ الذي عَمُرَ بالرِجَّالة المغاربة في أول ما اختطَّت سرّ من رأى[1].

ولما وَلِيَ الواثق الخلافة زاد في الأسواق وعظُمت الفُرَض التي تردها السفن من بغداد وواسط والبصرة والموصل. ذكر اليعقوبي أن خراج ما على الإسحاقي بلغ أربعمائة ألف دينار[2].

(١) البلدان لليعقوبي ٢٦٣.
(٢) المصدر نفسه ٢٦٥.

الفصل السابع

قصور الخلفاء

قصور المعتصم

عُرف المعتصم باهتمامه بعمارة الأرض وبناء القصور، ولم تكن له لذة في تزيينها وإنما كانت غايته الإتقان، وكانت في سامرّاء إقامته الدائمة إبّان خلافته فلم يغادرها خلال السنوات الست من خلافته غير أشهر قليلة من سنة ٢٢٣ في حملته على عمورية[١]: وذكر اليعقوبي أن المعتصم بنى العمارات والقصور وصيَّر في كل بستان قصراً فيه مجالس وبرك وميادين[٢]. وأنه لما عزم على تشييد سامرّاء أحضر المهندسين فقال اختاروا أصحّ هذه المواضع، فاختاروا عدة مواضع للقصور، وصيَّر إلى كل رجل من أصحابه بناء قصر: فصيَّر إلى خاقان عرطوج أبي الفتح بن خاقان بناء الجوسق الخاقاني، وإلى عمر بن فرج بناء القصر المعروف بالعمري، وإلى أبي الوزير بناء القصر المعروف بالوزيري[٣]. وذكر ابن الفقيه أن المعتصم بنى ثمانية قصور، فمن القصور: الجوسق، والعبد الملكي، وقصر الجص، وقصر القصور، وعمورية، وقصر المطامير، وقصر الأماني، والقصر الخاقاني[٤]. وسياق كلام ابن الفقيه يُرَجِّح، وإن لم يجزم، أن تكون هذه القصور في سامرّاء، غير أنه لم يذكر قصري

---

(١) الطبري ٣/١٣٢٦.

(٢) البلدان لليعقوبي ٦٤.

(٣) المصدر نفسه ٢٥٨.

(٤) البلدان لابن الفقيه ١٥٠ (مخطوطة مشهد).

العمري والوزيري اللذين ذكرهما اليعقوبي، كما أنه جعل الجوسق الخاقاني قصرين هما الجوسق والخاقاني: وقد انفرد ابن الفقيه في ذكر هذه القصور، عدا قصر الجص، ولعل العبد الملكي منسوب إلى محمد بن عبد الملك الزيات.

ويُظهر نص اليعقوبي أن هذه القصور كانت متفرقة، وأن المهندسين هم الذين اختاروا أصلح المواضع لتشييدها، غير أن اليعقوبي ذكر مَنْ أشرف على البناء ولم يذكر أسماء المهندسين أو الشروط التي رأوا توافرها في اختيار الأصلح. وقد يدل اختفاء ذكرها على أنها كانت بعيدة عن مواقع الأحداث التي مرت بسامرّاء، وأنها أهملت أو هدمت وخربت في وقت مبكر. أما العمري فإن المسعودي يذكر أن المعتصم «أنزل بعض الفراغنة الموضع المعروف بالعمري والجسر»[1] وقد يكون استعمال المسعودي كلمة «الموضع» من أخطاء النساخ وصحيحها كلمة «القصر»، وأنه هدم مؤخراً، وظل اسمه يطلق على موضعه ولكن لا نعلم متى هدم، ويذكر أنه تزوج فيه الحسن بن الأفشين بنت أشناس، ونص على أنه قصر المعتصم[2]، وكلام المسعودي يدل على أن موقع العمري قرب الجسر.

أما الوزيري فإن المسعودي يذكر أن المعتصم لما اشترى دير النصارى بسامرّاء بنى قصره فيه فأسس بنيانه، وهو الموضع المعروف بالوزيرية، بسُرّ من رأى، واليها يضاف التين الوزيري[3]، فيكون الوزيري اسم الموضع الذي بنى القصر عليه، وكان للأفشين متاع بالوزيرية[4].

ويذكر الطبري أنه في أحد حوادث الاضطراب في زمن المهتدي وافى موسى في رجاله حتى صار إلى قنطرة في ناحية الوزيرية يوم الجمعة[5]، وعسكر المهتدي في الحير وقَرُب منهم ثم خرج إلى الجوسق وعليه السلاح.

---

(١) مروج الذهب ٣/ ٤٦٧.
(٢) م.ن ٣/ ٤٣٠.
(٣) م.ن ٣/ ٤٦٧.
(٤) الطبري ٣/ ١٣١٨.
(٥) المصدر نفسه ٣/ ١٨١٥.

أما قصر الجص فإن ياقوت يذكر أنه قصر عظيم قرب سامرّاء بناه المعتصم للنزهة فوق الهاروني[1]، وكان أحمد بن المعتصم يسكن قصر الجص[2] ولعله بُني له، فقد ذكر سهراب ما يحدد موقعه حين قال إن نهر الإسحاقي أوله أسفل من تكريت ويجيء إلى الطيرهان، ويصير إلى قصر المعتصم بالله المعروف بقصر الجص ويسقي الضياع هناك في غربي مدينة سرّ من رأى المعروفة الأولى والثانية والثالثة إلى السابعة ويصبّ في دجلة إزاء المطيرة[3]، وفي قصر الجص أقام مؤنس، وفي خلال إقامته احترق سقف من سقوف القصر[4] وعنده قتل عضد الدولة بختيار بن معز الدولة[5] وفيه مات البتاني[6].

ويذكر اليعقوبي أن المعتصم أنشأ في الجانب الشرقي العمارات والأجنة، وحفر الأنهار وصيَّر إلى كل قائد عمارة ناحية من النواحي حتى بلغت غلة العمارات بالنهر المعروف والأجنة والبساتين وخراج الزرع أربعمائة ألف دينار في السنة[7]. إن النص الأول يشير إلى أن الجانب الشرقي شُيِّدت فيه قصور للقواد، وهو يذكر قصوراً لم يشر إليها سهراب، ولا بدّ أن (الإيتاخي) الذي ذكره هو غير الإيتاخية التي تقع في الجانب الشرقي على القاطول الكسروي ثم صارت تسمّى المحمدية.

ولا بدّ أن «العمري» في هذا النص هو غير القصر المسمى بالاسم نفسه والذي يقع في الجانب الشرقي، ومن القصور الثلاثة الأولى التي بناها المعتصم. أما العبد الملكي، فالراجح أنه منسوب إلى محمد بن عبد الملك الزيات. ويبقى التساؤل عن فخامة هذه القصور، والمبرر لبناء المعتصم أكثر من قصر واحد، وعلاقة ذلك بمن سكن كل قصر أو أقام فيه.

---

(١) معجم البلدان ٤/ ١١٠.
(٢) الأنساب لابن حزم ٢٥.
(٣) سهراب ١٢٧.
(٤) عريب: تكملة تاريخ الطبري ١٤٦٧ والكتاب نقل من الجزء الثالث لكتاب «الأوراق».
(٥) تجارب الأمم لمسكويه ٢/ ٣٨١، ياقوت ٤/ ١١١.
(٦) أخبار الحكماء ٢٣١.
(٧) البلدان لليعقوبي ٢٦٣.

وبمقارنة ما ذكره سهراب بما ذكره اليعقوبي، فإن سهراب ذكر قصر الجص الذي يوحي في سياق ذكره بأنه أول العمارات، ولم يسمّ الضياع السبع التي أشار إليها، أما اليعقوبي فسمى القرى المحدثة، وهي الإيتاخي، والعمري، والعبد الملكي، ودالية ابن حماد، والمسروري، وسيف، والعربات المحدثة، وهي سبع، ولم يذكر أسماء الخمس المحدثة التي أشار إليها، كما أنه لم يذكر قصر الجص. وتجدر الإشارة إلى أن ابن الفقيه ذكر أن «المعتصم بنى الجوسق، والعبد الملكي وقصر الجص، وقصر القصور، والعمورية، وقصر المطامير»(١). ولم يحدد مواقع هذه القصور التي حددت المصادر الأخرى منها الجوسق الغربي وقصر الجص في الجانب الشرقي.

ويذكر الطبري أن اللؤلؤة بُنِيَ للواثق، وظاهر النص يدل على أن المعتصم هو الذي بنى قصر اللؤلؤة الذي تنسب مصادر أخرى بناءه للمتوكل(٢).

وينقل الرشيدي عن الصولي قصر المعتصم بالميدان الذي كان فيه للعباسية، وجعل في الإيوان المنقوش في صدره صورة عنقاء وينقل البيروني عن الصولي بناء المعتصم هذا القصر والاحتفال الذي أقامه في افتتاحه ثم يذكر أن المعتصم لم يعد إلى ذلك القصر وخرب فلم يجتمع فيه ممن حضر ذلك المجلس أحد(٣).

الجوسق:

يرد في الأخبار ذكر الجوسق أكثر من أي قصر آخر في سامرَّاء مما يدل على أهميته. وقد بناه خاقان عرطوج للمعتصم(٤)، ولذلك كثيراً ما كان يسمى الجوسق الخاقاني(٥) تمييزاً له عن الجوسق في ميدان الصخر، والجوسق

(١) البلدان لابن الفقيه ١٥٠.
(٢) الذخائر والتحف للرشيدي ١٢٩.
(٣) الجماهر في معرفة الجواهر ١٥٤.
(٤) البلدان ٢٥٨.
(٥) مروج الذهب ٣/ ٤٧٤ وانظر الدراسة القيمة لنورثج عن الخاقاني دار العامة ونشرها في مجلة الفتح الشرقية م ٢٣ ص ١٤٣-١٧٢ سنة ١٩٩٣.

الإبراهيمي اللذين بناهما المتوكل[١]، ولا بدّ هو الذي ذكر عنه ابن الداية موضع الجوسق[٢].

كان الجوسق يقع على دجلة[٣] ولم تذكر المصادر مساحته وأبعاده وتفاصيل معالمه العمرانية، وإنما ذكر الطبري أنه كانت في الجوسق خزائن فيها من الأموال والجواهر وفاخر الثياب،[٤] وذكر أيضاً فيه دواب الخاصة[٥].

وفي الجوسق إيوان كان ممن قعد فيه جعفر بن المعتمد، وأبو أحمد بن المتوكل[٦]. وبنى المعتز في الجوسق في الصحن الكامل بيتاً قدرته له أمه، ومثلت حيطانه وسقوفه فكان أحسن بيت رُئي[٧].

وفي الجوسق حبس المعتصم الأفشين ثم بنى له حبساً مرتفعاً وسمَّاه لؤلؤة داخل الجوسق وهو يعرف إلى الآن الأفشين،[٨] وذكر المسعودي أن المستعين لما انحدر إلى بغداد اضطربت الفراغنة والأتراك وغيرهم إلى الموضع المعروف بلؤلؤة الجوسق[٩]. وذكر مسكويه أن المعتصم بنى حبساً للأفشين شبيهاً بالمنارة وفي وسطها مقدار مجلسه والرجال ينوبون فيها كما يدور[١٠]، وذكر الطبري أنه حُبس في الجوسق كل من المعتز[١١]، والمؤيد[١٢]، وأبو أحمد[١٣] وكنجور[١٤] ولم يذكر في أي مكان من الجوسق.

(١) انظر فيما يلي ما كتبناه عن قصور المتوكل.
(٢) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ١٣٦.
(٣) مروج الذهب ٣/٤٧٦، تاريخ اليعقوبي.
(٤) الطبري ٣/١٧١٦.
(٥) م.ن ٣/١٧٨٨.
(٦) م.ن ٣/١٧٨٧.
(٧) الديارات للشابشتي ١٧٩.
(٨) الطبري ٣/١٧١٧.
(٩) مروج الذهب ٤/٧٧.
(١٠) التجارب ٥١٩.
(١١) الطبري ٣/١٧٠٧.
(١٢) م.ن ٣/١٦٦٨.
(١٣) م.ن ٣/١٦٦٨.
(١٤) م.ن ٣/١٧٠٧.

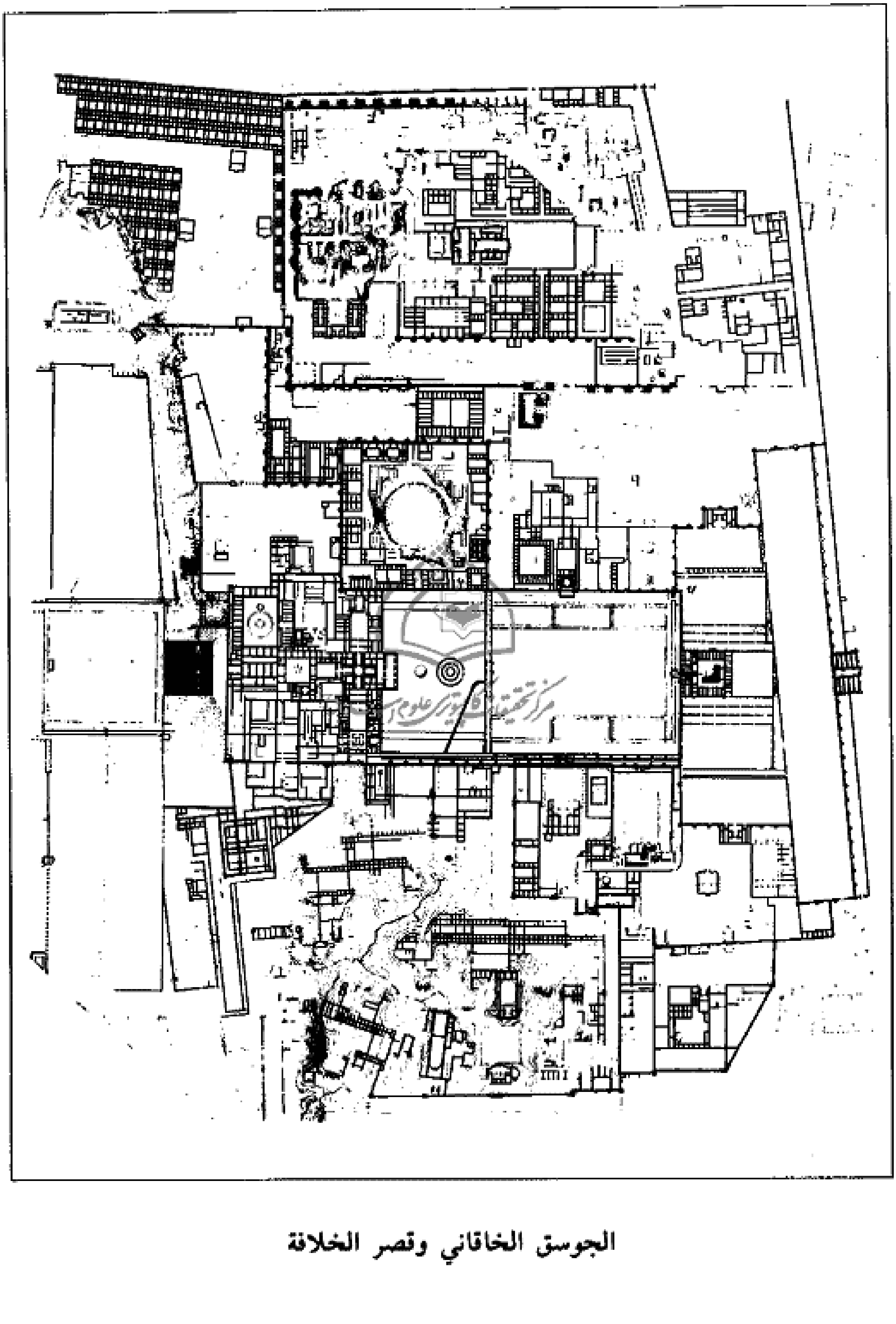
دفن في الجوسق من الخلفاء المعتصم[١]، والمنتصر وهو أول خليفة من بني العباس أظهر قبره وذلك أن أمه حبشية سألت ذلك فأذن لها وأظهرته بسامرّاء[٢]، كما دفن فيه المعتز عند قبر ابيه المنتصر[٣]. أما الطبري فيذكر أن المعتز دُفن مع المنتصر في ناحية قصر الصوامع[٤]؛ وذكر المسعودي أن المعتز صلى عليه أحمد بن المتوكل على الله ودفن في داره[٥]، وفي الجوسق نزل المنتصر بعد عشرة أيام من توليه الخلافة[٦]، ونزل فيه أيضاً كل من المهتدي[٧] والمعتمد[٨].

وفي الجوسق حوصر المستعين[٩]، وأقام المهتدي فيه حولاً كاملاً[١٠]، والمعتمد قبل أن ينتقل إلى الجانب الشرقي[١١].

وردت عن بعض المعالم العمرانية للجوسق وما حوله معلومات متفرقة في ثنايا أخبار بعض الحوادث التي جرت في سامرّاء، وخصوصاً ما يتصل منها بالثورة على المهتدي. فقد ذكر اليعقوبي أن المعتصم «أقطع خاقان عرطوج مما يلي الجوسق الخاقاني وأمره بضمّ أصحابه ومنعهم من الاختلاط بالناس»[١٢] ولم تذكر المصادر موقع هذا الإقطاع ولا عدد أصحاب خاقان.

وورد في المصادر ذكر عدد من أبواب الجوسق والمعالم العمرانية قرب كل باب. ومما ذكرته:

(١) تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٥٤، مروج الذهب ٣/ ٤٥٧.
(٢) تاريخ بغداد للخطيب ٣/ ٣٤٢.
(٣) المصدر نفسه ٢/ ٢٢١، وهو ينقل عن ابن أبي الدنيا أنه دفن بباب الصميدعي الذي لم أجد له ذكراً في المصادر.
(٤) الطبري ٣/ ١٧١٠.
(٥) مروج الذهب ٤/ ٣٨٤.
(٦) الطبري ٣/ ١٤٤٦، ١٥٠٢.
(٧) م. ن ٣/ ١٧٩١.
(٨) م. ن ٣/ ١٩٢٧.
(٩) م. ن ٣/ ١٥١٣.
(١٠) م. ن ٣/ ١٨٠٢، ١٨٠٤، ١٨١٨.
(١١) م. ن ٣/ ١٩٢٧.
(١٢) البلدان ٢٥٨.



الجوسق الخاقاني وقصر الخلافة

١. **باب المصاف وباب إيتاخ**: فقد ذكر الطبري أن المهتدي خرج من الدار من باب المصاف، حتى خرج إلى الباب المعروف بإيتاخ ثم إلى سويقة مسرور، ثم إلى درب الواثق حتى خرج إلى باب العامة، ثم «صار إلى باب السجن فأطلق من فيه، ثم صار إلى دار أبي صالح عبد الله بن محمد بن يزداد، وكان أحمد بن جميل صاحب الشرطة نازلاً فيه، فدخل عليه، فأخرج من ناحية ديوان الضياع، ثم إلى الجوسق فحبس فيه عند أحمد بن خاقان، وانتهب دار أحمد بن جميل»[١]، وذكر الطبري في مكان آخر «أن دار أبي صالح بن عبد الله بن محمد بن يزداد» وهي بعد خشبة بابك وفيها أحمد بن جميل صاحب المعونة[٢].

٢. **باب البستان**: ذكر اليعقوبي «قطيعة إيتاخ ويتصل ذلك بباب البستان وقصور الخلفاء»[٣] ولعل هذا البستان هو البستان الخاقاني الذي ذكر الطبري أن المعتصم اشترى مكانه بخمسة آلاف درهم[٤]، وأنه في الثورة في زمن المعتمد صار بغا إلى الجسر ثم خرج من البستان الخاقاني[٥].

٣. **باب الوزير**: يذكر الطبري أن أبا داود أخرج الأفشين «من باب الوزير إلى محبسه»[٦] وذكر أن الأتراك كانوا يؤيدون المهتدي «فكتبوا إلى موسى بن بغا وبايكباك، فوافى موسى في رجاله حتى صار إلى قنطرة في ناحية الوزيرية يوم الجمعة، وعسكر المهتدي في الحير، وقرب منهم، ثم خرج إلى الجوسق، وعليه السلاح.. وهرب المهتدي ومر على باب أبي الوزير[٧].

---

(١) الطبري ٣/ ١٨٢١ ـ ٢، وذكر الطبري «المطبق» في سامرا (٣/ ١/ ١٨٠٨) ولم ترد معلومات توضح ما إذا كان هذا المطبق هو السجن نفسه، أم كان بنايتين مختلفتين.

(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٨١٧.

(٣) البلدان ٢٤٦.

(٤) الطبري ٣/ ١١٨٠.

(٥) م.ن ٣/ ١٦٩٦.

(٦) م.ن ٣/ ١٣١٣.

(٧) م.ن ٣/ ١٨١٨.

٤. **باب النزالة:** وقد خرج منه الأتراك في زمن المهتدي بعد أن كانوا متجمعين في الجوسق[١].

٥. **باب القناة:** وقد خرج الثائرون على المهتدي من الدار مما يليه[٢].

دار العامة:

دار العامة من أبرز المعالم العمرانية المتصلة بالأعمال الإدارية في سامرَّاء، وقد تفردت بهذا الاسم عن القصور، وتردد ذكرها وذكر باب العامة في المصادر مما يظهر أن الأعمال التي تجري فيها كانت تتصل بعامة الناس ولا تقتصر على ما ينحصر بالخليفة أو جماعة محددة أو ديوان محدد. وقد انفردت سامرَّاء عن المدن كافة، والأمصار الإسلامية الأخرى ببناء له مثل هذا الاسم، وقد تردد ذكرها في عدد من الحوادث التي جرت في سامرَّاء منذ زمن المعتصم مما يدل على قِدَم تأسيسها بالرغم من أن المصادر لم تذكرها ضمن المنشآت التي ذكرت أن المعتصم شيدها، ولعل تسميتها بهذا الاسم يدل على أنها لم تكن مسكناً للخليفة أو لأسرته، وأن أهميتها كانت ترجع إلى الأعمال التي كانت تجري فيها وليس إلى فخامة بنائها، أي إنها كانت تختلف عن (القصور) بطراز بنائها وبالوظائف التي كانت تؤديها.

كانت دار العامة هي المركز الذي يقوم فيه الخلفاء بأداء أعمالهم الرسمية، وذكر اليعقوبي دار الخليفة العامة التي يجلس فيها يوم الاثنين ويوم الخميس[٣]، وذكر الطبري أن المازيار لما قدم سامرَّاء جلس المعتصم في دار العامة[٤]، وفي سنة ٢٦١ جلس المعتمد في دار العامة وأعلن قراره بتولية أولاده ولاية

---

(١) الطبري ٣/ ١٨٢٤.
(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٨٢٣.
(٣) البلدان ٢٦٢.
(٤) الطبري ٣/ ١٣٠٣.

العهد بالتتابع[١]. ولعل أعمالاً أخرى مهمة كانت تتم في دار العامة لم يذكرها المؤرخون. ويقول اليعقوبي إن دير النصارى القائم قبل بناء سامرّاء كان بالموضع الذي صارت فيه دار السلطان المعروفة بالدار العامة وصار الدير بيت المال[٢]، لم تكن الأعمال في دار العامة منحصرة بالخلفاء، وإنما امتدت إلى أعمال الوزراء، ففي هذه الدار جلس أحمد بن أبي دؤاد واستدعى الأفشين لاستجوابه[٣]، وفيها قابل محمد بن عبد الملك الزيات أهل طرسوس عندما قدموا لبحث مبادلة الأسرى مع الروم[٤].

وفي دار العامة نزل يحيى بن أكثم في أيام المتوكل لمّا ولّاه قضاء القضاة[٥]، ولعله كان يمارس في هذه الدار أعماله الرسمية.

ويذكر الطبري أنه في سنة ٢٧٠ «أسقطت مرتبة من كانت له مرتبة في دار العامة من بني أمية كابن أبي الشوارب والعثمانيين»[٦]، وهذا يدل على أن دار العامة كانت مركز الإدارة وكانت تجري فيها التشريفات والمقابلات، ولعله تُحفَظ سجلات لذلك.

والراجح أن دار العامة هي دار الخلافة نفسها التي أشار إليها الطبري في موضعين وذكر عن عقدها أنه «عقد محمد بن عبد الملك الزيات لإسحاق بن إبراهيم بن أبي خميصة مولى بني قشير من أهل أضاخ، فيها على اليمامة والبحرين وطريق مكة، مما يلي البصرة في دار الخلافة، ولم يذكر أن أحداً عقد لأحد في دار الخلافة غير محمد بن عبد الملك الزيات[٧]، وذكر أيضاً أنه

---

(١) الطبري ٣/ ١٨٢٠.
(٢) البلدان ٢٥٥.
(٣) الطبري ٣/ ١٣١٠.
(٤) المصدر نفسه ٣/ ١٤٥٣.
(٥) البلدان لليعقوبي ٢٦٢.
(٦) الطبري ٣/ ١٥٣٠.
(٧) المصدر نفسه ٣/ ١٣٥٠.

لما وَلِيَ المتوكل كان إيتاخ على رتبته جعل إليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة[1].

وذكر الطبري أيضاً ديوان العامة وأنه أسند توقيعه إلى عبد الله بن يحيى[2]، ومما يؤيد ذلك قول اليعقوبي الذي ذكرناه أعلاه.

كان في دار العامة بيت المال الذي نقبه اللصوص في سنة ٢٣١، وهو «في جوف القصر» وأخذوا اثنين وأربعين ألف درهم وشيئاً من الدنانير[3]، وهو مبلغ غير كبير قد يدل على أنه لم يكن بيت المال الرئيسي.

وذكر اليعقوبي أن ديوان الخراج الأعظم كان يقع في الشارع الكبير[4]، وكذلك خزائن العامة والخاصة[5].

وذكر اليعقوبي أن دار العامة تقع عندها دار هارون بن المعتصم وهو الواثق، وهي في الشارع الأعظم الذي فيه القطائع وفيه ديوان الخراج الأعظم[6].

تردَّد في الأخبار ذكر «باب العامة» الذي تدل تسميته على صلته بدار العامة، ولعل إفراده في الأخبار عن هذه الدار يرجع إلى أنه الباب الوحيد لها، وأن أهميته هي سبب شهرته، وأنه سُمِّيَ بذلك اختصاراً. وعند باب العامة صُلِبَ الأفشين «ليراه الناس»[7]، وصُلِبَ أيضاً يحيى بن عمر[8]، وصالح بن وصيف[9]، وضُرِبَ كاتب منكجور[10]، وضربت أعناق أربعةَ عشرَ رجلاً من

---

(١) الطبري ٣/ ١٤٨٢.
(٢) م. ن ٣/ ١٤٤٦.
(٣) م. ن ٣/ ١٣٥٠.
(٤) البلدان ٢٦١.
(٥) م. ن ٢٧٣.
(٦) م. ن ٢٦١.
(٧) الطبري ٣/١٣١٨: تجارب الأمم لمسكويه ٥٢٥ (طبعة نحوية).
(٨) م. ن ٣/ ١٥٣٢.
(٩) م. ن ٣/ ١٨١١.
(١٠) م. ن ٣/ ١٨٧٤.

ثوار الزَّنج[1]، وطُرِح كل من أحمد بن إسرائيل وأبو نوح عيسى بن إبراهيم[2]، ونصب رأس المستعين بباب العامة[3]، وكل هذا يدل على أنه كانت أمام باب العامة ساحة واسعة.

وردت في المصادر معلومات توضح باب العامة والمعالم العمرانية القريبة منه، فذكر اليعقوبي أن الشارع الأعظم «وفيه قطائع عامة إلى دار هارون بن المعتصم، وهو الواثق، عند دار العامة.. ثم الخزائن، وخزائن الخاصة والعامة[4]. وذكر الطبري أن واجن الأشروسني وافى «باب العامة من طريق الشارع على بيت المال»[5]. وذَكَر أيضاً أن المهتدي خرج من الدار من باب المصاف، حتى خرج من الباب المعروف بإيتاخ، ثم إلى سويقة مسرور ثم درب الواثق حتى خرج إلى باب العامّة ثم صار إلى باب السجن[6].

ويبدو أن باب العامة كان في الوجهة الجنوبية من القصر ويواجه المطيرة، فلما جيء بابك إلى سامرّاء اصطف الناس من باب العامة إلى المطيرة[7].

الهاروني : قصر الواثق

أقام الواثق عند تولّيه الخلافة في أحد قصور المعتصم ثم بنى له على شط دجلة قصراً يقال له الهاروني[8]، تَسَمَّى القصر به، إذ إن اسمه هارون الواثق بالله وهو على دجلة بينه وبين سامرّاء ميل، وبإزائه بالجانب الغربي المعشوق،[9] وفوق هذا القصر كان قصر الجص الذي بناه المعتصم[10].

(1) الطبري ٣/ ١٨٦٠.
(2) م.ن ٣/ ١٧٢٣.
(3) م.ن ٣/ ١٥٢٢.
(4) البلدان ٢٦٢.
(5) الطبري ٣/ ١٥٠٣.
(6) م.ن ٣/ ١٨٢١.
(7) م.ن ٣/ ١٢٣٠.
(8) مروج الذهب ٤/ ٤٠.
(9) البلدان ٤/ ٩٤٦.
(10) المصدر نفسه ٤/ ١١٦.

أشرف على بناء الهاروني إبراهيم بن رباح[1] الملقب بـ (الجوهري) وكان على الضياع[2]، ويبدو أنه كان يجني من عمله أرباحاً فلما غضب الواثق على كُتَّابه وصادرهم كان منهم ابراهيم بن رباح، فأخذ الواثق منه ومن كتابه مائة ألف دينار[3]، ولابدّ أنه القصر الذي ذكر اليعقوبي في كلامه عن شارع السريجة الأعظم أنه يمتد إلى دار هارون بن المعتصم وهو الواثق، عند دار العامة[4]. وكان في الهاروني في بنائه الأول رواق أوسط وفي أحد شقّيْ ذلك الرواق قبة مرتفعة في السماء بيضاء، وكأنها بيضة إلا قَدْرَ ذراع، فيما ترى العين، حولها في وسطها ساج منقوش مغشّى باللازورد والذهب، وكانت تسمّى قبة المنطقة، وكان ذلك الرواق يسمى رواق قبة المنطقة[5].

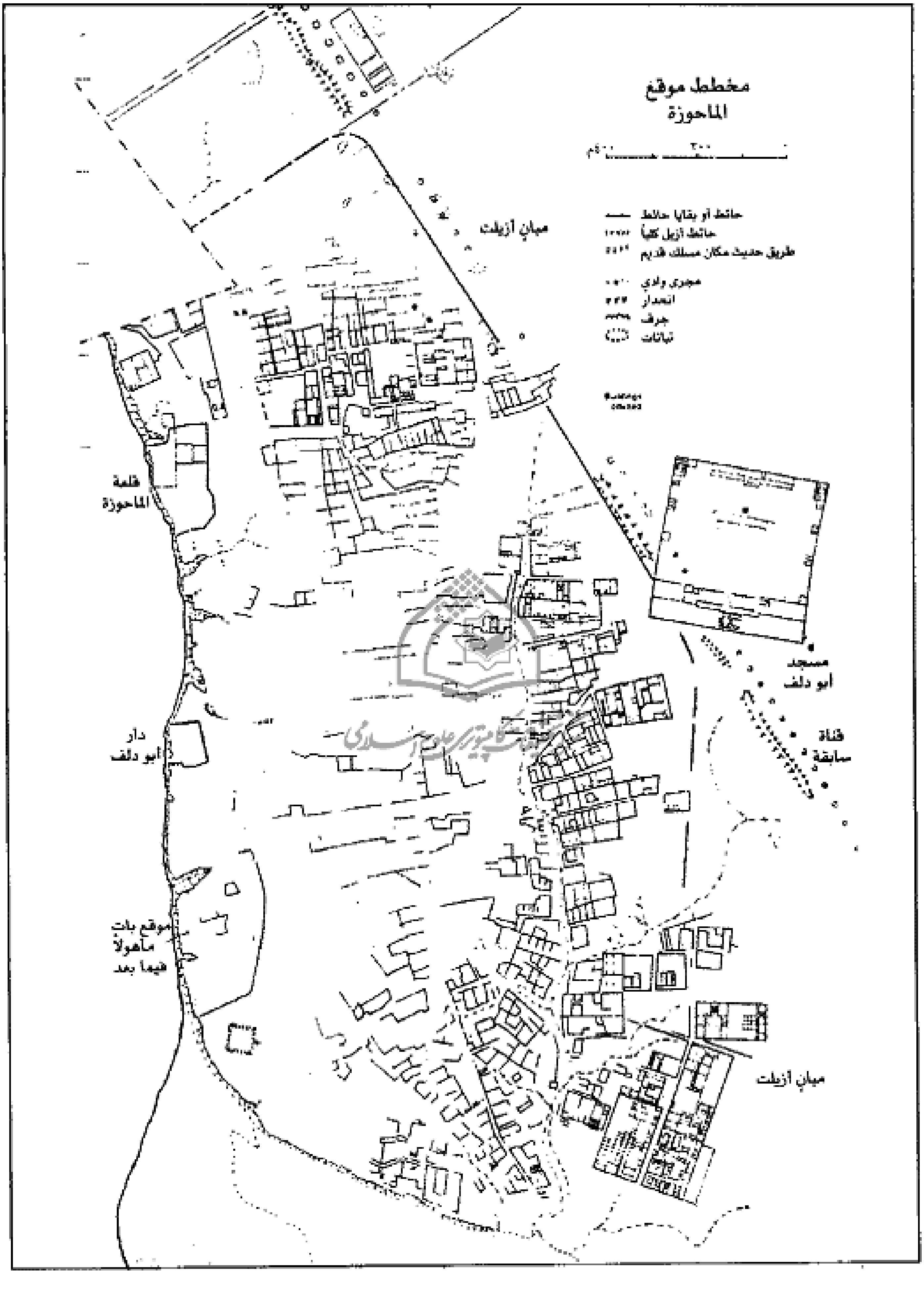
وفي بنائه جعل له دكَّتَيْن: دكة غربية ودكة شرقية، وهي من أحسن القصور، وكان على دجلة[6]، ويتردد في مصادر ذكر الهاروني دون تحديد بقصره أو الراجح أن أكثرها عن القصر الأول[7].

ذكر المسعودي أن المتوكل يقال إنه أنفق على الهاروني والجوسق الجعفري أكثر من مائة ألف ألف[8]. فإن صح هذا الخبر فإنه يدل على أن المتوكل جدَّد بناءه، أو أضاف إليه.

لم تذكر المصادر أن الواثق بنى غير هذا القصر الذي يبدو أنه جعل فيه مقامه، وقد دفن فيه[9] وأقام فيه المتوكل أول ما وُلِّيَ الخلافة.

---

(١) الطبري ٣/ ١٣٣١.
(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٤٤٠.
(٣) البلدان ٢٦١.
(٤) الطبري ٣/ ١٣٣٢.
(٥) تاريخ اليعقوبي٣/ ٢٠٨، البلدان ٢٦٤.
(٦) مروج الذهب ٤/ ٤٠.
(٧) فتوح البلدان ٢٩٦، معجم البلدان ٣/ ١٧.
(٨) معجم البلدان ١٧، فتوح.
(٩) الطبري ٣/ ١٣٣١.



مخطط الماحوزة

وانتقل إليه من البرج ورجَّحه على سائر قصوره بنى به البنية كثيرة[1]. ولما قَبَض المتوكل على محمد بن عبد الملك الزيات قبض ما في منزله من متاع ودواب وجوار وغلمان، فصيَّر ذلك كله في الهاروني.

وكان الهاروني مسرحاً لبعض حوادث الاضطراب في سامرَّاء[2]، فقد اجتمع فيه الموالي بعد مقتل المتوكل[3].

فلما حدث الشغب على المستعين خرج «من باب العامة منصرفاً إلى الهاروني، فبات هناك، ومضى الأشروسنية إلى الهاروني[4]».

وفي الاضطراب الذي رافق هذه الأحداث بلغ ذلك الأتراك في الهاروني والدور فوثبوا على اصطبل السلطان فأخذوا ما كان فيه من الدواب وانتهبوها، وحضروا الجوسق بالسلاح[5].

ويقول ابن الجوزي إن المتوكل عندما بنى الجامع حملت القفة والحجارة التي في العوارة من باب الحجرة في الهاروني على عجل ومر بها الفِيَلة التي كانت للمتوكل[6]. وفي الطبري إشارة الى أهمية النشاط في منطقة الهاروني حيث ذكر أن الفتح بن خاقان كان يتولى للمتوكل أعمالاً،[7] منها أخبار الخاصة والعامة بسامرَّاء والهاروني وما يليهما[8].

---

(١) الطبري ٣/ ١٥٠٣.
(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٥٠١.
(٣) تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٠٨، البلدان ٢٦٤.
(٤) الطبري ٣/ ١٥٣١.
(٥) المصدر نفسه ٣/ ١٣٦٤؛ تاريخ بغداد للخطيب ١٤/ ٢.
(٦) المعتصم حوادث سنة ٢٣٧.
(٧) الطبري ٣/ ١٤٠١.
(٨) تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢١٨.

الفصل الثامن
قصور المتوكل ومنشآته

كان المتوكل أكثر الخلفاء العباسيين كلفاً بالعمارة وبناء القصور؛ فأما العمارة فإنه أدخل أو عمَّم طراز البناء المعروف بـ«الحيري ذي الكمين»؛ وأوسع الإشارات العديدة في المصادر ما ذكره المسعودي في كتاب مروج الذهب إذ كان «أحدث المتوكل في أيامه بناءً لم يكن الناس يعرفونه، وهو المعروف بالحيري والكمين والأروقة».

«إن بعض ملوك الحيرة من النعمانية من بني نصر أحدث بنياناً من دار قراره، وهي الحيرة، على صورة الحرب وهيئتها للهجه بها وميله نحوها؛ فكان الرواق فيه مجلس الملك وهو الصدر، والكمان ميمنة وميسرة، من يقرب منه من خواصه، وفي اليمين منهما خزانة الكسوة، وفي الشمال ما احتيج إليه من الشراب، والرواق قد عم فضاؤه الصدر، والكمين والأبواب الثلاثة على الرواق، فسُمِّي هذا البنيان إلى هذا الوقت بالحيري والكمين، إضافة إلى الحيرة، واتبع الناس المتوكل في ذلك ائتماماً بفعله، واشتهر إلى هذه الغاية[1]». ولا نعلم مدى استعماله في أبنيته وقصوره، وإنما نقتصر بالإشارة إلى أن هذا الطراز هو من تفاصيل عمارة القصور، وليس في طراز قصور.

---

(١) مروج الذهب ٤/٤-٥؛ وانظر: اليعقوبي «مشاكلة الناس زمانهم» وذكر المسعودي أن المتوكل عمم لباس الملحمة وقال «إن الناس تابعوه في ذلك، ومنها نوع فاخر يسمى «المتوكلية» هي نهاية في الحسن والصبغ وجودة الصنعة»، مروج الذهب ٤/٣.

ذكر اليعقوبي في النص الذي كتبه عن سامرّاء بعض المنشآت العمرانية للمتوكل من الشارع والقصور والجامع والمنارة والحير؛ ولم يذكر من القصور غير المحمدية والمتوكلية.

ووردت إشارات عن بعض هذه القصور والمنشآت في قصائد بعض الشعراء وكتابات الأدباء وذكرت بعض الكتب أسماء هذه القصور أو أكثرها، ومن أبرزهم اليعقوبي في كتابه «التاريخ» والشابشتي في كتابه «الديارات» والغزولي في كتابه «مطالع البدور».

وذكر كل من ابن الفقيه في كتابه البلدان (١٤٧-١٤٤) مخطوطة مشهد وياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» أسماء هذه القصور وكلفة كل منها، وذكر الشابشتي وابن الفقيه كلفتها الإجمالية وأُجريت تنقيبات واسعة كشفت عما بقي من معالم الجوسق الخاقاني ودار العامة وقصر بلكوارا والمتوكلية؛ كما كشفت التنقيبات عن قصور ومعالم عمرانية لم تحدد أسماؤها.

ندرج أدناه قائمة بأسماء ما ذكرته المصادر من هذه القصور وكلفتها ونرمز لهذه المصادر ف: البلدان لابن الفقيه ١٤٣-١٤٤ (مخطوطة مشهد)، ق: معجم البلدان لياقوت الحموي ٣/١٧-١٨، ش: الديارات للشابشتي ١٥٩، غ: مطالع البدور للغزولي ٢/١٧٧، ي: التاريخ لليعقوبي ٣/١٥.

ورتبنا القائمة تبعاً لكلفة بناء كل قصر، مقدرة بالدراهم، عدا القليل المقدر بالدينار. وهي تعطي فكرة تقريبية عن ضخامته.

وذكرنا في سجل خاص ما ورد عنها من إشارات إضافية في المصادر الأخرى؛ علماً بأن كلاً من هرزفيل وأحمد عبد الباقي ذكر معاني كثير من الإشارات إليها.

القصر بالمتوكلية	٥٠,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	ش غ	الماحوزة ٢,٠٠٠,٠٠٠ المنتظم حوادث سنة ٢٣٧ عن الجعفري قال أبو العيناء: أنت بنيت في دارك. مروج الذهب ٤/١٤٧
اللؤلؤة	٥٠,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	ش	
العروس	٣٠,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	ش	الشاة ٢٠,٠٠٠,٠٠٠ العروس ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ ياقوت ٣/٣٤٦. ذكر الأصفهاني الأغاني ٩/٣٣
البهو	٢٥,٠٠٠,٠٠٠ ف ق		
بركوارا	٢٠,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	ش غ	الإيوان فيه ١٠٠×٥٠ ذراع الذخائر والتحف ١١٨
المسناة	٢٠,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	ش	
المليح	٢٠,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	ش غ	
الشاة	٢٠,٠٠٠,٠٠٠ ق		
المسجد الجامع	١٥,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	ش	لم يرد ذكر لطفة الملوية التي ذكر الثعالبي أن أساسها جريب من الأرض وطولها حانة ذراع لطائف المعارف ١٦١
البرج	١٠,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	ش ي	الشابشتي ١٦٠ تاريخ اليعقوبي ٣/٦٠، ابن الجوزي ٥٥
الجعفري المحدث	١٠,٠٠٠,٠٠٠ ف ق		ذكره الطبري ٣/ ١٤٨٦
السندان	١٠,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	ش	اليعقوبي الشيداء ٣/٢١٥؛ اعطيت
الفرد في دجلة	١٠,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	ش ي	
الغريب	١٠,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	غ	
المختار	٥,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	ش غ	
الصبح	٥,٠٠٠,٠٠٠ ف ق		
المليح	٥,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	ش	
القصر في الإيتاخية	٥,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	ش	
تحمل علوه وسفله	٥,٠٠٠,٠٠٠ ف ق		
اللؤلؤة	٥,٠٠٠,٠٠٠ ف ق		لؤلؤة الجوسق في ارتفاعه الطبري ٣/١٨٣٧ بنى الواثق مروج الذهب ٤/٤٧٧. نقضه المستعين ياقوت ٢/٣٧٥

الحير	٤,٠٠٠,٠٠٠		
الوحيد	٢,٠٠٠,٠٠٠ ف ق		فرشه الواثق ياقوت ٤/٤١ هدمه المتوكل الطبري ٣/١٢٣٨
الجوسق الإبراهيمي	٢,٠٠٠,٠٠٠ ف	ش	صرف على الهاروني في الجوسق الجعفري أكثر من مائة ألف. مروج الذهب ٤/٤٠
الفرد	١,٠٠٠,٠٠٠ ف ق	ش	على دجلة الطبري ٣/١٣٨٤
الجوسق في ميدان العجز	٥٠٠,٠٠٠ ف ق	غ	
القلايد	٥٥,٠٠٠ دينار ف ق	ش	
البديع		غ	
المسناة		ف ش	

المجموع الكلي للكلفة

ش ١٧٠,٠٠٠,٠٠٠ درهم: ١٠٥,٠٠٠ دينار

ف ١٣٠,٥٢٥,٠٠٠

ق ٢٩٤,٠٠٠,٠٠٠

س ١,٧٠٠,٠٠٠

غ ٢٧٤,٠٠٠,٠٠٠: ١٣,٥٢٥,٠٠٠

الذخائر والتحف ٢,١٠٠,٠٠٠

للرشيدة ٢١٨

الجعفرية:

لا ريب في أن أوسع منشآت المتوكل في سامرّاء هو بناؤه وسكنه الجعفرية.

خص الطبري بناء الجعفرية ببضعة أسطر ذكر أنها بُنِيَتْ بها الماحوزة وسمّاها الجعفري[1]. وقال إن المتوكل أقطع القواد وأصحابه فيها، وجدَّ في بنائها، وأقام في المحمدية ليشرف على إتمام بنائها. وأمر بنقض قصرَيِ

(١) الطبري ٣/١٤٣٨.

المختار والبديع وحمل ساجهما إلى الجعفري، وأنه أنفق عليها فيما قيل أكثر من ألفي ألف دينار، وهي تعادل خمسين ألف ألف درهم، وكان يسميها المتوكلية، وأنه بنى فيها قصراً سمّاه لؤلؤة، لم ير مثله في علوّه وأمر بحفر نهر يأخذ رأسه خمسة فراسخ فوق الماحوزة، وقد ذكرنا هذا النهر عند كلامنا عن الماء.

تفرّد الطبري بنصه القصير بذكر إقامته في المحمدية، ونقضه المختار والبديع، وبنائه لؤلؤة، وذكره مأخذ النهر من كرمى، وأخذِه منازل وأراضي أهل جبلتا والخصاصتين وكرمى وإخراج أهلها منها. ولم يذكر مصائر أهل هذه القرى الذين لا بدّ أنهم استاؤوا، ولا ذكر من صار يعمل في أراضيهم بعد إخراجهم.

وذكر اليعقوبي في كتابه التاريخ[1] أن المتوكل انتقل إلى موضع يقال له الماحوزة، على ثلاثة فراسخ من قصر سرّ من رأى وبنى هناك مدينة سمّاها الجعفرية، وحفر فيها نهراً من القاطول، فنقل الكتّاب والدواوين والناس كافة إليها، وبنى فيها قصراً لم يسمع بمثله، وأنه لما قتل دفن في قصره بالجعفري الذي كان سماه الماحوزة. ثم ذكر أن المستعين لما انصرف من الجعفري إلى سرّ من رأى، أمر بتخريب تلك القصور فنقل الناس عنها، وعطلت تلك المدينة فصارت خراباً، ورجع الناس إلى منازلهم بسرعة[2].

قدم اليعقوبي وصفاً واسعاً للجعفرية فقال: وعزم المتوكل أن يبني مدينة ينتقل إليها وتُنسب إليه ويكون له بها الذكر فأمر محمد بن موسى المنجم ومن يحضر ببابه من المهندسين أن يختاروا موضعاً، فوقع اختيارهم على موقع يقال له الماحوزة، وقيل له إن المعتصم قد كان على أن يبني ها هنا ويحفر نهراً قد كان في الدهر القديم، فاعتزم على ذلك، وابتدأ النظر فيه سنة ٢٤٥، وجدَّ في حفر ذلك النهر ليكون في وسط المدينة، فقدَّر النفقة علي ذلك النهر بألف ألف دينار، فطاب نفساً في ذلك ورضي به، وابتدأ الحفر وأنفقت الأموال الجليلة على ذلك النهر.

(١) تاريخ اليعقوبي ٣/٣١٦-٧١٧.
(٢) التنبيه والإشراف ٣١٣.

واختط موضع قصره ومنزله، وأقطع ولاة عهوده وسائر أولاده وقواده وكتابه وجنده والناس كافة، ومد الشارع الأعظم من دار أشناس التي بالكرخ والتي صارت للفتح بن خاقان مقدار ثلاثة فراسخ إلى قصوره، وجعل دون قصوره ثلاثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه. وأقطع الناس يَمْنَة الشارع الأعظم ويَسْرته، وجعل عرض الشارع الأعظم مائتي ذراع، وقدر أن يحفر في جانبي الشارع نهرين يجري فيهما الماء من النهر الذي يحفره.

وبُنِيَتِ القصور وشيدت القصور، وارتفع البناء، وكان يدور بنفسه، ومن رآه قد جد في البناء أجاره وأعطاه. فجدّ الناس. وسمَّى المتوكل هذه المدينة الجعفرية، واتصل البناء من الجعفرية إلى الموضع المعروف بالدور. ثم بالكرخ وسُرَّ مَن رأى مادًّا إلى الموضع الذي كان ينزله ابنه أبو عبد الله المعتز ليس بين شيء من ذلك فضاء ولا فرج ولا موضع لا عمارة فيه، فيكون مقدار ذلك سبعة فراسخ. وارتفع البنيان في مقدار سنة، وجعلت الأسواق في موضع معتزل، وجعل في كل مربعة وناحية سوقاً. وبنى المسجد الجامع.

وانتقل المتوكل إلى قصور هذه المدينة أول يوم من المحرم سنة ٢٤٧، فلما جلس أجاز الناس بالجوائز ووصلهم، وأعطى جميع القواد والكتّاب ومن تولّى عملاً من الأعمال. وتكامل له السرور وقال الآن علمت أني ملك، إذْ بنيت لنفسي مدينةً سكنتُها. ونقلت الدواوين: ديوان الخراج وديوان الضياع وديوان الجند والشاكرية وديوان الموالي والغلمان وديوان البريد وجميع الدواوين. إلا أن النهر لم يتم أمره، ولم يجر الماء فيه إلا جرياً خفيفاً ثم لم يكن له اتصال ولا استقامة على أنه قد أنفق عليه شبيهاً بألف ألف دينار، ولكن كان حفره صعباً جداً إنما كانوا يحفرون حصى وأفهاراً لا يعمل فيها المعاول. وأقام المتوكل نازلاً في قصوره بالجعفرية تسعة أشهر وثلاثة أيام، وقتل لثلاث خلون من شوال ٢٤٧ في قصره الجعفري أعظم القصور.

ووُلّيَ محمد المنتصر بن المتوكل فانتقل إلى سرّ من رأى وأمر الناس جميعاً بالانتقال عن الماحوزة وأن يهدموا المنازل ويحملوا نقض المنازل إلى سرّ من رأى، فانتقل الناس، وحملوا نقض المنازل لسرّ من رأى، وخربت قصور

الجعفري ومنازله ومساكنه وأسواقه في أسرع مدة، وصار الموضع موحشاً لا أنيس به ولا ساكن فيه، والديار بلاقع كأنها لم تعمّر ولم تسكن[١].

قصور المعتمد : المعشوق والأحمدي

يقول اليعقوبي إن المعتمد عندما بويع بالخلافة أقام بسرّ من رأى، بنى قصراً موصوفاً بالحُسْن سماه المعشوق، فنزله فأقام به حتى اضطربت الأحوال فانتقل إلى بغداد ثم المدائن من العراق[٢].

وقال ياقوت: المعشوق اسم لقصر عظيم بالجانب الغربي من دجلة قبالة سامرّاء في وسط البرية باقٍ إلى الآن، ليس حوله شيء من العمران، يسكنه قوم من الفلاحين، إلا أنه محكم عظيم لم يبين في تلك البقاع على كثرة ما كان هناك من القصور غيره، بينه وبين تكريت مرحلة[٣].

وذكر الفيروزابادي أن المعشوق قصر بسرّ من رأى[٤]، وذكر الصابي أن محمد بن عبد الله بن خاقان تقلد نفقات بنائه[٥].

وفي سنة ٣٥٠ هدم معز الدولة المعشوق بسرّ من رأى، وحمل آجُرَّه لبناء قصره بالشماسية، إلا أن الهدم لم يكن تاماً، فقد بقيت أطلال القصر حتى هذا اليوم[٦].

ذكر ياقوت أن قصر المعشوق في غرب سامرّاء قرية بينها وبين تكريت مرحلة[٧]، وذكر ياقوت أن الأحمدي قصر كان في سامرّاء لابن العباس أحمد

---

(١) البلدان ٢٦٦، وانظر الروض المعطار ١٧٧.

(٢) البلدان لليعقوبي ٢٦٨، الروض المعطار ١٨٢. وذكر المسعودي أن المهتدي بنى قبة لها أربعة أبواب «قبة المظالم» وجلس فيها العام والخاص للمظالم «مروج الذهب».

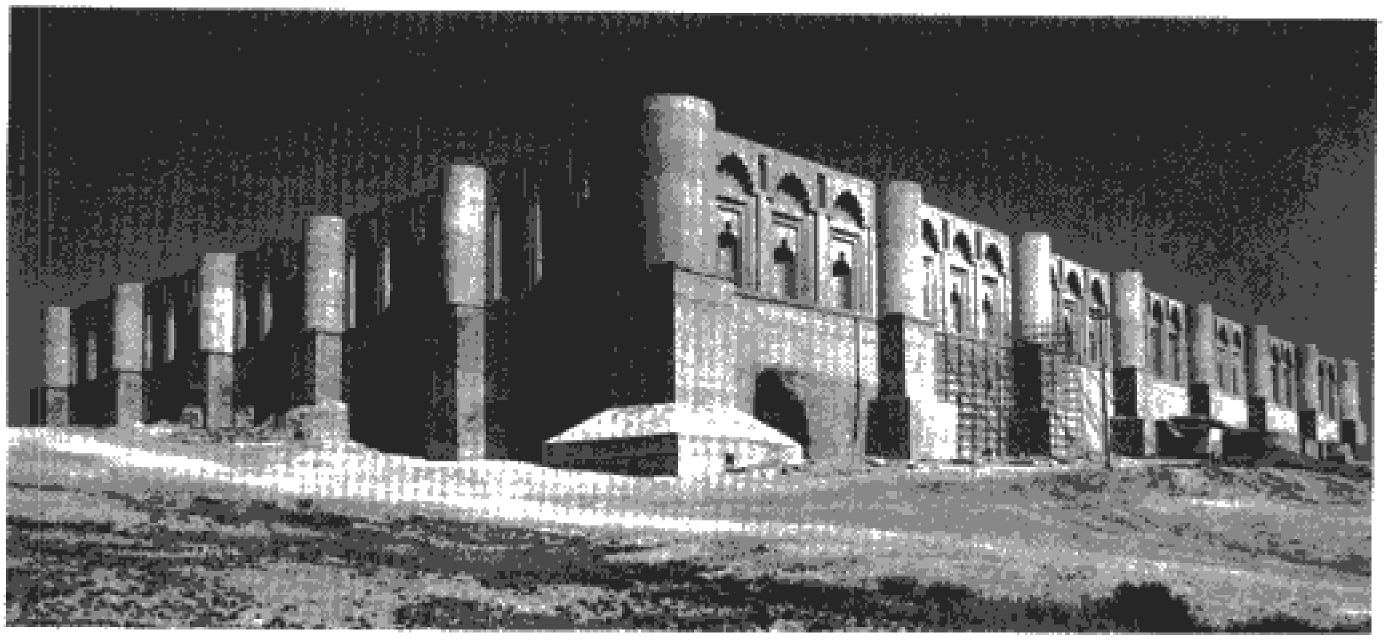
(٣) معجم البلدان ٤/٥٧٦.

(٤) القاموس المحيط ٣/٢٥٦.

(٥) تحفة الوزراء ٢٨٤.

(٦) المنتظم ٧/٢.

(٧) معجم البلدان ٢/٣٣٣.





قصر العاشق

ابن المعتمد على الله ابن المتوكل فَسُمِّيَ به، وأنه قد خرب وذكره ابن المعتز في شعره. والأحمدي إليه منتسب من قبل والمعشوق عشقه[1].

إن قصور الخلفاء، التي عرضنا أعلاه المعلومات التي استطعنا جمعها عنها من المصادر الأدبية، يمكن أن تضاف إليها قصور عدد كبير من الأفراد ذوي المكانة والثروة، تميزت بأنها بُنِيَتْ في السنوات القليلة الأولى من عصر الخلافة العباسية في سامرَّاء، ولم يستمر استخدامها أو نموّها، وإنما أُخْلِيَ كثير منها بعد عودة الخلفاء إلى بغداد وما تبعها من انتقال المتصلين بهم، فقلّ السكان وأخليت القصور واتسع الخراب.

وكانت هذه القصور في أيام عز ازدهارها منتشرة في رقعة واسعة من الأرض بصورة غير منتظمة أو منسقة؛ ثم اندثرت فلم يبقَ منها إلا أطلال قصور ضخمة قليلة هي القصر الخاقاني وملحقاته بلكوارا، والمسجد الجامع، ومنارته الشاهقة، ومنارة جامع أبي دلف في مكان المتوكلية والعاشق، والقبة الصليبية في الجانب الشرقي؛ وتشير المصادر الأدبية إلى فخامة بعضها فيروي التنوخي أن أحمد بن الخطيب في أيام الواثق استعمل في سقف داره سبعين قارية ساج، والقارية ساجة عظيمة تستعمل صحيحة[2]، ووصف التنوخي في أحد كتبه حبس المعتصم[3].

غير أن هذه الأوصاف القليلة لا تكفي لتقديم صورة واضحة لعَظَمَة هذه القصور، ووصف أثاثها، وما يضمه كلٌ منها من العاملين فيها والحشم والجواري، ووصف البحتري في قصيدة بركة المتوكل، وذكر التنوخي أنه كانت عليها قبة منصوبة على بركة يجري فيها الماء، فأمر (المتوكل) أن يجمل في

---

(١) معجم البلدان ٤/٥٧٦.
(٢) نشوار المحاضرة ٨/٤٩.
(٣) الفرج بعد الشدة ٢/١٧٦.

مجاري الماء إليها الزعفران على قدر ليحفر ويجري في البركة[1]. وذكر الفيروزابادي بركة في جوسق دار الخلافة للمقتدر[2]، غير بركة المتوكل، علماً بأن المصادر لم تذكر جوسقاً في دار الخلافة ببغداد.

وتجدر الإشارة إلى أن الخلفاء العباسيين في سامرّاء لم يُعْنُوا بتشييد مدافن فخمة لهم؛ وذكرت المصادر أماكن دفن الخلفاء في سامرّاء، فالمعتصم دفن في الجوسق حيث توفي في قصره المعروف بالخاقاني[3]، والمتوكل دفن في قصره بالجعفرية[4]، ولكن لم تقم على مدافنهم مشيدات. ويذكر المسعودي أن المنتصر أول خلفاء بني العباس أظهر قبره ولكن لم يذكر مكان هذا القبر أو مظاهر إظهاره. ويذكر المسعودي أن المعتز دفن في داره ١٨، أما الطبري فيقول إن المعتز دفن مع المنتصر في ناحية قصر الصوامع. جرت حفريات غير قليلة في أطلال سامرّاء أبرزها ما قامت به البعثة الألمانية قبل الحرب العالمية الأولى، ونشرت ثمار أبحاثها في مجلدات ضخمة عرضت فيه ما وجدته في الأنقاض من زخارف، وبقايا أسس عدد من الأبنية التي أجريت فيها الحفريات، وتلت ذلك حفريات قامت بها مديرية الآثار العامة، وفحوص مُعزَّز بعضها بالصور الجوية لبعض هذه المعالم، قام نورثج بدراسة بعضها.

وأبرز ما تتميز به هذه اللُّقَى هو الزخارف الحصية الملونة، ولعل كثيراً من البيوت العامة كانت مزخرفة ومبنية بالجص، ومسقفة بالأخشاب؛ وقد انتزع أكثرها بعد أن انتقل الخلفاء من سامرّاء. غير أن النمو السريع لسامرّاء يَسَّر لرواج عمل عمال البناء والمزوّقين والنجارين ما يتصل بأعمال البناء.

---

(١) نشوار المحاضرة ١/٣٠١.

(٢) القاموس المحيط. مادة جوسق.

(٣) تاريخ اليعقوبي ٣/٢٠، مروج الذهب ٣/٤٧٤-٤٩٩.

(٤) المصدر نفسه ٨/٧١٥.

الفصل التاسع
العباسيون والعلويون

الأسرة العباسية

لما عاد المأمون إلى بغداد سنة ٢٠٤ اتّبع سياسة التسامح، فلم يحاسب أحداً على تأييده الأمين أو التمرد على خلافته؛ وحاول جلب رضى الأسرة العباسية وأنصارها، وكانت تقيم في بغداد، ولم ينتقل منهم أحد إلى خراسان مع المأمون.

غير أن الحرب بين الأمين والمأمون وما تلاها من أحداث أضعفت هيبة السلطة العليا في النفوس، وشجَّعت روح التمرد عند ذوي الطموح، وبخاصة من أبناء الأسرة العباسية، وكان من أبرز الحركات التي واجهها المأمون حركة ابن عائشة، ونشاط إبراهيم بن المهدي.

فأما ابن عائشة فهو إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام، وكان يدعو إلى إبراهيم بن المهدي، وجمع حوله جماعة منهم محمد بن إبراهيم الأفريقي، ومالك بن شاهي وعدد من القواد والشطار ودسوا من أحرق بعض الأسواق، ولكن المأمون بتأييد المعتصم وبعض من معه من القادة ومنهم الأفشين وأشناس، قضوا على الحركة وزجوا كثيراً من أنصارها في السجون، وأعدم منهم ابن عائشة والأفريقي[1].

(١) بغداد لطيفور ٦٩، ٩٩.

أما إبراهيم بن المهدي فكان قد نودي به خليفة عندما كان المأمون في خراسان، ولكن لم تدم خلافته، فلما قدم المأمون بغداد استتر إلى سنة ٢١٦، فقبض عليه المأمون ثم عفا عنه، وقرَّبه، وكان يطرب لغنائه[١]. ويبدو أنه لم يكف عن طموحاته، فكان ممن طلب المأمون في كتابه لعبد الله بن طاهر في المحنة، محاسبتهم لأنهم ممن أغرى الجمهور الأعظم والسواد الأكبر[٢].

يقول ابن الداية إن المعتصم عندما انتقل إلى سامرَّاء لم يخرج معه من أهل بيته إلا العباس بن المأمون، وعبد الوهاب بن علي[٣]. فأما العباس فكان أبرز أولاد المأمون، وقد أحدث استياءً لديه تفضيل المأمون المعتصم عليه بالخلافة، ولكنه احتفظ بولائه الظاهري للمعتصم، ولكن المعتصم قتله في طريق عودته من عمورية سنة ٢٢٣ مع عدد من القادة لاتهامه بمؤامرة ؛ وأما عبد الوهاب بن علي فكانت له ولأختيه قطيعتان في شارع السريجة الذي كانت فيه قطائع راشد ومبارك للمغربين وقطيعة لكلٍّ من جعفر الخياط وأبي الوزير، وقطائع لعامة الناس إلى دار هارون الواثق[٤].

إن خُطَط سامرَّاء تُظهر أن عدداً من بارزي الأسرة العباسية انتقلوا معه، فقد سمّي شارعان من الشوارع الخمسة الكبيرة التي خطها بأسماء رجال من الأسرة العباسية، وهما شارع أبي أحمد، وهو الشارع الثاني بعد السريجة، الشارع الأعظم، وشارع صالح العباسي وهو شارع الأسكر وكان الشارع الخامس. وكانت في شارع أبي أحمد قطائع قواد خراسان وأسبابهم من العرب ومن أهل قم وأصفهان وقزوين والجبال وأذربيجان يمنة في الجنوب مما يلي القبلة، فهو نافذ إلى شارع السريجة الأعظم، أما شارع صالح العباسي، وهو شارع الأسكر، ففيه قطائع الأتراك والفراغنة، ودار صالح على رأس الوادي، وتتصل بذلك قطائع القواد والكتاب وأبي أحمد الذي سُمّي الشارع الثاني باسمه هو،

---

(١) بغداد لطيفور ـ ١٠٠؛ وانظر إبراهيم بن المهدي لبدري محمد فهد.
(٢) الطبري ٣/
(٣) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ٣٦.
(٤) البلدان لليعقوبي ١٦٧.

ابن هارون الرشيد، وقد رافق المتوكل في ارتحاله إلى دمشق، وعمّر حتى أدرك خلافة المعتز[١]، وكانت له قطيعة في وسط الشارع المسمّى به والذي فيه ديوان الخراج[٢]. أما صالح العباسي فلم تحدد المصادر هويته، إذ ورد في المصادر ذكر صالح بن هارون الرشيد[٣]، وصالح بن العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس[٤] ولعله هو صاحب مصر[٥].

وكان ممن حضر احتفال المتوكل بقصر بلكوارا كلٌّ من المنتصر، وإبراهيم وأبو أحمد وأبو سليمان أبناء الرشيد، وأحمد والعباس ابنا المنتصر، والقاسم ابن الرشيد وعلي بن المعتصم[٦].

والجدير بالذكر أن الخلفاء العباسيين في سامرّاء أنجبوا عدداً من الأولاد، فكان للمعتصم تسعة أولاد، وُلِيَ منهم الواثق ثم المتوكل الخلافة، وكان للواثق ستة أولاد، وَلِيَ الخلافةَ من أولاده المهتدي؛ وكان للمتوكل عشرة أولاد وَلِيَ منهم الخلافة كلٌّ من المنتصر والمعتضد، ويذكر الثعالبي أن المتوكل كان له خمسون ولداً من الذكور وعشرون من الإناث، وكان للمنتصر ولدان وخمس بنات وللمهتدي ثمانية أولاد، وللمعتمد عشرة أولاد.

ذكرت المصادر قصوراً لكل أو بعض هؤلاء: فأحمد بن المعتصم سكن قصر الجص، والواثق بن المعتصم كان يسكن الهاروني قرب دار العامة قبل انتقاله إلى قصره الذي شيده على دجلة، وأسكن المتوكل ثلاثة من أولاده قصوراً. وذكر اليعقوبي أن المتوكل سلم عليه أولاد ستة خلفاؤهم منصور بن المهدي، والعباس بن الهادي، وأبو أحمد بن الرشيد، وعبد الله بن الأمين وموسى بن المأمون، وأحمد بن المعتصم وإخوته والواثق؛ ولعلَّ كثيراً منهم

---

(١) البلدان لابن الفقيه.
(٢) الأنساب لابن حزم ٢٢.
(٣) البلدان لليعقوبي ٢٦٢.
(٤) بغداد لطيفور ٧١، ١٧٩، ١٨٠.
(٥) الأنساب لابن حزم ٢٥.
(٦) الذخائر والتحف للرشيدي ١١٣.

كان يقيم في سامرّاء[1]، ولعل معظم إن لم يكن كل من هؤلاء الأولاد كان له مسكن خاص لم تذكر المصادر موقعه. وكانت لبعض هؤلاء الخلفاء زوجات من الأسرة العباسية، فقد تزوج الواثق إحدى بنات المأمون، وتزوج المتوكل ابنة المأمون وابنة العباس بن علي بن المهدي[2]. وكان بعض الخلفاء يجرون على زوجاتهم وأولادهم مبالغ ضخمة[3]، وذكرت علاقة بعض الخلفاء برجال من نسل الخلفاء العباسيين الأول فكان صالح بن علي بن يعقوب بن أبي جعفر صاحباً للمهتدي؛ وهبة الله بن إبراهيم المهدي ممن يجالس المعتمد والفضل ابن العباس أثيراً عند المعتز[4]، وذكر ابن حزم أن كلاً من هارون بن محمد (ت ٣٢٧) من أحفاد عيسى بن موسى، وسليمان بن علي الذي ألّف كتاباً عن نسب العباسيين[5].

ولما ذهب المتوكل إلى الشام صحبه بعض الهاشميين[6]؛ وكان المقدمون في زمن المهتدي الهاشميين والقضاة وأصحاب المراتب[7]. ووردت إشارات إلى ما كان يجري في سامرّاء للهاشميين، ويُقصَد بهم العباسيون، فقد أقطع المتوكل جماعة من الكتّاب والقواد، ودفع المعتصم لإبراهيم بن المهدي خمسين ألف دينار[8]، وذكر اليعقوبي أن المعتصم أقطع عند الحير جماعة منهم الهاشميون، وذكر الصابي أنه كانت لهم أرزاق قطعها محمد بن عبد الله بن طاهر تأولاً وكان الجاري لهم ثلاثين ديناراً في الشهر، وكان عددهم في زمن المستعين أربعة آلاف[9].

(١) التاريخ لليعقوبي ٣/٢٠٩.
(٢) جمهرة النسب لابن حزم ١٧٢.
(٣) نفقات الدولة العباسية للزهراني ١٧٢.
(٤) جمهرة النسب لابن حزم ٢٤.
(٥) المصدر نفسه ٣٣.
(٦) بغية الطلب لابن العديم ١٠/٤٦.
(٧) الطبري ٣/١٣٩٤.
(٨) البلدان لليعقوبي ٢٦٦.
(٩) الوزراء للصابي ٦٥.

العلويون

إن تعبير «الهاشميون» يشمل العباسيين والعلويين الذين كان لهم في توجهاتهم السياسية تياران متباينان، أحدهما الذي يتبناه المشايعون لزيد بن علي في موقفه المعتدل في الحكم على أبي بكر وعمر، ولكنهم يرون وجوب مقاومة السلطان الذي لا يرتضونه بالسلاح، وكانوا أقوى محرك للثورات العلوية على العباسيين. والتيار الثاني هو الذي يتبناه من سُمُّوا الاثني عشرية، وموقفهم متشدد في الحكم على أبي بكر وعمر، ولكنهم لا يؤيدون الثورات المسلحة[١]، فمعارضتهم فكرية سلمية. وأشارت المصادر إلى الموقف المعتدل تجاههم لكلٍّ من هارون الرشيد[٢]، والمأمون الذي استقبل وفداً منهم لدى عودته إلى بغداد وقال لهم تناسوا[٣]، وأعلن التبرؤ من ذكر معاوية وتفضيل علي، ونصح المعتصم بعد تسميته ولياً للعهد بأن يحسن إلى السيِّء من العلويين وبمتابعة دفع صلاتهم فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى[٤] وَرَدَّ إليهم فدك[٥].

لم يُذكر للمعتصم والواثق موقف متشدد من العلويين الذين لم يزجوا أنفسهم في قضية خلق القرآن، ويذكر الطبري أن عمر بن فرج كان يتولى أمرهم وكان يجري عليهم الرزق[٦]. فلما وَلِيَ المتوكل الخلافة شدد على العلويين، فهدم قبر الحسين وما حوله من المنازل والدور؛ فتفرقوا[٧]. ولما وُلِيَ المنتصر أظهر الميل إلى العلويين، وترك البحث عن أخبارهم، وأباح لهم زيارة قبر الحسين وأطلق أوقافهم[٨]. وأيد العلويون المستعين في نزاعه مع المعتز.

---

(١) الطبري ٣/ ٦٠٥.
(٢) بغداد لطيفور ١٥.
(٣) المصدر نفسه ٦٩.
(٤) الطبري ٣/ ١١٣٩.
(٥) فتوح البلدان ٤٢-٤٣؛ تاريخ اليعقوبي ٢/ ٤٦٩؛ معجم البلدان ٤/ ١٥٤.
(٦) الطبري ٣/ ١٥٢٦.
(٧) م.ن ٣/ ١٤٠٦.
(٨) م.ن ٣/ ١٥٦٣، ١٥٦٨؛ مروج الذهب ٤/ ٢٠٥١.

وكان للعلويين ولأولادهم عطاء جارٍ، أسوة بالعباسيين، وكانت عدتهم قريباً من ألفين، وعدتهم مع العباسيين أربعة آلاف[1] ولا تذكر المصادر كم منهم كان يقيم في سامرَّاء التي ضمت رُفات الهادي والحسن العسكري وهو الإمام الحادي عشر؛ وظل مدفنهما أبرز معالم سامرَّاء العمرانية.

(١) الوزراء للصابي ٢٥ وتجدر الملاحظة أن عدداً من الأمويين كانوا مقربين للعباسيين ذكر منهم ابن حزم في كتاب الأنساب الحسن بن محمد عم أبي الفرج الأصبهاني، وعبد الله بن أحمد ابن هيثم (الأنساب ١٠٧) ومن أبرز الأمويين ابن أبي الشوارب. وقد أفضنا الكلام عن هذه التيارات في بحث يجري نشره.

الفصل العاشر
أهل الدواوين والوجهاء

الدواوين والكتاب

اقتضى اتخاذ سامرَّاء مقرًّا دائماً للخلفاء أن تنتقل فيها المؤسسات الأمنية المتصلة بالخلافة بما فيها الحجابة والحراسة، والمؤسسات المتعلقة بإدارة الدولة وماليتها العامة وتشمل المكاتبات والجبايات والنفقات؛ وقد أشارت إلى ذلك المصادر، فيقول اليعقوبي إن المعتصم لما أراد الإقامة بالقاطول قبل بنائه سامرَّاء «أقطع القواد والكتاب والناس، فابتنوا حتى ارتفع البناء ولما شيد سامرَّاء اختط أماكن قصوره، ثم احتفظ القطائع للقواد والكتّاب والناس، وخط المسجد الجامع، وخط الأسواق»[1]. وذكر المسعودي أنه عندما شُيِّدت سامرَّاء نقلت إليها الدواوين والعمال وبيوت الأموال. إضافة إلى الدواوين المحلية المتعلقة بسامرَّاء[2]. ونصَّت بعض المصادر على الدواوين التي كانت في سامرَّاء ومواقعها، فذكر اليعقوبي في تاريخه «مال الخراج والضياع والبريد والمعاون»[3]، وذكر في كتاب البلدان خلال كلامه عن شارع السريجة وهو الشارع الأعظم «كانت القطائع تمر إلى ديوان الخراج الأعظم، وهو في هذا

---

(١) البلدان ٢٥٨.
(٢) التنبيه والإشراف ٣٢١.
(٣) تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢١٣.

الشارع الكبير، ثم مجلس الشرطة والسجن وذكر في كلامه عن شارع أبي أحمد قطيعة الكتّاب وسائر الناس، وقطيعة أحمد بن الرشيد في وسط الشارع؛ وكان شارع الأسكر، وهو الشارع الخامس يتصل بقطائع القواد الكتاب والوجوه[1]. وذكر الطبري ديوان الخراج الأعظم[2] وبيت المال[3] ولا ريب في أن جمع الكتاب وعدد من كبار المسؤولين، متقاربين في سكناهم قرب الدواوين ومجلس الشرطة والحبس، قرب المغاربة والخراسانية وبعض المغاربة، له أهمية في العمل.

ويذكر اليعقوبي أن أحمد بن المدبر كانت له سبعة دواوين: ديوان الخراج والضياع والنفقات الخاصة والعامة والصدقات والمواريث والضياع..[4] وكان لإيتاخ الجيش والمغاربة والأتراك والموالي والبريد والحجابة ودار الخلافة[5]. ولما انتقل المتوكل إلى المدينة التي أنشأها في الماحوزة سنة ٢٤٧ نقل إليها الدواوين: ديوان الخراج وديوان الضياع وديوان الزمام وديوان الجند والشاكرية، وديوان الموالي والغلمان، وديوان البريد، وجميع الدواوين[6]. والجملة الأخيرة توحي بدواوين أخرى نَقَلَها لم يُسَمِّها، وأفراد الضياع العامة والخاصة وذِكْر رؤسائها يدلّ على تزايد أهمية الضياع وتفرُّدها بأساليب خاصة بالنظر لمكانة أصحابها ونفوذهم، مما يتطلب أساليب خاصة في التعامل بها.

وللدواوين تقاليد في أساليب عملها تتطلب ثقافة وتدريباً خاصاً، وقد ألّف العرب عدداً من الكتب تبين ما ينبغي على الكاتب أن يتعلمه ويتقنه من معارف تمتد من حسن الخط وإتقان اللغة والعلم بالأسلوب إلى معرفة بالحساب والهندسة وأبواب الجباية. ولم تكن الكتابة في الدواوين حكْراً لجماعة معيَّنة، وإنما هي مفتوحة تدل على معلوماتنا عن أصول عدد من البارزين منهم على أن

(١) البلدان ٢٦٠.
(٢) الطبري ٣/ ١٨٢١.
(٣) المصدر نفسه ٣/ ١٥١٣.
(٤) تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢١٣.
(٥) البلدان ٢٦٧.
(٦) الطبري ٣/ ١٣٨١.

أكثرهم من الأنبار ومن عدد من البلدان العراقية الأخرى. غير أن رسالة الجاحظ في ذم أخلاق الكتّاب تُظهر ضيق نظرهم وغطرستهم وتعصُّبهم للثقافة الفارسية وتقديرهم لكتبها ومادتها، ولا بدّ أن هذه المشاعر تجعلهم أقرب إلى الفرس، إلا أنه لا توجد إشارة أو دليل على أنهم وثّقوا صلتهم بالعناصر الفارسية التي لم يكن لها صوت مسموع أو نشاط ثقافي خاص بهم في سامرّاء. وكان أكثرهم نصارى[١].

كانت الدولة تدفع للكتّاب رواتب شهرية تَبَعاً لمكانتهم في العمل، ووفق مستوى المعيشة، وفي هذا يقول الجهشياري «كانت أرزاق الكتّاب والعمال في زمان أبي جعفر للرؤساء ثلاثمائة درهم للرجل ونحو ذلك، وكذلك كانت في أيام بني أمية، وعلى ذلك جرى إلى أيام المأمون، فإن الفضل بن سهل وسع الجاري»[٢]، ولم يذكر مقدار هذا التوسيع غير أن المعلومات المتفرقة عن أرزاق الكتّاب بعد عودة الخلافة إلى بغداد لم تكن أكبر كثيراً[٣]، وكان رزق صاحب ديوان الرسائل أكثر من رزق صاحب الخراج، ورزق المحرر أقل من رزق صاحب النسخ في ديوان الخراج[٤].

كان في الإدارة العليا بعض الاستقرار إلى نهاية خلافة المتوكل، فقد وُلِيَ الوزارة، وهي أعلى المناصب الإدارية، الفضل بن مروان منذ أواخر خلافة المأمون إلى أن توفي في أول خلافة المعتصم، فتلاه محمد بن عبد الملك الزيات الذي ظل وزيراً إلى أن نَكَبَه المتوكل وَوَلَّى بعده محمد بن الفضل، ثم تلاه عبد الله بن يحيى؛ واستوزر المنتصر أحمد بن الخطيب الذي ظل في الوزارة إلى خلافة المستعين الذي ولّى بعده صالح بن يزداد، ثم ابنه أحمد بن صالح، ثم أحمد بن إسرائيل الذي ظل في الوزارة إلى زمن المعتز.

(١) الطبري ٣/ ٦٣٩، ١٤١٤.
(٢) الوزراء والكتاب للجهشياري ١٢٦، الطبري ٣/ ٤٢٥.
(٣) انظر: النفقات في الدولة العباسية لضيف الله الزهراني ٣٢٥.
(٤) في ذم أخلاق الكتاب للجاحظ ٤٨.

وَوَلِيَ محمد بن إسحاق بن إبراهيم الشُّرَط للمعتصم والواثق والمتوكل. وَوَلِيَ الجيش عجيف بن عنبسة، ثم إسحاق بن إبراهيم، ثم وَلَّى المتوكل الشُّرَط سليمان بن يحيى.

كانت المناصب وخاصة المتصلة بالأمور المالية تدرُّ على شاغليها موارد كبيرة، لم تذكرها المصادر، وإنما يستدل عليها مما روي عن مصادرات بعضهم، فقد صادر الواثق إسرائيل على ثمانين ألف دينار، والحسن بن وهب على أربعة عشر ألف دينار، وسليمان بن وهب كاتب إيتاخ على مائتي ألف دينار، وأحمد بن الخطيب وكتّابه ألف ألف دينار، وعبد الله بن مخلد عشرة آلاف، ونجاح ستين ألف دينار، وأبو الوزير مائة وأربعين ألف دينار، وإسحاق ابن سعد خمسين ألف دينار[1].

وصادر المتوكل محمد بن عبد الملك الزيات وغلامه سروج تسعين ألف درهم، وعمر بن فرج ثلاثين ألف دينار إضافة إلى مائة وخمسين ألف دينار كانت مخبأة في داره، ثم صالحه على عشرة آلاف دينار[2]، وصادر إبراهيم النصراني على سبعين ألفاً، وعبد الله وأحمد ثلاثين ألفاً[3]، وإسحاق بن سعد خمسين ألفاً، وعبد الله بن مخلد اثني عشر ألفاً[4].

ولا بدّ أن عدداً آخر امتلك أتباعه مبالغ لم تصادر، وبعضها غير قليلة، واشترى المستعين من المعتز والمؤيد بعد عزلهما عن ولاية العهد جميعَ مالهم ضمن الدور والمنازل والضياع والقصور بعشرين ألف ألف دينار[5].

---

(١) الطبري ٣/ ١٣٣١-٦، وفي رواية أربعين ألف دينار ٣/ ١٤٤٣.
(٢) م.ن ٣/ ، ستة عشر ألف ألف ٣/ ١٤١.
(٣) م.ن ٣/ ١٣٨٧.
(٤) م.ن ٣/ ١٤٤٥.
(٥) م.ن ٣/ ١٥٠٧.

رجال الإدارة الرئيسيُّون في عهد الخلافة العباسية في سامرَّاء

ك: تذكرة ابن حمدون، ع: المسجد المسبوك؛ وذكر ابن حبيب أسماء متولي الشرطة

الخليفة	الوزير	الحاجب	الحرس	الشرط
المعتصم	الفضل بن مروان ع ك	محمد بن حماد ع	عجيف ع ك	محمد بن إبراهيم (المحبر ٣٧)
	محمد بن حماد ك	وصيف ع ك		
	محمد بن عبد الملك الزيات ك	أشناس ع ك		
الواثق	محمد بن عبد الملك ع ك	إيتاخ ع ك	إسحاق بن يحيى معاذ ع ك	محمد بن إسحاق إبراهيم
		وصيف ع ك		
		أحمد بن عبد الملك الزيات ع		
المتوكل	محمد بن عبد الملك الزيات	وصيف ع ك	سليمان بن يحيى بن معاذ	محمد بن معاذ إبراهيم بن إسحاق
	محمد بن الفضل الجرجرائي ع ك	محمد بن عاصم ع		
	عبد الله بن يحيى بن خاقان ع ك	يعقوب ع		
		قوصرة ع		
		المرزبان ع		
		إبراهيم ع		
		سهل بن سعيد ع		
		الحسن بن مخلد ع		
		بغا ع ك		
		سعيد ك		
المنتصر	أحمد بن الخطيب ك	وصيف ع		
المستعين	أحمد بن الخطيب ك	اوتامش ع		
	صالح بن يزداد ع ك	بغاع		

الخليفة	الوزير	الحاجب	الحرس	الشرط
	أحمد بن يزداد ك	وصيف ع ك		
	أحمد بن اسرائيل ك			
المعتز	أحمد بن إسرائيل ك	سعيد بن صالح ك		
	جعفر بن محمد ك			
	عيسى بن فرخانشاه ك			
المعتمد	عبد الله بن يحيى بن خاقان ك	موسى وبغا ع ك		
	الحسن بن مخلد ك	نخيخ ك		
	أحمد بن صالح بن بندارم	بكتمر الزكي ك		
	محمد بن عبد الله			
	يعقوب بن أحمد			

الخليفة	ولاة الخراج	ولاة الضياع
المعتصم	الفضل بن مروان / الطبري ٣/ ١٣٧٩	الفضل بن مروان / الجهشياري ١٨٨/ ١٩١ نشوار ٨/ ٢٢
	يحيى بن خاقان / نشوار المحاضرة ٨/ ٢٢١	أبو الفضل عون بن هارون / نشوار ٨/ ٢٧١، ٣١
الواثق		إبراهيم بن رباح / أعتاب الكتاب ١٤٥
		عمر بن فرج الرخجي
المتوكل	الفضل بن مروان / الطبري ٣/ ١٣٧٩	إبراهيم بن العباس / الطبري ٣/ ١٤٣٥، أعتاب الكتاب ١٤٥، ١٥٠
	يحيى بن خاقان / الطبري ٣/ ١٤٤٧، نشوار ٨/ ٣٣	نشوار ٨/ ٦٦، الأغاني ١٠/ ٥٢
	عبد الله بن يحيى بن خاقان / الطبري ٣/ ١٤٢٧	الحسن بن مخلد / الطبري ٣/ ١٤٤١، التذكرة، العسجد
	موسى بن عبيد الله / الطبري ٣/ ١٤٤١، الفهرست ١٣٠	إبراهيم بن رباح/الطبري ٣/ ١٤٣٥، ١٤٤١، نشوار ٨/ ٦٦
المنتصر	دليل الطبري ٣/ ٥٨٣	أبو الفرج / أعتاب الكتاب ١٤٥
	أبو جعفر بن إسرائيل / العسجد المسبوك ٣٤٣	محمد بن هارون / الطبري ٣/ ١٥٤٩
		إبراهيم تامؤيد العسجد
المستعين	أحمد بن صالح بن يزداد / العسجد المسبوك	الحسن بن مخلد / العسجد التذكرة الحمدونية
	أبو الحجار / الطبري ٣/ ١٥٤٩	
	الفضل بن مروان	
	عيسى بن فرخانشاه / الطبري ٣/ ١٨١٤	
المعتز	محمد بن إبراهيم بن مسعده / الطبري ٣/ ١٥٥٠	سليمان بن يسار / الطبري ٣/ ١٧٢٦
	عيسى بن فرخانشاه / الطبري ٣/ ١٦٤٠	الحسن بن مخلد / العسجد المسبوك
المهتدي	عبد الرحمن بن محمد بن يزداد / نشوار ١٧١٨	سليمان بن يسار / الطبري ٣/ ١٥٥٠
	العسجد	أحمد بن صالح الصريفيني. التذكرة الحمدونية

مستخرج ديوان الخراج:	جعفر المعلوف سنة ٢٤٦	الطبري ٣/ ١٤٤٤
زمام الخراج:	منصور بن بسام	الطبري ٣/ ١١٨٢
زمام الضياع:	أبو صالح بن يزداد	الطبري ٣/ ١٤٤٦
ضياع المستعين:	دليل	الطبري ٣/ ١٥١٧
ضياع إيتاخ:	قدامة بن زياد النصراني	الطبري ٣/ ١٣٨٥
ديوان جيش الشاكرية:	عتاب بن عتاب	مروج الذهب ٤/ ٥٦
ديوان زمام النفقات:	أبو الوزير	الطبري ٣/ ١٣٧٩
	إبراهيم بن العباس	
بيوت الأموال للمستعين:	أوتامش	الطبري ٣/ ١٥١٣
التوقيع والتتبع على العمال:	نافع بن ساعد	الطبري ٣/ ١٤٤١
	نجاح بن سلمة	الطبري ٣/ ١٤٤١
توقيع ديوان النفقات:	عبد الله بن يحيى بن خاقان	
	محمد بن عبد الرحمن بن خاقان	الطبري ٣/ ١٤٤١
أخبار الخاصة والعامة وبسامرّاء والهاروني وما يليها		الطبري ٣/ ١٢٩٦
الأخبار:	إبراهيم بن عتاب	الطبري ٣/ ١٤٠٦
المعونة:	إيتاخ وإسحاق بن إبراهيم	الطبري ٣/ ١٣٨٢
	إسحاق بن إبراهيم	
المظالم:	محمد بن أحمد بن أبي دواد	الطبري ٣/ ١٤١٠
	محمد بن يعقوب بن الربيع	
	يحيى بن أكثم	الطبري ٣/ ١٥١٠
كتاب:	الفضل بن مروان	الطبري ٣/ ١١٨٢
	محمد بن عبد الملك الزيات	الطبري ٣/ ١١٨٤
	محمد بن الفضل الجرجرائي	الطبري ٣/ ١٣٧٩/ ١٤٠٧
	عبد الله بن يحيى بن خاقان	الطبري ٣/ ١٤٠٧
ديوان الرسائل:	سعيد بن حميد	الطبري ٣/ ١٥١٤
كتاب أم المستعين:	سلمة بن سعيد النصراني	الطبري ٣/ ١٥١٣

الوجوه وأهل النباهة:

يقول اليعقوبي «انتقل الوجوه والجلة والقوّاد وأهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم إلى سرّ من رأى في سنة ٢٢٣، ثم اتصل بهم المقام في أيام الواثق والمتوكل، ولم تخرب بغداد ولا نقصت أسواقها لأنهم لم يجدوا فيها عوضاً، لأنه اتصلت العمارة والمنازل بين بغداد وسرّ من رأى في البر والبحر، أعني في دجلة وفي جانبَيْ دجلة»(١).

حدَّد اليعقوبي المنتقلين من بغداد مع المعتصم «الوجوه والجلَّة والقواد وأهل النباهة من سائر الناس»، وأن مقامهم في سامرَّاء دام حتى نهاية خلافة المتوكل (٢٢٣-٢٤٥) أي قرابة ربع قرن كانت الأحوال فيها مستقرة وللخلافة مكانتها العليا المطلقة. وقد يوحي هذا النص أن تدهور سامرَّاء بدأ منذ مقتل المتوكل الذي تلاه تدهور الأحوال المالية واضطراب الأمن بسبب الانقلابات العسكرية المتتابعة.

لم يفصل اليعقوبي في «الوجوه والجلة وأهل النباهة من سائر الناس» ولعله قصد المقربين من الخلافة ورجال الحكم والإدارة المثقفين عموماً، ويلاحظ أن إقطاعات المعتصم في سامرَّاء لغير القادة والجند اقتصرت على إقطاعات لأربعة من رجال الأسرة العباسية، وإقطاعات لكبار رجال الدواوين، ولطبيب واحد هو بختيشوع، ولعل الوافدين على سامرَّاء أبيح لهم البناء، ولم يقطعوا إقطاعات واسعة، ويقول ابن الداية إن المعتصم لما بنى سامرَّاء أمر الموالي والقواد باللحاق به(٢)، ولم يخرج معه من أهل بيته إلا العباس بن المأمون وعبد الوهاب بن علي، وذكر الطبري أن المهتدي بايعه هاشميون والقضاة والمعدلون وأصحاب المراتب(٣).

---

(١) البلدان ٢٥٤.
(٢) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٢٣٦.
(٣) الطبري ٣/ ١٧٩٤.

ترجم الخطيب لثلاثة وعشرين نسبهم إلى «العسكر»[١] ولا بدّ أنه قصد سامرَّاء، وورد في أخبار الخلفاء الذين اتخذوا مقامهم في سامرَّاء أسماء عدد غير قليل من الشعراء والكتّاب والأدباء والأطباء والمهندسين والفلاسفة والعلماء والمغنّين والجواري ممن لا بدّ أنهم كانوا مقيمين بصورة دائمة أو لمدة غير قصيرة فيها، ولكن كتب التراجم التي أُلّف أكثرها في بغداد، لم تشر إلى أقامتهم في سامرَّاء، مما ترك انطباعاً غير صحيح أنهم من بغداد التي نسب إليها كثير من النشاط الفكري في سامرَّاء إبان ازدهارها ولا ريب في أن قصرَ مدة ازدهار سامرَّاء وامتداده في بغداد عمل على دمج نشاط أهل سامرَّاء ببغداد التي لا بدّ أنها احتفظت بمكانتها العلمية وخصوصاً في علوم اللغة والدين. وترجم ابن النديم لأحد عشر من أهل اللغة والأدب والحديث ذكر أنهم ولدوا أو تواجدوا في سامرَّاء.

يظهر نص اليعقوبي الذي ذكرناه أعلاه أن قيام سامرَّاء لم يؤدِّ إلى تدهور الحياة الاقتصادية في بغداد التي احتفظت بأسواقها وما يتصل بها من نشاط تجاري، ولم يرد ذكر لهجرة التجار من بغداد أو تحوّل المؤسسات التجارية إلى سامرَّاء، فظلت بغداد مركز التجارة العالمية، وامتد نشاطها إلى سامرَّاء التي لم تعمل على نقل التجارة إليها، وإنما اقتصرت على نقل أصحاب الحِرَف لسد حاجاتها المحلية. وظلت مركز النشاط التجاري إلى أواخر الربع الأول من القرن الثالث.

إن اتخاذ الخلفاء سامرَّاء مقراً لمقامهم، ونقل معظم الجند والحاشية إليها رافقه استلامها جبايات الأقاليم مما أمن موارد مُقنَّنة ومنتظمة لمجموعات المهيمنين وقدرتهم على الصرف لتأمين حاجاتهم المعيشية. وقد أدى هذا إلى إنعاش الناس وأصحاب الصناعات والمهن والبياعات بمختلف أعمالهم التي تخدم هؤلاء المهيمنين من كبار رجال الجيش والإدارة إلى صغار الجند والكتّاب، ولا بدّ أن مشاريع الإرواء القائمة في الجانب الشرقي والتي فتحت

---

(١) بغداد مدينة السلام ٢/٢٢٦-٧.

في الجانب الغربي يَسَّر العمل والربح للفلاحين وأهل الزرع في هذه المنطقة، كما يَسَّر لعدد من المتنفذين الحصول على ضياع واسعة، وأفسح ضعف الرقابة على كبار رجال الإدارة حصولهم على ثروات ضخمة من الدلائل عليها مبالغ المصادرات التي ذكرها الطبري لعدد من كبار رجال الإدارة، فيذكر أن المتوكل في سنة ٢٣٣ غضب على عمر بن فرج وكتب في قبض ضياعه وأمواله، ثم صولح على عشرة آلاف ألف درهم وأخذ من محمد بن عبد الملك الزيات ما قيمته تسعون ألف دينار، واستخرج من إبراهيم بن الجنيد النصراني سبعين ألف دينار ومن أبي الوزير نحواً من ستين ألف دينار، ومن سعدون بن علي أربعين ألف دينار، ومن عبد الله وأحمد بن سعدون نيفاً وثلاثين ألف دينار عدا الضياع[1]، ولعل آخرين لم تصادر أموالهم جنوا أرباحاً من استغلال مناصبهم بأساليب منوعة، وبمقادير متباينة.

ففي شارع السريجة قطائع قواد خراسان: هاشم بن بانيجور، وهاشم والحمد بن علي المأموني، وهارون بن نعيم، وحزام بن غالب، ثم يتلوها اصطبلات دواب الخليفة وشارع أبي أحمد، وهو الشارع الثاني الموازي لشارع السريجة الأعظم، كانت قطائع للخراسانية وبعض كبار رجال الدولة، ثم تتصل الإقطاعات في هذا الشارع، وعلى الدروب إلى يمينه ويساره إلى قطيعة بغا الصغير، ثم قطيعة بغا الكبير، ثم قطيعة سيما الدمشقي، ثم قطيعة وصيف القديمة، ثم قطيعة إيتاخ، ويتصل ذلك إلى باب البستان وقصور الخليفة؛ وظاهر النص أن هذه القطائع كانت متصلة ببعضها.

ظلت أكثر هذه الإقطاعات ثابتة لأصحابها، وربما توارثوها ورثتهم من بعدهم، غير أن بعضها تبدل أصحابها، فإسحاق بن إبراهيم كانت قطيعته في آخر وادي السريجة، ثم انتقل من قطيعته في أيام المتوكل فبنى على رأس الوادي واتسع في البناء، وكانت قطائع الأفشين في المطيرة.

---

(١) الطبري ٣/ ١٣٧٧.

القصور والدور والمنازل والقطائع:

في المصادر أربعة مصطلحات عن أحوال الأراضي التي وُزِّعت هي الدور والقصور والمنازل والقطائع. فأما الدور والقصور فكانت لأفراد تختلف مساحاتها، ولكنها من حيث العموم محدودة، ويتميز القصر عن الدار بأنه أوسع مساحة وأفخم بناءً وكثيراً ما يحاط ببساتين ومزروعات لزيادة تجميلها. أما المنازل فأكثر ما ذكرت مرتبطة بالجماعات؛ فهي أقرب إلى ما نسميه اليوم الأحياء؛ والأرجح أن رئيس الجماعة يقوم بتوزيعها على أفراد جماعته بالتساوي. ولم يرد خبر عن استياء أو احتجاج أيٍّ من الأفراد على هذا التوزيع؛ وهي في الغالب تبيح لهم الحرية، وإن لم تكن بمستوى الملكية الصرفة؛ إذ قد يُنقل الأفراد أو الجماعة منها دون أن يُعْطَوا تعويضاً مالياً عن ذلك.

أما القطائع فإنها تكون أوسع، وقد تُعطى للأفراد أو الجماعات، وتُسَمّى باسم من تُقطع له، وله حق التصرف فيها، ولكنها ليست ملكاً صرفاً، إذ يمكن سحبها دون تعويض.

ذكر اليعقوبي في سامرَّاء عشر إقطاعات منسوبة إلى جماعات، وأربعاً وثلاثين إقطاعة منسوبة إلى أفراد أو جماعات أو لكليهما. وسَمَّى من نُسب إليه الإقطاع، وحدَّد بالتقريب مواقعها التي يدل سياق كلامه على أن المعتصم أقطعها عند بدء تأسيس سامرَّاء، ولم ترد إشارة إلى مساحة أيٍّ منها. وإن كان الراجح أن مساحاتها متباينة، وأنها أعطيت للرئيس وجماعته، فهي واسعة تستوعب الجماعة، وأن الرئيس الذي سمّاه اليعقوبي كان يقوم بتوزيعها على أفراد الجماعة بصورة متساوية أو متقاربة بعد أن يقتطع لنفسه قطعة متميزة بمساحتها وموقعها ويبني منزلاً أفخم من منازل أفراد الجماعة.

والإقطاعات كافة، التي ذكرها اليعقوبي في الجانب الشرقي، متقاربة لا تبعد كثيراً عن مقر إقامة الخليفة في الجوسق الخاقاني؛ إلا أنه ذكر أربع إقطاعات في الأطراف الخارجية من سامرَّاء.

الفصل الحادي عشر
منازل المغاربة والعرب

المغاربة:

يقول اليعقوبي في كلامه عن شوارع سامرَّاء عندما خططها المعتصم إن أحد هذه الشوارع هو الشارع الذي على دجلة ويسمّى شارع الخليج. وفيه الفُرَض ومرسى السفن القادمة من بغداد محمّلة بسلعها، وفي هذا الشارع قطائع المغاربة كلهم أو أكثرهم، والموضع المعروف بالأزلاخ الذي عمر بالرجالة المغاربة في أول ما اختُطَّت سُرَّ من رأى[1].

قال المسعودي بعد كلام قصير عن جمع المعتصم الأتراك: «وقد كان المعتصم اصطنع قوماً من حَوْفِ مصر ومن حَوْفِ اليمن وحَوْفِ قيس فسمّاهم المغاربة»[2] لم أجد إشارة إلى حَوْفِ اليمن، أو حَوْفِ قيس. أما حَوْفِ مصر فقد أسكن فيه الوليد بن رفاعة والي مصر قيساً سنة ١٠٩[3]، وهو يمتد بين دمياط وأطراف حدود مصر الشرقية، وقد حصلت فيه بعض الاضطرابات في أوائل زمن الخلفاء العباسيين، ولكن لم يذكر حدوث اضطرابات فيه زَمَنَ خلافة المعتصم الذي أوقف العطاء على مقاتلة مصر سنة ٢١٣، أي قبل تأسيس سرّ

(١) البلدان ٢٥٧.
(٢) مروج الذهب ٣/ ٤٦٥.
(٣) الولاة للكندي ٧٦.

من رأى، ولا تشير المصادر المصرية إلى نقل المعتصم مقاتلة من مصر إلى العراق، سوى ما ورد في مادة «الأفشين» في دائرة المعارف الإسلامية أن الأفشين هو الذي جلب المغاربة من مصر وضمَّهم إلى جيش المعتصم، علماً بأن ولاية الأفشين على مصر انتهت سنة ٢١٨ أي قبل تحوُّل المعتصم من بغداد، ولم يكن للأفشين تقدير لهم(١).

وكان الخلفاء العباسيون الأوائل قد استخدموا في جيشهم وحدات من الأفارقة كان لها إسهام في الدفاع عن بغداد لمّا حاصرتها قوات المأمون في قتالها الأمين، ولكن المصادر لم تذكر معلومات عن زمن بدء استخدامهم وتطور دورهم أو تركيبهم القبلي وأصوله، علماً بأن كلمة (أفريقية) التي نُسب إليها هؤلاء المقاتلة يُقصد بها في الغالب بلاد شمال أفريقيا، وأن المصادر ميزت بين هؤلاء الأفارقة وبين السودان والعبيد، كما أنها كانت تميز في كثير من الأحيان بينهم وبين من تسمّيهم «البربر».

يتضح من كلام المسعودي أن المعتصم هو الذي جلب هؤلاء المغاربة إلى سرّ من رأى، وأنه أسكنهم فيها منذ أول تأسيسها. وذكر اليعقوبي أن المعتصم أسكنهم الشارع الذي على دجلة ويسمّى شارع الخليج، وهناك الفُرَض ومرسى السفن والتجارات التي ترد من بغداد وواسط وكسكر وسائر السواد من البصرة والأبلة والأهواز وما اتصل بذلك، ومن الموصل وباعربايا وديار ربيعة وما اتصل بذلك، وفي هذا الشارع قطائع المغاربة كلهم أو أكثرهم، والموضع المعروف بالأزلاخ الذي عمر بالرجالة المغاربة في أول ما اختُطّت سرّ من رأى(٢)، وهذا الشارع مُوازٍ لدجلة ولا يخترق سامرّاء. ولما كان الجوسق الخاقاني يطل على دجلة، فتكون قطائعهم بمحاذاة الجوسق، ولعلها متصلة بقطائع لرجال من المغاربة في شارع السريجة، وهو الشارع الأول، ومن قطيعة راشد المغربي، وقطيعة مبارك المغربي، وسويقة مبارك، وجبل جعفر الخياط

(١) الطبري ٣/١٣١٣.
(٢) البلدان ٢٦٧.

وفيه قطيعته وقطيعة أبي الوزير[1]، ولعله أفردهم عن قطائع بقية المغاربة ليميز مكانة أصحابها، وأنها لم تكن كبيرة، علماً بأنه لم يذكر من قطيعة المغاربة على دجلة قطيعةً لأحد.

إن هذين النصين يُظهران أن المغاربة كانوا متواجدين منذ أول تخطيط سامرَّاء، وأن قطائعهم كانت في موضع فيه منشآت لها أهمية سياسية وأمنية، هي الجوسق ودوائر الدولة والسوق، ولا بدّ أن المعتصم اختار لهم هذا المكان لثقته بإخلاصهم، وإدراكه إمكان انسجامهم مع أهل الفرضة والسوق، ومراجعي الدوائر، فوجودهم في هذا المكان لا يثير مشاكل كالتي أثارها الأتراك في بغداد عندما أراد إيطانهم فيها.

ورد في أخبار الحوادث ذكر أربعة من رجال المغاربة هم مبارك المغربي وراشد المغربي، ويحيى العكي وزيلة المغربي، فأما مبارك فقد وجّهه المتوكل لاستخراج أموال إبراهيم عبد الحميد،[2] وذكر الطبري أن داره عند دار حبش في سامرَّاء[3]. وأما راشد فإن المتوكل وجهه لقبض أموال محمد بن عبد الملك الزيات[4] وهذا يُظهر مكانتهما عند المتوكل، وقيامهما ببعض الأعمال الإدارية الانضباطية. غير أن المصادر لم تذكر العشيرة التي ينتسبان إليها. وذكر حفيد حاجب النعمان أن المعتصم لما نزل سُرَّ من رأى ولّى راشد المغربي كورتين تتصلان بسرّ من رأى هما تكريت والطيرهان اللتان أخرجهما من الموصل، وأبقى إلى ما ينسب إلى الموصل سبع كور[5]. أما يحيى العكي فقد ذكره الطبري في حوادث حصار قوات المعتز للمستعين عندما تحصن في بغداد،[6]

(١) البلدان ٢٦١.
(٢) الطبري ٣/ ١٣٥٤.
(٣) م.ن ٣/ ١٥٠٥.
(٤) م.ن ٣/ ١٣٥٤.
(٥) الوزراء.
(٦) الطبري ٣/ ١٥٠٥.

وأما زيلة المغربي فكان من قوات المغاربة وورد اسمه في حصار جيش المعتز لبغداد زمن المعتصم[١].

ذكر الطبري أن المتوكل لما بويع بالخلافة «أمر للأتراك برزق أربعة أشهر، والجند والشاكرية ومن يجري مجراهم من الهاشميين برزق ثمانية أشهر، وللمغاربة برزق ثلاثة أشهر، فأبوا أن يقبضوا، فأرسل إليهم قائلاً: من كان منكم مملوكاً فليمضِ إلى أحمد بن أبي دؤاد فليبعه، ومن كان حرًّا صيّرناه أسوة بالجند، فَرَضُوا بذلك، فتكلم وصيف فيهم حتى رضي عنهم، فأعطوا ثلاثة ثم أجروا بعد ذلك مجرى الأتراك»[٢]. يظهر هذا النص أنه كان في المغاربة مماليك وأحرار، وأنهم لم يكونوا جميعاً أسوة بالجند، وأن المتوكل أراد تقليص عددهم عقاباً لهم، وأراد إبقاء وضعهم، وأن رزقهم كان أقل من رزق الترك، وبعد أن رضِيَ عنهم جعل رزقهم مساوياً لرزق الأتراك؛ علماً بأن المصادر لم تذكر مقدار هذا الرزق وتنوّعه تبعاً لمراتبهم.

يذكر الطبري أنه في سنة ٢٥٢ إبّان الحرب بين المعتز والمستعين قدّرت أرزاق الأتراك والمغاربة والشاكرية فكان مبلغ ما يحتاجون إليه في السنة مائتي ألف الف دينار، وذلك خراج المملكة كلها سنتين[٣] أي إن أرزاقهم قدرت ضعف موارد الدولة للسنة الواحدة، وهو مبلغ كبير جداً حتى بمقاييس ذلك الزمن علماً بأن هذا النص إجمالي لا يوضح نصيب كل جماعة في الجيش أو تفصيل النظام المتبع لتقدير ما يصيب الجندي الواحد.

إن الطبري في تاريخه الذي ضم أوسع المعلومات تفصيلاً عن الحوادث السياسية والحربية في القرن الثالث الهجري، ذكر المغاربة في خبرين، فقال في أحدهما إن إيتاخ في سنة ٢٣٤ صار إليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالي

---

(١) الطبري ٣/ ١٥٦٢.
(٢) م.ن ٣/ ١٤٧٣.
(٣) م.ن ٣/ ١٦٨٥.

والبريد والحجابة ودار الخلافة[١]، وفي الحملة التي أعدت على الكرّ حاصر المسلمون تفليس وكان المغاربة مشاركين في حصارها[٢].

تردد ذكر المغاربة في أخبار حوادث الاضطرابات التي حدثت بعد مقتل المتوكل، وكانوا في هذه الحوادث مشاركين لمجموعات أخرى من الجيش، واشتركوا مع الأتراك خاصة في عدد من الحوادث، ولا سيما في تأييدهم المعتز ومقاتلة المستعين. فقد ذكر المستعين في رسالة شرح فيها موقفه وقال: «ثم إن هؤلاء الناكثين جمعوا جمعاً من الأتراك والمغاربة، ومن ولج في سوادهم، ودخل في غمارهم»[٣] وأن المعتز «استنهض جيشاً من سامرّاء من الأتراك والمغاربة»[٤] وقد قاتل المغاربة في إحدى هذه المعارك ببغداد ووصلوا سور باب الشماسية[٥] وصاروا مع الأتراك إلى أبواب مدينة السلام،[٦] ثم قدم مزاحم بن خاقان مدداً لمحاصري بغداد وقدم معه من كان معه من أصحابه من الخراسانية والأتراك والمغاربة، وكانوا نحو ألف رجل[٧]. وبذلك ازداد عدد محاصري بغداد وصارت «عدة الأتراك والمغاربة وحشْوَهم في الجانب الغربي اثني عشر ألف رجل» ورأسهم بايكباك، وكانت عدة من كان مع أبي أحمد في الجانب الشرقي سبعة آلاف رجل خليفته عليهم الدرغمان الفرغاني، ولم يكن بسامرّاء من قواد الأتراك ولا من قواد المغاربة إلا ستة نفر[٨].

وفي هذه الحوادث «كتب المعتز إلى مزاحم فأجاب الأتراك والفراغنة والمغاربة[٩]، وشارك الأتراك والمغاربة في حصار باب بغواريا غربي[١٠] بغداد».

(١) الطبري ٣/ ١٣٨٣.
(٢) م.ن ٣/ ١٤١٩.
(٣) م.ن ٣/ ١٥٦٩.
(٤) م.ن ٣/ ١٥٧١.
(٥) م.ن ٣/ ١٥٧٩.
(٦) م.ن ٣/ ١٥٨٢.
(٧) م.ن ٣/ ١٥٨٨.
(٨) م.ن ٣/ ١٥٩٥.
(٩) م.ن ٣/ ١٦١٩.
(١٠) م.ن ٣/ ١٦٢٤.

لم يدم التعاون بين الأتراك والمغاربة إذ إن المغاربة اجتمعت مع محمد بن راشد ونصير بن سعيد فغلبوا الأتراك على الجوسق وأخرجوهم منه، وقال لهم كل يوم تقتلون خليفة وتخلعون آخر وتقتلون وزيراً. . وأخرجت المغاربة الأتراك من الجوسق وغلبوهم في بيت المال،فاستعان الأتراك بأهل الكرخ ولكن المغاربة أعانتهم الغوغاء والشاكرية، وضعف الأتراك وانقادوا للمغاربة، فأصلح جعفر بن عبد الواحد بين الفريقين، فاصطلحوا على أن لا يُحْدثوا شيئاً ويكون في كل موضع يكون فيه رجل من أحد الفريقين يكون فيه آخر من الفريق الآخر[1].

قَرَّب المعتز المغاربة والفراغنة ورجَّحهم على الأتراك فاستاء هؤلاء من عمله. وآخر ما ذكره الطبري عن المغاربة هو اتفاقهم مع الفراغنة على عزل المعتز[2].

ذكر اليعقوبي في كلامه عن خطط سامرَّاء أن في شارع أبي أحمد «قطائع المغاربة وقطائع العباسيين. ثم قطائع قواد خراسان وأسبابهم من العرب، ومن أهل قم وأصبهان وقزوين والجبل وأذربيجان يمنة في الجنوب مما يلي القبلة فهو نافذ إلى شارع السريجة الأعظم[3]». وكلمة «أسباب» غير واضحة، وهي تمتد إلى أهل قم وأصبهان وقزوين والجبل وأذربيجان التي كان في كلٍّ منها مستوطنات عربية.

وذكر المسعودي أن المتوكل عندما جَفَا الموالي والأتراك ضم إلى وزيره عبيد الله بن يحيى بن خاقان نحواً من اثني عشر ألف من العرب والصعاليك وغيرهم برسم المعتز، وكانوا في حجره[4]، ولم ترد إشارة أخرى إلى دور هؤلاء العرب ومواضع خططهم ولا إلى قوات عسكرية عربية في سامرَّاء غير ما ورد في هذين النصين.

---

(١) الطبري ٣/ ١٩٨١.
(٢) المصدر نفسه ٣/ ١٧٠٩.
(٣) البلدان ٢٦١.
(٤) التنبيه والإشراف ٣١٢.

الفصل الثاني عشر

الخراسانيون

كان الخراسانيون واحداً من الأصناف الخمسة التي ذكر الجاحظ أنّهم يُكَوّنون الجيش العباسي في زمنه، بعد تأسيس سامرَّاء، وقد ذكرنا في فصل سابق أُصولهم وتكوينهم ودورهم.

قال اليعقوبي: «وجعلت الشوارع لقطائع قواد خراسان وأصحابهم من الجند والشاكرية ومن يمين الشوارع ويسارها يدور فيها منازل الناس كافة»[1]. وفي كلامه تعميم غير دقيق، ولكنه يشير إلى أن أكثر الشوارع الرئيسية تمر بإقطاعات الخراسانيين.

وذكر أيضاً عن شارع السريجة وهو الشارع الأعظم الممتد من المطيرة إلى وادي إسحاق بن إبراهيم الذي فيه الدواوين وفي هذا الشارع قطائع قواد خراسان منها قطيعة هاشم بن بانيجور، وقطيعة عجيف بن عنبسة، وقطيعة الحسن بن علي المأموني، وقطيعة هارون بن نعيم، وقطيعة حزام بن غالب، وظهر قطيعة حزام الاصطبلات لدواب الخليفة الخاصة والعامة يتولاها حزام ويعقوب أخوه، ثم موضع الرطابين وسوق الرقيق[2]. وكل هؤلاء شاركوا في قتال بابك، في هذا الشارع، كذلك قطائع المغاربة، والعباسيين، وعدد من الموظفين.

---

(١) البلدان ٢٥٩.

(٢) المصدر نفسه ٢٦٢.

وذكر أن الشارع الثاني، وهو شارع أبي أحمد أوله دار بختيشوع الطبيب التي بناها في أيام المتوكل، ثم قطائع قواد خراسان وأسبابه من العرب ومن أهل قم وأصبهان وقزوين والجبل وأذربيجان يمنة في الجنوب مما يلي القبلة، فهو نافذ إلى شارع السريجة الأعظم، وما كان مما يليه الشمال ظهر القبلة فهو نافذ إلى شارع أبي أحمد[١]، ويتبين من هذا أن قطائع الخراسانيين كانت تشغل شارعي السريجة وأبي أحمد، يشاركهم فيها قطائع الكتّاب وعدد من رجال الأسرة العباسية.

إن النصوص التي ذكرها اليعقوبي «قطائع قواد خراسان» لا تذكر قطائع للخراسانيين، ولعل اليعقوبي كان يقصد أن جند خراسان عند إنشاء سامرّاء كانوا مرتبطين بقوادهم غير أنه لا توجد إشارة إلى تركيب وعدد الجند المرتبط بكل قائد، ولا مدى امتداد هذا الارتباط واستمراره، وقد أشار اليعقوبي بصراحة إلى سكن بعض الجند مع قادتهم «قواد خراسان وأصحابهم من الجند والشاكرية».

ذكر اليعقوبي أسماء خمسة من هؤلاء القواد وهم: هاشم بن بانيجور، وعجيف بن عنبسة، والحسن بن علي المأموني، وهارون بن نعيم، وحزام بن غالب، لم أجد في الكتب إشارة إلى إبراهيم بن بانيجور، وحزام بن غالب، أما الثلاثة الآخرون، فقد ذكر الطبري معلومات عن بعض أعمالهم، فهارون بن نعيم بن الوضاح كان قائداً يقاتل الزّنج مع عجيف بن عنبسة زمن المأمون، وكان يقود خمسة آلاف مقاتل[٢]. وهذا العدد يعادل ما كان بإمرة عجيف، مما يدل على مكانته المتميزة في قيادة جيش العباسيين الذي قضى على تلك الثورة التي عبثت بالأمن وهددت اقتصاد بغداد، وشارك في الجيش الذي قاده الأفشين وقضى على ثورة بابك[٣].

---

(١) البلدان ٢٦١.
(٢) الطبري ٣/١١٦٧.
(٣) المصدر نفسه ٣/١٠٦٧.

أما الحسن بن علي المأموني فهو منسوب إلى بادغيس، مما يدل على أن أصله منها، وكان من رجال المأمون من قبل أن يظهر الخلاف بينه وبين الأمين، وشارك في الجيش الذي أرسله المأمون بقيادة طاهر بن الحسين لمقاتلة الأمين، وفي ضم الري إلى المأمون[١]، وفي السيطرة على سوق الأهواز[٢]، ثم على المدائن[٣]، ثم في حصار بغداد[٤]، وفي إخماد ثورة أبي السرايا[٥]، وهذه الحوادث جرت قبل بناء سامرّاء بحوالى عشرين سنة، مما يدل على أنه كان متقدماً في السن عندما تأسست سامرّاء.

أما عجيف بن عنبسة فكان من مشيخة الأبناء في خراسان[٦]، وانضم إلى جيش المأمون عندما كان يخمد ثورة رافع بن الليث،[٧] وشارك في إخماد ثورة أهل قم[٨]، وثورة بعض الخوارج،[٩] وكان من قواد المأمون البارزين عندما غزا الروم[١٠]، وقاد جيوش الخلافة التي أخمدت ثورة الزّنج في أواخر خلافة المأمون[١١]، ثم كان من قواد المعتصم عندما توغل في بلاد الروم وفتح عمورية سنة ٢٢٣[١٢]، وساند العباس بن المأمون في مؤامرته على المعتصم[١٣]، فأُلقِي القبض عليه، ومات بصورة غامضة في باعيناثا[١٤].

---

(١) الطبري ٣/ ٧٧٨.
(٢) م.ن ٣/ ٨٥٣.
(٣) م.ن ٣/ ٨٦٠.
(٤) م.ن ٣/ ٩١٧.
(٥) م.ن ٣/ ٨٦.
(٦) م.ن ٣/
(٧) م.ن ٣/ ٧٣٢.
(٨) م.ن ٣/ ١٠٨٢.
(٩) م.ن ٣/ ١١٠٢.
(١٠) م.ن ٣/ ١١٠٣، ١٢٦٤.
(١١) م.ن ٣/ ١١٦٧.
(١٢) م.ن ٣/ ١١٦٧.
(١٣) م.ن ٣/ ١٢٥١، ١٢٦٤.
(١٤) م.ن ٣/ ١٢٦٥.

تدل المعلومات عن عجيف أنه كان من الخراسانيين وله دور بارز في الجيش إبّان خلافة المأمون وأوائل خلافة المعتصم، ولعل بعضها يرجع إلى كثرة عددهم، ولا بدّ أن مكانتهم تضعضعت باشتراك قوادهم في مؤامرة العباس ابن المأمون لخلع المعتصم.

كانت خطط قواد خراسان في شارع السريجة وشارع أبي أحمد اللذين كانت فيهما دار العامة والقصر الهاروني والدواوين والأسواق، أي في قلب مدينة سامرّاء؛ ولم يذكر اليعقوبي أن المعتصم فرض عليهم العزلة في المسكن كالذي فعله مع الأتراك، ولعل من قطائع الخراسانيين قطيعة الحسن بن سهل وكانت «بين آخر الأسواق، وكان آخرها الجبل الذي صار فيه خشبة بابك وبين المطيرة موضع قطيعة الأفشين، وليس في ذلك الموضع يومئذٍ شيء من العمارات، ثم أحدقت العمارة به حتى صارت قطيعة الحسن بن سهل وسط سرّ من رأى، وامتد بناء الناس من كل ناحية، واتصل البناء بالمطيرة[1]».

ذكر الطبري أسماء رجال من أهل سامرّاء منسوبين إلى بلدان ما وراء النهر، وممن ذكرهم الحارث السمرقندي قرابة عبد الله بن الوضاح[2]، وغطريف الخجندي، وهرثمة بن النضر الختلي[3].

وذكر اليعقوبي أن الشارع الرابع فيه قطائع الأتراك «وآخر منازل الأتراك وقطائعهم قطائع الخزر مما يلي المشرق» وهي عند المطيرة[4].

الفراغنة

ذكر اليعقوبي أن الفراغنة والأشروسنية «من رجال خراسان»[5] وأن قطائع

(١) البلدان ٢٥٩.
(٢) الطبري ٣/ ١٢٥٠، ١٢٥٦.
(٣) المصدر نفسه ٣/ ١٢٦٧.
(٤) البلدان ٢٦٢.
(٥) المصدر نفسه ٢٦٥.

الأتراك جاورهم الفراغنة والأشروسنية وغيرها من مدن خراسان على قدر قربهم من بلدانهم»[1] وكما ذكر «أن في شارع الحير أخلاطاً من الناس من قواد الفراغنة والأشروسنية والأشتاخنجية وغيرهم من سائر كور خراسان»[2].

وذكر المسعودي «رجال خراسان» من الفراغنة وغيرهم من الأشروسنية[3].

يتردد في أخبار الحوادث إبَّان إقامة الخلفاء العباسيين في سامرَّاء ذكر جماعتين متميزتين من أهل بلاد آسيا الوسطى هما الفراغنة، وكان لكلٍّ منهما في تلك الحوادث دور ذكره المؤرخون وهو أنهما كانتا جماعات متميزة عن الأتراك علماً بأنهما يذكران مع الأتراك والأشروسنية في معظم الحوادث والاضطرابات مما يدل على صلاتهما المشتركة عند إنشاء سامرَّاء ثم أصبحتا كتلة متميزة عن الأتراك، وإن لم تنفض كلياً عنها.

كان الفراغنة قد شاركوا في قتال بابك الخرمي، وعندما حاصره الأفشين، وجه بشيراً التركي وقواداً من الفراغنة ليبيّتوا بابك في مخبأه[4]. وفي حوادث غزو المعتصم للروم وفتحه عمورية ذكر عمرو بن أريحا الفرغاني،[5] وكان فيها يقاتل مع عجيف بن عنبسة،[6] ومع الأشاس،[7] وكان ممن أيد العباس بن المأمون في مؤامرته على المعتصم فقتله المعتصم وفشلت المؤامرة إلا أن أول ذكر للفراغنة كجماعة متميزة ترجع إلى زمن المتوكل،[8] الذي جفاهم فعمل المنتصر على اجتلابهم. وفي هذا يقول المسعودي: كان المنتصر لا يبعد المتوكل أحداً إلا اجتذَبَه، فاستمال قلوب الأتراك وكثيراً من الفراغنة والأشروسنية[9] ولا بدّ أن هذا

(١) البلدان ٢٦٧.
(٢) المصدر نفسه ٢٦٣.
(٣) مروج الذهب ٤/٤٦٢.
(٤) الطبري ٣/١٢٤٦-١٢٥٦.
(٥) م. ن ٣/١٢٣٢.
(٦) م. ن ٣/١٢٦٧.
(٧) م. ن ٣/١٢٣٨.
(٨) م. ن ٣/١٢٣٤.
(٩) مروج الذهب ٤/٥٩.

قوّى عزيمة المنتصر على قتل أبيه المتوكل وأكسبهم في زمنه مكانة لم تذكر المصادر آثارها.

ولما وَلِيَ المستعين الخلافة بذَّر الأموال هو وأوتامش فاضطرب عطاء الجند. ويبدو أن الأتراك والفراغنة كانوا أكثر تأثُّراً بهذا التبذير، ولعل المستعين لم يقربهم فضعفت مكانتهم التي كانت لهم في زمن المنتصر، واستغل ذلك وصيف وبغا، فأغْرَيَا الموالي «فتذمرت الأتراك والفراغنة على أوتامش، وخرج إليه ممَّن تبقى من أهل الدور والكرخ فعسكروا وزحفوا إليه وهو في الجوسق»[١]. ولابدّ أن موقف المستعين دفع الفراغنة إلى تأييد المعتز الذي اصطنع المغاربة والفراغنة[٢]، فلما انتقل المستعين إلى بغداد وتحصَّن بها ساندوا المعتز الذي اعتمد عليهم وطلب من كلباتكين التحصن فيها فعسكر بالقاطول في خمسة آلاف من الأتراك والفراغنة وألفين من المغاربة[٣]. ثم «وجه المعتز عسكراً من الأتراك والمغاربة والفراغنة ومن هم في عِدادهم، وعلى الأتراك والفراغنة الدرغمان الفرغاني، وعلى المغاربة ريلة»[٤] ولابدّ أن وضع القيادة لفرغاني يشير إلى كثرتهم العددية وإلى قوَّتهم التي لم تحددها المصادر، وإلى أن الفراغنة كانوا من أبرز قوات المعتز التي حاصرت بغداد،[٥] وأنهم احتفظوا بمكانة متميزة في زمن خلافته، ولما كتب المعتز إلى مزاحم يطلب الإسناد «أجابه الأتراك والفراغنة والمغاربة والشاكرية»[٦].

ولم يؤيد الفراغنة المهتدي وكان الذين ثاروا عليه معتمدين على رجال «ما بين تركي وخزري وفرغاني وغيرهم من علوج الأعاجم»[٧].

---

(١) الطبري ٣/١٥١٣، مروج الذهب ٤/٩١.
(٢) مروج الذهب ٤/٩١.
(٣) الطبري ٣/١٩٥٦.
(٤) م.ن ٣/١٥٦٢.
(٥) م.ن ٣/١٥٤١، ١٥٣.
(٦) م.ن ٣/١٦٦٩.
(٧) مروج الذهب ٣٤/٩٩.

وآخر ذكر للفراغنة هو عندما شغبوا مع الأتراك والأشروسنة «وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر»[1].

حدَّد اليعقوبي منازل الفراغنة في سامرَّاء حيث قال عن شوارعها الخمسة: «والشارع الرابع يعرف بشارع برغامش التركي»، فيه قطائع الأتراك والفراغنة ودروب الأتراك منفردة، والفراغنة في الدروب التي في القبلة، والفراغنة بإزائهم في الدروب التي في ظهر القبلة، كل درب إزاء درب لا يُخالطهم أحد من الناس، وآخر منازل الأتراك وقطائعهم منازل الحرز مما يلي المشرق، أوَّل هذا الشارع من المطيرة عند قطائع الأشروسنية.

والشارع الخامس يعرف بصالح العباس، وهو شارع الأسكر فيه قطائع الأتراك والفراغنة، والأتراك أيضاً في دروب منفردة، ويمتد من المطيرة إلى دار صالح العباسي التي تقع على رأس الوادي ويتصل هذا بقطائع القُوَّاد والكتّاب والوجوه والناس كافة[2].

ويقول أيضاً شارع الحير في أخلاط من الناس من قواد الفراغنة والأشروسنية وغيرهم من سائر كور خراسان[3].

تُظهر هذه النصوص مدى انتشار خطط الفراغنة، وأنه يعتبرهم من «كور خراسان» وهم متميزون عن الأتراك غير أنهم يجاورونهم في السكن.

وذكر أن المعتصم «أفرد قطائع الأتراك عن قطائع الناس جميعاً، لا يجاورهم إلا الفراغنة[4] وصيرت قطائع الأتراك جميعاً والفراغنة العجم بعيدة عن الأسواق والزحام في شوارع واسعة ودروب طوال لا يختلط بهم من تاجر ولا غيره»[5].

(١) الطبري ٣/١٦٨٧.
(٢) البلدان ٢٦٢.
(٣) م.ن ٢٦٣.
(٤) م.ن ٢٥٨.
(٥) م.ن ٢٥٨-٩.

الأشروسنية:

بدأ في زمن المأمون استخدام الأشروسنية في جيوش الخلافة في بغداد، فيروي البلاذري أنه لمَّا استخلف المأمون أغزى السغد والأشروسنية ومن انتفض من أهل فرغانة. وكان من تسريحه الخيول إليهم بكتابهم بالدعاء إلى الإسلام والطاعة والترغيب فيهما[1]. ويَذكر أيضاً أن كاوس ملك أشروسنة انضم إلى الإسلام وورد مدينة السلام، وملّكه المأمون على بلاده، ثم ملّك خيدر ابنه، وهو الأفشين. وكان المأمون رحمه الله يكتب إلى عماله على خراسان في غزو من لم يكن على الطاعة والإسلام من أهل ما وراء النهر من أهل تلك النواحي وأبناء ملوكهم، ويستميلهم بالرغبة، فإذا وردوا بابه شَرَّفهم وأغنى صلاتهم وأرزاقهم. ثم استخلف المعتصم بالله فكان على مثل ذلك حتى صار جلّ عسكره من جند أهل ما وراء النهر من السغد والفراغنة والأشروسنية وأهل الشاش وغيرهم، وحضر ملوكهم بابه، وغلب الإسلام على من هناك وصار أهل تلك البلاد يغزون من ورائهم[2]. يتبين من هذا أن الأشروسنية والفراغنة والسغد كانوا أحراراً ولبعضهم مكانة متميزة في بلادهم، وأنهم جاؤوا طوعاً إلى بغداد منذ زمن المأمون بعد أن أسلموا (فشرفهم وأغنى صلاتهم وأرزاقهم) وكانوا مسجلين في الديوان ومرتبطين بالدولة.

ويقول المسعودي إن المعتصم جعل للأتراك مكانةً متميزة وجاورهم الفراغنة والأشروسنية وغيرهم من مدن خراسان على قدر قربهم منهم في بلادهم[3]. والمسعودي في هذا النص يعتبر الفراغنة والأشروسنية من أهل خراسان، ويشير إلى أقوام أخرى من أهل خراسان نظمت خططهم تبعاً لمواقع مدنهم الأصلية على قدر قربهم منهم في بلادهم.

ذكر الأشروسنية كجماعة متميزة في حوادث الشغب على المستعين عند

---

(١) فتوح البلدان ٣/ ٤٦٢.

(٢) المصدر نفسه ٤٣٠.

(٣) مروج الذهب ٣/ ٤٦٧.

بيعته، فلما هاجم المشاغبون دار العامة، وفيها المستعين شدّ عليهم المغاربة والأشروسنية، ووافى واجن الأشروسني[1]، وكان الموالي قد اجتمعوا إلى الهاروني «وفيهم بغا الصغير وبغا الكبير أوتامش، فاستحلفوا قواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية[2]».

أيد الأشروسنية المستعين، فلما قدم الحسن بن الأفشين بغداد، خلع عليه المستعين وضم إليه من الأشروسنية وغيرهم جماعة كثيرة وزاد في أرزاقهم ستة عشر ألف درهم في كل سنة[3]. ويُظهر هذا أن موقفهم يخالف الفراغنة والأتراك الذين أيدوا المعتز، ولم تشر المصادر إلى مقدار أرزاقهم قبل ذلك، أو مقدار ما يصيب الفرد من هذه الزيادة غير أنهم شاركوا فيما بعد الأتراك والفراغنة في الشغب وطلبوا أرزاقهم لأربعة أشهر[4].

إن أبرز رجال الأشروسنية هم: الأفشين وواجن، وتُلْقِي سيرة الأفشين ضوءاً على الأشروسنية، وقد أجملت المقالة التي كتبها عنه بارتُولْد وجِبْ في دائرة المعارف الإسلامية أصله ونشأته. فقد جاء في المقالة أن الأفشين لقَبٌ للأمراء من أهل أشروسنة التي تقع بين سمرقند وخجندة في المجرى الأدنى لنهر زرفشان، وهي من بلاد الصغد، وقد تمَّ ضمها إلى بلاد الإسلام على يد الفضل بن يحيى البرمكي سنة ١٧٨، ثم في الحملة التي قادها أحمد بن أبي خالد سنة ٢٠٧، وانضم على أثرها الأمير خيدر الذي غلب عليه في الكتب العربية اسم الأفشين، وولاه المعتصم، إبَّان إمارته على مصر في زمن المأمون على برقة ثم على مصر، وقاد الجيوش الإسلامية التي قضت على تمرد بابك الخُرَّمي في أذربيجان سنة ٢٢٢، ثم شارك في حملة المعتصم على عمورية ثم اتهم باتصال مريب مع المازيار وأعدم في سنة ٢٢٦. لابدّ أن موت الأفشين أثّر في مكانة الأشروسنيين، ولكنهم ظلوا عنصراً من عناصر عسكر سامرَّاء. وكانت للحسن بن الأفشين مكانة في سامرَّاء فتزوج ابنة أشناس في حفلة فخمة

---

(١) الطبري ٣/ ١٥٠٣.
(٢) م.ن ٣/ ١٥٠١.
(٣) م.ن ٣/ ١٥٥٥.
(٤) م.ن ٣/ ١٦٧٨.

ودخل بها في العمري قصر المعتصم[١]، واحتفظ بمكانته في زمن المتوكل وحبس مدة قصيرة ثم خرج من السجن وساند المستعين في حصار بغداد، وأوكل إليه الدفاع عن باب الشماسية[٢]. أما واجن فقد نسبه الطبري لأشروسني الصغد مما يؤيد أن الأشروسنية كانوا متميزين عن الأتراك[٣]. وكان من قواد الأفشين ينوب في دار أمير المؤمنين كما ينوب القواد، وقد أرسل مدداً لبغا الذي كان يحارب بني نمير «في سبعمائة رجل من الأشروسنية»[٤]، ولم يشارك في مقتل المتوكل[٥]، ولكنه علم به، وحضر بيعة المستعين[٦]، وشارك في بيعة المهتدي[٧]، وكان في الجيش الذي أرسله المعتز لحصار المستعين في بغداد.

ذكر اليعقوبي موقع قطائع الأشروسنية فقال: أقطع الأفشين خيدر بن كاوس الأشروسني في آخر البناء مشرقاً على قدر فرسخين وسمّى الموضع المطيرة، فأقطع أصحابه الأشروسنية وغيرهم المضمومين إليه حول داره، وأمره أن يبني هناك سويقة فيها حوانيت للتجار فيما لابدّ منه ومساجد وحمّامات[٨]. وبناء السويقة لحوانيت التجار في هذه القطائع يجعلها مختلفة عن قطائع الأتراك الذين عزلهم ومنعهم من الاختلاط بالناس، كما أن قوله إن المطيرة سكنها أيضاً من (المضمومين إليه) من غير الأشروسنية يظهر أن الأشروسنية كانوا مختلطين مع غيرهم من البداية، ولا بدّ أن هذا الاختلاط زاد بعد مقتل الأفشين حيث إن المعتصم أقطع وصيفاً دار الأفشين بالمطيرة، وانتقل وصيف من داره القديمة إلى دار الأفشين، ولم يزل يسكنها وأصحابه[٩].

---

(١) الطبري ٣/١٣٠٣.
(٢) م.ن ٣/١٥٥٦.
(٣) م.ن ٣/١٣٦٢.
(٤) م.ن ٣/١٣٠٧.
(٥) م.ن ٣/١٤٧٢.
(٦) م.ن ٣/١٥٧٢.
(٧) م.ن ٣/١٥٧٢.
(٨) البلدان ٢٥٩.
(٩) المصدر نفسه ٢٦٤.

الفصل الثالث عشر

الأتراك ومنازلهم

القطائع

ذكر اليعقوبي ثلاثة تعابير لمنازل الأتراك وقطائعهم في سامرَّاء، هي قطائع مسماة بأسماء أفراد، وقطائع مسماة بأسماء أفراد وجماعاتهم، وقطائع مسماة بأسماء جماعات.

فأما القطائع المسماة بأسماء أفراد فقد ذكر منها في شارع أبي أحمد قطيعة لكلٍّ من بغا الصغير وبغا الكبير، وسيما الدمشقي، وبرغامش، وقطيعة وصيف القديمة، وإيتاخ ويتصل ذلك بباب البستان[1]، وهؤلاء من الأتراك ومنهم ثلاثة ممن كان قد اشتراهم في بغداد، أي لم يجلبهم من أواسط آسيا، وهم إيتاخ وسيما ووصيف، إضافة إلى أشناس؛ ولم يذكر لأيٍّ منهم جماعة يرأسها.

وذكر في شارع الحير الأول قواد الفراغنة والأشروسنية والأشتاخنجية وغيرهم من سائر كور خراسان[2]؛ ولم يذكر من كان معهم من الجماعات التي لعلها لم تكن كبيرة.

أما القطائع التي أقطعت للقواد وأصحابهم فإنه لم يحدد هؤلاء الأصحاب أو عددهم. والراجح أن أكثرها إن لم يكن كلها للأتراك، فذكر اليعقوبي أنه «أقطع خاقان عرطوج وأصحابه مما يلي الجوسق الخاقاني وأمر بضم أصحابه

---

(١) البلدان ٢٥٨.

(٢) المصدر نفسه ٢٦٢.

ومنعهم من الاختلاط بالناس[1]». وأقطع وصيفاً وأصحابه مما يلي الحير وبَنَى حائطاً وسماه حايط الحير[2]؛ وكلا الموقعين قريب من مكائن إقامة الخليفة المعتصم.

وأقطع الأفشين بن خيدر بن كاوس الأشروسني في آخر البناء مشرقاً قدر فرسخين وسمّى الموضع المطيرة، فأقطع أصحابه الأشروسنية وغيرهم من المضمومين اليه حول داره[3].

ثم أقطع وصيفاً دار الأفشين التي بالمطيرة وكان أصحابه ورجاله حوله[4] ولا يوضح اليعقوبي فيما إذا كانت الأشروسنية بقيت في مكانها بعد انتقال وصيف، ولا بدّ أن انتقال وصيف وجماعته رافقه إعادة تنظيم المطيرة، حتى لو بقي فيها الأشروسنية.

وبالقرب من المتوكلية وجنوبها كانت الإيتاخية على القاطول عند المحمدية، وسُمِّيت بإيتاخ لأنها أقطعت له فيما يظهر[5]، وهو من قواد المعتصم البارزين ولم تذكر المصادر ما يرجح بأنه سكنها الأتراك معه. وفي الإيتاخية بنى المتوكل قصراً أنفق عليه عشرة آلاف درهم[6]، وأقطع أشناس التركي في آخر البناء مغرباً، وأقطع أصحابه معه وسُمِّيَ الموضع الكرخ[7]. وضم إليه عدة من قواد الأتراك والرجال[8]، وذكر البلاذري أن المعتصم أنزل أشناس مولاه فيمن ضم إليه من القواد كرخ فيروز.[9] وأقطع قوماً آخرين فوق الكرخ وسماه الدور[10]، ولعلهم كانوا من الأتراك أيضاً، و إن لم ينص على ذلك.

(1) البلدان ٢٥٨.
(2) م.ن ٢٥٨.
(3) م.ن ٢٥٩، ٢٦٠.
(4) م.ن ٢٦٠.
(5) معجم البلدان ٤/ ٤٣٠.
(6) المصدر نفسه ٤/٧.
(7) البلدان لليعقوبي ٢٥٩.
(8) المصدر نفسه ٢٥٨.
(9) الطبري ١٣٢٨/٣، فتوح البلدان ٢٩٩.
(10) البلدان لليعقوبي ٢٥٦.

وذكر قطائع الأتراك والفراغنة، ومنها في شارع برغامش التركي وهو الشارع الرابع آخر منازل الأتراك وقطائعهم قطائع الخزر مما يلي المشرق، وأول هذا الشارع من المطيرة عند قطائع الأفشين[1].

وجعل في شارع صالح العباسي، وهو شارع الأسكر قطائع الأتراك والفراغنة ؛ الأتراك في دروب منفردة، والفراغنة في دروب منفردة ممتدة من المطيرة إلى دار صالح العباسي.[2]

وكلا الشارعين في الأطراف الجنوبية من الإعمار وبالقرب من المطيرة، ويتبين من هذا السرد أن الغالبية العظمى للأتراك أُنزلوا من الأطراف الجنوبية من الإعمار كالمطيرة ؛ وبعضها نائية عنه كالكرخ والدور. ولعل الإيتاخية التي بين الكرخ والمطيرة كان ينزلها الترك.

تنظيم إقامة الأتراك:

أشار اليعقوبي إلى التنظيمات الخاصة التي وضعها المعتصم للأتراك في سامرَّاء فقال إن المعتصم[3] أفرد قطائع الأتراك عن الناس جميعاً، وجعلهم معتزلين عنهم لا يختلطون بقوم من المولدين ولا يُجاورهم إلا الفراغنة.[4] قال: «وصيرت قطائع الأتراك جميعاً والفراغنة العجم بعيدة عن الأسواق والزحام، في شوارع واسعة ودروب طوال، ليس معهم في قطائعهم ودروبهم أحد من الناس، لا يختلط بهم من تاجر ولا غيرهم ثم اشترى لهم الجوارة»[5].

وقال إن المعتصم أقطع أشناس وأصحابه في الكرخ وأمَرَه أن لا يطلق لغريب من تاجر ولا غيره مجاورتهم، ولا يطلق معاشرة المولَّدين. وجعل في

(١) البلدان لليعقوبي ٢٥٦.
(٢) م.ن ٢٦٢.
(٣) م.ن ٢٦٠.
(٤) م.ن ٢٥٨.
(٥) م.ن ٢٥٩.

موضع سويقة للفاميين والقتّابين ومن اشتبههم ممن لا بدّ لهم منه. وبنى لهم في خلال الدور والقطائع المساجد والحمّامات، وأمر أشناس أن يبني في المطيرة سويقة فيها حوانيت للتجار، فيما لابدّ منه، ومساجد وحمّامات وليس في ذلك الموضع يومئذٍ شيء من العمار.[1]

وفي كلام اليعقوبي عن شارع برغامش، وهو الشارع الرابع من شوارع سامرَّاء الستة ذكر أن هذا الشارع فيه قطائع الأتراك والفراغنة، فدروب الأتراك منفردة ودروب الفراغنة منفردة والأتراك في الدروب التي في القبلة، والفراغنة بإزائهم بالدروب التي في ظهر القبلة، كل درب بإزاء درب، لا يخالطهم أحد من الناس[2]. وعند قطائعهم الخزر مما يلي المشرق؛ وأول هذا الشارع من المطيرة عند إقطاع الأفشين.

وذكر أن الشارع الخامس يعرف بصالح العباسي، وهو شارع الأسكر فيه قطائع الأتراك والفراغنة والأتراك أيضاً في دروب منفردة، والفراغنة في دروب منفردة ممتدة من المطيرة، إلى دار صالح بن العباس التي على رأس الوادي.[3]

إن إفراد قطائع الأتراك عن قطائع الناس وعزلَهم عن غيرهم يبرره تحاشي المعتصم تكرار ما حدث في بغداد من احتكاك يثير الناس. ومما ييسر ذلك أن الأتراك لهم لغة خاصة، مما يبرر عزلهم عن غيرهم من الجند والعامة.

تُظهر هذه النصوص أن المعتصم حرص على عدم اختلاط الأتراك بالمولدين، وألا يتزاوجوا معهم، وأفرد دروبهم حتى عن الفراغنة. وامتد عزلهم، فيما ذكر اليعقوبي إلى التزاوج، فقد «اشترى لهم الجواري فأزوجهم منهن ومنعهم أن يتزوجوا ويتصاهروا إلى أحد من المولدين إلى أن ينشأ لهم الولد، ويتزوج بعضهن إلى بعض. وأجرى لجواري الأتراك أرزاقاً قائمة وأثبت أسماءهن في الدواوين، فلم يقدر أحد منهم أن يطلّق امرأته ولا يفارقها».[4]

(١) البلدان ٢٥٥.
(٢) م.ن ٢٦٢.
(٣) م.ن ٢٥٩.
(٤) م.ن ٢٥٩.

وبهذا القرار عمل على إبقاء تميُّزهم العرقي وما يتبعه من مظاهر الحضارة واللغة. ولا بدّ أنه فضل في الجواري اللاتي اشتراهن لهم أن يَكُنّ من الأتراك أيضاً. وهذا عمل متصل بالأحوال الحضارية بالدرجة الأولى. ولم يرد ذكر لعملٍ للمعتصم يهدف إلى الحفاظ على كفاءتهم القتالية وتدريبهم العسكري. وهذه التنظيمات لم يرد ذكر لمثلها أو لما يشبهها في أي مكان آخر في تاريخ الإسلام ونُظُمِه، وهي لا تنسجم مع أحكام التشريع الإسلامي إلا على الرقيق، فكأنه ينفِّذ ذلك عليهم باعتبارهم ونسلهم رقيقاً، ولا نعلم مدى تطبيقها على رقيق وغلمان الآخرين، علما بأنها تتطلَّب تنظيمات خاصة في سجلات الدواوين، وأنها كانت مُكْلِفة مادياً؛ ولم تذكر المصادر تطبيقها على غير الأتراك، ولعل بعض المبرر لذلك أن أصلهم رقيق، وأن عددهم غير كبير.

وأمر أشناس التركي الذي أقطع الكرخ «أن لا يطلق لغريب من تاجر وغيره مجاورتهم ويطلق معاشرة المولدين» وأمره أن يبني المساجد والأسواق.

وجعل في شارع الأسكر، وهو شارع صالح العباسي «قطائع الأتراك في دروب منفردة، والفراغنة في دروب منفردة، ممتدة من المطيرة إلى شارع صالح العباسي».

تنظيم الأتراك وعطاؤهم:

ورد أول ذكر لتنظيم الأتراك وعطائهم في زمن المتوكل الذي لما بويع «أمر للأتراك برزق أربعة أشهر، وللجند والشاكرية ومن يجري مجراهم من الهاشميين برزق ثمانية أشهر، وأمر للمغاربة برزق ثلاثة أشهر»(١). ولاريب في أنه أعطاهم في هذا الحد الأعلى المُرْضي لهم في هذه المناسبة التي تستحق التكريم لإرضائهم. إلا أن المصادر لم تذكر ما كان يُعطى لهم قبل ذلك.

وذكر الطبري أن المستعين قال للأتراك الذين زحفوا إليه وهو في الجوسق: «ألم ترفعوا إليّ في أولادكم، فألحقتهم بكم، وهم نحو من ألفي غلام، وفي

---

(١) الطبري ٣/ ١٣٧٠.

بناتكم فأمرت بتصييرهن في عداد المتزوجات، وهن نحو من أربعة آلاف امرأة في المدركين والمولودين، وكل هذا قد أجبتكم إليه، وأدررت لكم الأرزاق حتى سَبَكْتُ لكم آنية الذهب والفضة، ومَنَعْتُ نفسي لذّتها وشهوتها، كل ذلك إرادة لصلاحكم ورضاكم، وانتم تزدادون بغياً وفساداً وتهدداً وإبعاداً»[(١)].

إن هذا النص يذكر «الأتراك» إطلاقاً، فكأنه يشير إلى كافتهم، وليس إلى جماعة محدودة منهم، علماً بأنهم كانوا جماعات منازلهم متفرقة، ولهم قواد متعددون. وهو يذكر أن أولادهم «نحوٌ من ألف غلام وبناتهم نحوٌ من أربعة آلاف ومن هذا لن يكون عدد رجالهم أكثر من ستة آلاف، وهي النسبة التي تَقْرُب مما كان عليه العيالات في البصرة والكوفة في أوائل زمن الأمويين. ويذكر النص أنه أدرَّ لهم «الأرزاق» ولم يذكر مقدارها ولكنه يشير إلى أن بيت المال لم يتوافر فيه ما يَسُدُّ رزقهم.

ويتصل بهذا ما رواه الطبري في حوادث سنة ٢٥٦، وهي غير بعيدة عن زمن خلافة المستعين، فيقول: «تحرك الموالي بالكرخ والدور، وَوَجَّهوا إلى المهتدي رجلاً وشكَوْا سوء حالهم وتأخر أرزاقهم، وما صار من الإقطاعات إلى قوادهم التي قد أجحفت بالضياع والخراج، وما صار لكبرائهم من المعاون والزيادات من الرسوم القديمة، مع أرزاق النساء والدُّخلاء الذين قد استغرقوا أكثر أموال الخراج»[(٢)]، ويقول: «ولما تجمّعوا في دار أشناس قال لهم المهتدي : اكتبوا عن القواد وخلفائهم بالكرخ والدور وسامرَّاء». ووعد أن «تعاد رسومهم إلى ما كانت عليه أيام المستعين بالله، وهو أن يكون على كل تسعة منهم عريف، وعلى كل خمسين خليفة، وعلى كل مائة قائد؛ وأن تسقط النساء والزيادات والمعاون، ولا يدخل مولى في قبالة ولا غيرها؛ وأن يوضع لهم العطاء في كل شهرين على ما لم يزل، وأن تبطل الإقطاعات، وأن يكون أمير المؤمنين يزيد مَنْ شاء ويرفع مَنْ شاء»[(٣)].

---

(١) الطبري ٣/ ١٥٤٤.

(٢) م.ن ٣/ ١٧٩٦.

(٣) م.ن ٣/ ١٧٩٩.

يظهر أول هذا النص أنه ينحصر بالموالي، غير أن المحتجين من «الكرخ والدور» قد يدل على أنه يشمل الأتراك الذين لم يكونوا راضين عن المهتدي: وتُظْهر شكواهم سوء حالهم وتأخر أرزاقهم والمغانم الكثيرة التي صارت إلى قوادهم وأجحفت بالضياع والخراج والزيادات التي صارت لكبرائهم وأرزاق النساء والدخلاء مما استنفد أكثر أموال الخراج، وأن المهتدي وعدهم بأن يعاد تطبيق النظام الذي كان معمولاً به في زمن المستعين، وهو أن يوضع لهم العطاء في كل شهرين، وأن تسقط النساء والزيادات والمعاون، وتبطل الإقطاعات، ولا يدخل مولى في قبالة، ووعد أن يثبت التنظيم الذي كان في زمن المستعين، وهو أن يكون على كل تسعة عريف وعلى كل خمسين خليفة وعلى كل مائة قائد، وأن هذا النظام مقبول عندهم. وأن يكون اختيار من يقوم بهذا التنظيم بيد الخليفة؛ وهذا ما كان يرضيهم.

غير أنهم «وصفوا أن لا يقنعهم إلا أن ينفذ إليهم خمس توقيعات: توقيعاً بخط الزيادات وتوقيعاً بردّ الإقطاعات، وتوقيعا بإخراج الموالي البوابين من الخاصة إلى الأعداد البرانيين، وتوقيعاً بردّ الرسوم إلى ما كانت عليه أيام المستعين، وتوقيعاً بردّ التلاجيء حتى يدفعوها إلى رجل يضمّون إليه خمسين رجلاً من أهل الدور، وخمسين رجلاً من أهل سامرَّاء ينتجزون من الدواوين.. وطالبوا تعجيل العطاء وإدرار أرزاقهم عليهم في كل شهرين».[1]

وقالوا عن المهتدي: «إنْ وَعَدكم أن يعطيكم أرزاق ستة أشهر فنحن عبيده».[2] ثم تحرك ساكنو الكرخ بسامرَّاء والدور يطلبون أرزاقهم، وكان موسى ابن بغا وضع العطاء في عسكره لشهر. ثم «وجه المهتدي إلى الفراغنة والمغاربة والأوكشية والأتراك الذين بايعوه على الدرهمين والسويق».[3]

يُظهر هذا النص أنهم طالبوا بخمس توقيعات مستقلة تتضمن حذف الزيادة

---

(١) الطبري ٣/١٨٠١.
(٢) م.ن ٣/ ١٨٠٣.
(٣) م.ن ٣/١٨١٤.

وردّ الإقطاعات والتلاجئ وردّ الرسوم إلى ما كانت عليه أيام المستعين التي كانت معيار رضاهم، وإن لم تذكر المصادر ما كان قبلها، مما لابدّ أنه غير مرضِي. وفصلوا بين العطاء والرزق، وطالبوا بإدرار الرزق كل شهرين، وأن المهتدي وعدهم أن يكون العطاء لشهرين.

الفصل الرابع عشر
سامرَّاء بعد انتقال الخلافة منها

ظلت لسامرَّاء مكانة بعد أن انتقل منها الخلفاء. ففي سنة ٢٩٠ خرج المكتفي «عامداً سامرَّاء مريداً البناء بها للانتقال إليها، فدخلها.. ثم انصرف إلى مضارب ضربت له بالجوسق، فدعا القاسم بن عبيد الله والقوّام بالبناء، وما يحتاج إليه من المال للنفقة عليه، فكثروا عليه في ذلك، وطوَّلوا مدة الفراغ مما أراد بناءه، وظل القاسم يصرفه عن رأيه في ذلك ويُعَظّم أمر النفقة في ذلك وقدر مبلغ المال، فثناه عن عزمه. ورجع أكثر الناس من الطريق قبل أن يصلوا إلى سامرَّاء حيث تلقّاهم الناس راجعين»[١].

ولما فشل ابن المعتز في ثورته على المقتدر أراد أن يذهب إلى سامرَّاء فلم ينجده أحد[٢]، وسافر إليها الراضي خوفاً من الديري الذي تقدم إلى بغداد[٣] وكان الراضي قد نظم شعراً رواه الصولي يمدح فيه سامرَّاء[٤].

وذكر ممن وَلِيَ القضاء بها أحمد بن محمد الهاشمي (٣١٥-٣٩٠)[٥] ونُفِيَ إليها القاضي ابن أبي الشوارب[٦]

---

(١) الطبري ٣/ ٢٢٢٣؛ تحفة الوزراء للصابي ١٤٤، ١٦٢، ٢١٧، ١٥٠. المنتظم ٦/ ٣٨.

(٢) الطبري ٣/ ٢١٢٣-٤، المنتظم ٦/ ٨١.

(٣) أخبار الراضي والمتقي للصولي ٧٦.

(٤) المصدر نفسه ١٨٠/ ١٨١.

(٥) المنتظم٧/ ٢١٠.

(٦) تكملة الطبري للهمذاني ٣٥٢.

وكانت في سامرَّاء نقابة، ذكر من النقباء أبو البركات سعد الله[1]، وذكر ابن الجوزي حريقاً وقع سنة ٤٠٧ في بعض الجامع بسامرَّاء[2].

والواقع أن سامرَّاء بعد أن ترك الخلفاء إقامتهم فيها تدهورت أحوالها العمرانية وقلّ سكانها كما يتضح ذلك من وصف بلداني القرن الرابع الهجري لها.

ومن مظاهر تدهور أحوالها أنها كانت من المراكز التي تسك فيها النقود منذ تأسيسها إلى سنة ٣٢٣؛ ثم توقف السك منذ تلك السنة، وفي السنوات ٢٥٥، ٢٥٩، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٣، ٢٧٥-٢٧٨، ٣١٥، ٣١٦، ٣٢٠، ولعل بعض هذا النقص راجع إلى عدم اكتشاف مسكوكات ضُربت فيها؛ ثم توقف سك النقود فيها، مما يدل على تناقص مواردها المالية.

ومن دلائل تدهور أحوالها في العهود العباسية أن المنذري في كتابه «التكملة في وفيات النقلة» لم يذكر ممن توفى في العهود العباسية المتأخرة، رجلاً منسوباً إلى سامرَّاء وإنما ذكر اثنين منسوبين إلى قادسية سامرَّاء، هما أبو عبيدة الله[3](٣/ ٢٢٥٩)، وأحمد بن محمد بن علي[4](٣/ ١٩٩٩)، وذكر أن أحمد بن الحسين العتابي توفي في القادسية سامرَّاء (٢/ ١٤٦١).

أشار البلدانيون إلى تدهور أحوالها، فالإصطخري لم يخصها إلا بسطرٍ ذكر أنها محدثة[5] بها ويقول اليعقوبي في «التاريخ» وخرج المعتصم إلى القاطول في النصف من ذي القعدة سنة ٢٢٠ فاختط المدينة التي بدأها وأقطع الناس القطائع وجدَّ في البناء حتى بنى الناس القصور والدور والأسواق ثم ارتحل من القاطول إلى سرّ من رأى[6].

(١) تكملة الطبري للهمذاني ٢١١.
(٢) المنتظم ٧/ ٢٨٣.
(٣) التكملة في وفيات النقلة ٣/ ٢٢٥٩.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المسالك.
(٦) تاريخ اليعقوبي ٣/ ١٩٨-٩.

ويذكر اليعقوبي في كتابه «البلدان» «فثقل ذلك على المعتصم وعزم الخروج من بغداد فخرج إلى الشماسية وهو الموضع الذي كان المأمون يخرج إليه فيقيم به الأيام والشهور، فعزم أن يبني بالشماسية خارج بغداد مدينة، فضاقت عليه أرض ذلك الموضع وكره أيضاً قربها من بغداد فمضى إلى البردان بمشورة الفضل بن مروان وهو يومئذٍ وزيره وذلك في سنة ٢٢١، وأقام بالبردان أيضاً وأحضر المهندسين، ثم لم يرضَ الموضع فصار في موضع يقال له باحمشا من الجانب الشرقي من دجلة، فقدر هناك مدينة على دجلة وطلب موضعاً يحفر فيه نهراً فلم يجد فنفذ إلى القرية المعروفة بالمطيرة فأقام بها مدة، ثم مدّ إلى القاطول فقال هذا أصلح المواضع فصير النهر المعروف بالقاطول وسط المدينة ويكون البناء على دجلة وعلى القاطول، فابتدأ بالبناء، وأقطع القواد والكتّاب والناس، وبنوا حتى ارتفع البناء واختطت الأسواق على القاطول وعلى دجلة، وسكن هو في بعض ما بني له، وسكن بعض الناس أيضاً ثم قال أرض القاطول غير طائلة وإنما هي حصّى وأفهار، والبناء بها صعب جداً، وليس لأرضها سعة»[1]، وروى المسعودي أن المعتصم عندما استاء من معاملة أهل بغداد لجنده «فعزم على النقلة منهم وأن ينزل بفضاء من الأرض، فنزل البردان على أربعة فراسخ من بغداد. فلم يستطب هواءها ولا اتسع له أرضها، فلم يزل يتنقل ويستقري المواضع والأماكن حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالقاطول، فاستطاب الموضع، وكان هناك قرية يسكنها قوم من الجرامقة وناس من النبط على النهر المعروف بالقاطول آخذاً من دجلة، فبنى هناك قصراً، وبنى الناس وانتقلوا من مدينة السلام، ثم نالت مع المعتصم شدة عظيمة لبرد الموضع وصلابة أرضه، وتأذّوا بالبناء»[2]. تفرد المسعودي بهذه الرواية التي ذكر فيها أنه كان في القاطول قرية الجرامقة والنبط، مع أن المعروف أن موطن الجرامقة بلاد الشام، فإذا صحت رواية المسعودي فقد يكون القصد منها قرية سكنها اليعاقبة ممن نقلوا من بلاد الشام في زمن لا تحدده المصادر.

---

(١) البلدان ٢٥٦، ونقل هذا النص الحميري في الروض المعطار ٣٤٥.
(٢) مروج الذهب ٣/٤٦٦.

أما مقام المعتصم عند القاطول فقد ذكرته عدة مصادر، والمسعودي نفسه يذكر أن المعتصم عندما خرج من بغداد سنة ٢٢٠ إلى ناحية القاطول فنزل قصراً كان الرشيد قد ابتناه هنالك، وهمّ أن يبني في ذلك الموضع ثم بدا له(١).

وذكر البلاذري أن المعتصم شخص إلى القاطول فنزل قصراً كان الرشيد ابتناه، ثم بنى بالقاطول بناءً ودفع ذلك القصر إلى أشناس التركي مولاه وهمّ بتمصير ما هناك وبدأ بناء مدينة ثم تركها(٢).

وذكر المقدسي أن سامرّاء من مدنها الكرخ، علث، هيت، الأنبار، تكريت، السن. وذكر أن مدن سامرّاء أجَلّ من مدن بغداد. أما سامرّاء فقال إنها، كانت مصراً عظيماً ومستقر الخلفاء في القِدَم، اختطها المعتصم وزاد فيها بعده المتوكل، وصارت موحشة، وكانت عجيبة حتى سُمّيت سُرَّ من رأى، والآن قد خربت، يسير الرجل الميلين والثلاثة لا يتركه عمارة(٣).

وذكر ابن جبير أنه في رحلته من بغداد إلى الموصل نزل على شط دجلة بمقربة من قصر يعرف بالمعشوق، وعلى قبالة هذا الموضع في الطرف الشرقي مدينة سُرَّ من رأى، وهي اليوم عبرةٌ لمن رأى، وكانت بمعتصمها وواثقها ومتوكلها، مدينة كبيرة، قد استولى الخراب عليها إلا بعض جهات منها هي اليوم معمورة، وقد أطنب المسعودي رحمه الله في وصفها ووصف طيب هوائها ورائق حسنها، وهي كما وصف، وإن لم يبقَ إلا الأثر من محاسنها(٤).

وذكر ياقوت أن سامرّاء خَرِبت حتى لم يبقَ فيها إلا موضع المشهد الذي

---

(١) التنبيه والإشراف ٣٠٩.

(٢) فتوح البلدان ٢٩٦؛ ولعل البلاذري قصد به قصر الأفشين في المطيرة الذي أعطاه المعتصم لأشناس بعد قتله الأفشين.

(٣) أحسن التقاسيم ١٢٣.

(٤) رحلة ابن جبير ٢١٨ طبعة حسين نصار.



صورة سامرّاء الحالية

ترى الشيعة أن به سرداب القائم المهدي ومحلة أخرى بعيدة عنها يقال لها كرخ سامرّاء، وسائر ذلك خراب يباب يستوحش الناظر إليها بعد أن لم يكن في الأرض كلها مدينة أحسن منها ولا أجمل ولا أعظم ولا آنس ولا أوسع.

ثم ينقل عن المهلبي في كتابه «العزيزي» قوله: «جُزْتُ بسُرَّ من رأى منذ صلاة الصبح في شارع واحد، مادّ عليه من جانبيه دور كأن اليد رفعت عنها الوقت، لم تقدم إلا الأبواب والسقوف، فأما حيطانها فكالجديدة فما زلنا نسير إلى بعد الظهر حتى انتهينا في العمارة منها، وهي مقدار قرية يسيرة في وسطها، ثم سرنا من الغد على مثل ذلك الحال فما خرجنا من آثار البناء إلى النحو الظهر، ولا شك أن طول البناء، كان أكثر من ثمانية فراسخ[(1)]».

ومر ابن بطوطة في رحلته بالمشرق وذكر أنه «في العدوة الشرقية من هذا الحصن مدينة سرّ من رأى. وقد استولى الخراب على هذه المدينة فلم يبقَ منها إلا القليل، وهي معتدلة الهواء، رائعة، رائقة الحسن على بلائها ودروس معالمها، وفيها أيضاً مشهد صاحب الزمان كما بالحلة[(2)]».

ووصف القزويني إنشاءها وسرداب الغيبة ثم قال: «لم تزل سامرّاء في زيادة عمارة من أيّام المعتصم إلى أيام المستعين، فعند ذلك قويت شوكة الأتراك ووقعت المخالفة في الدولة، فلم تزل في نقص إلى زمان المعتضد بالله، فإنه انتقل إلى بغداد وترك سامرّاء بالكلية، فلم يبقَ بها إلا كرخ سامرّاء وموضع المشهد والباقي خراب يباب يستوحش الناظر إليها بعد أن لم يكن في الأرض أحسن ولا أجمل ولا أوسع ملكاً منها[(3)]».

---

(1) معجم البلدان ٣/ ٢٠-٢١ وانظر وصف المقريزي «لم يبقَ فيها عامر سوى مقدار يسير كالقلعة (صبح الأعشى ٤/ ٣٣٢).

(2) رحلة ابن بطوطة ١/ ١٣٧.

(3) آثار البلاد ٢٨٦.

نص فصل «سامرَّاء» في كتاب «البلدان» لليعقوبي (نشر دي غويه)، مع إشارة إلى ما نقله الحميري في «الروض المعطار».

قد ذكرنا بغداد وابتداء أمرها والوقت الذي بناها أبو جعفر المنصور فيه، ووصفنا كيف هندست وقسمت أرباضُها وقطائعها وأسواقها ودروبها وسككها ومحالُّها في الجانب الغربي من دجلة وهو جانب المدينة والكرخ والجانب الشرقي وهو جانب الرصافة الذي يسمى عسكر المهدي، وقلنا في ذلك بما علمنا[1].

فلنذكر الآن سُرَّ من رأى وأنها المدينة الثانية من مدن خلفاء بني هاشم، وقد سكنها ثمانية خلفاء منهم المعتصم وهو ابتدأها وأنشأها، والواثق وهو هرون بن المعتصم، والمتوكل جعفر بن المعتصم، والمنتصر محمد بن المتوكل والمستعين أحمد بن محمد بن المعتصم، والمعتز أبو عبد الله بن المتوكل، والمهتدي محمد بن الواثق، والمعتمد أحمد بن المتوكل.

قال أحمد بن أبي يعقوب: كانت سرّ من رأى في متقدم الأيام صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة بها، وكان بها دير للنصارى بالموضع الذي صارت فيه دار السلطان المعروفة بدار العامة وصار الدير بيت المال؛ فلما قَدِم المعتصم بغداد مُنْصَرَفَه من طرسوس في السنة التي بويع له بالخلافة وهي سنة ثمان عشرة ومائتين نزل دار المأمون، ثم بنى داراً في الجانب الشرقي من بغداد؛ وانتقل إليها وأقام بها في سنة ثماني عشرة وتسع عشرة وعشرين وإحدى وعشرين ومائتين.

وكان معه خلق من الأتراك وهم يومئذٍ عجم، أعلمني جعفر الخشكي قد كان المعتصم يوجه بي في أيام المأمون إلى سمرقند إلى نوح بن أسد في شراء الأتراك فكنت أُقْدِم عليه في كل سنة منهم بجماعة فاجتمع له في أيام المأمون منهم زهاء ثلثة آلاف غلام، فلما أفضت إليه الخلافة ألحَّ في طلبهم واشترى من

(١) النص التالي نقله الحميري في «الروض المعطار» ٣٠٠ طبعة إحسان عباس.

كان ببغداد من رقيق الناس، كان ممن اشترى ببغداد جماعة جملة منهم أشناس وكان مملوكاً لنعيم بن حازم أبي حازم أبي هارون بن نعيم، وإيتاخ كان مملوكاً لسلام بن الأبرش ووصيف كان زرّاداً مملوكاً لآل النعمان، وسيما الدمشقي وكان مملوكاً لذي الرئاستين الفضل بن سهل.

وكان أولئك الأتراك العجم إذا ركبوا الدواب ركضوا فيصدمون الناس يميناً وشمالاً فيثب عليهم الغوغاء فيقتلون بعضاً وتذهب دماؤهم هدراً لا يعدون على من فعل ذلك؛ فثقل ذلك على المعتصم وعزم على الخروج من بغداد فخرج إلى الشمّاسية وهو الموضع الذي كان المأمون يخرج إليه فيقيم به الأيام والشهور؛ فعزم أن يبني بالشماسية خارج بغداد مدينة، فضاقت عليه أرض ذلك الموضع وكره أيضاً قربها من بغداد، فمضى إلى البردان بمشورة الفضل بن مروان، وهو يومئذٍ وزير وذلك في سنة إحدى وعشرين ومائتين.

وأقام بالبردان أياماً وأحضر المهندسين، ثم لم يرضَ الموضع، فصار إلى موضع يقال له باحمشا من الجانب الشرقي من دجلة، فقدّر هناك مدينة على دجلة؛ وطلب موضعاً يحفر فيه نهراً فلم يجده فنفذ إلى القرية المعروفة بالمطيرة فأقام بها مدة.

ثم مد إلى القاطول فقال: هذا أصلح المواضع فصير النهر المعروف بالقاطول وسط المدينة ويكون البناء على دجلة وعلى القاطول؛ فابتدأ البناء وأقطع القواد والكُتّاب والناس(٢٥٧) فبنوا حتى ارتفع البناء، واختطت الأسواق على القاطول وعلى دجلة وسكن هو في بعض ما بُنِيَ له وسكن الناس أيضاً، ثم قال: أرض القاطول غير طائلة وإنما هي حصى وأفهار، والبناء بها صعب جداً، وليس لأرضها سعة.

ثم ركب متصيداً فمر في مسيره حتى صار إلى موضع سُرَّ مَنْ رأى وهي صحراء من أرض الطيرهان لا عمارة بها ولا أنيس فيها إلا دير للنصارى[1]،

---

(١) هنا ينتهي نقل الحميري ٤٥٠.

فوقف بالدير وكلّم من فيه من الرهبان وقال ما اسم هذا الموضع فقال له بعض الرهبان نجد في كتبنا المتقدمة أن هذا الموضع يُسمَّى سرّ من رأى وأنه كان مدينة سام بن نوح وأنه سيعمر بعد الدهور على يد ملك جليل مظفر منصور له أصحاب كأنَّ وجوههم وجوه طير الفلاة، ينزلها وينزلها ولده، فقال أنا والله أبنيها وأنزلها وينزلها ولدي، ولقد أمر الرشيد يوماً أن يخرج ولده إلى الصيد فخرجت مع محمد والمأمون وأكابر ولد الرشيد فاصطاد كل واحد منا صيداً واصطدت بومة، ثم انصرفنا وعرضنا صيدنا عليه، فجعل من كان معنا من الخدم يقول هذا صيد فلان وهذا صيد فلان حتى عرض عليه صيدي، فلما رأى البومة وقد كان الخدم أشفقوا من عرضها لئلا يتطير بها أو ينالني منه غِلْظة فقال من صاد هذه؟ قالوا أبو إسحق، فاستبشر وضحك وأظهر السرور، ثم قال أما أنه يلي الخلافة ويكون جنده وأصحابه والغالبون عليه قوماً وجوههم مثل وجه هذه البومة، فيبني مدينة قديمة وينزلها بهؤلاء القوم ثم ينزلها ولده من بعده؛ وما سرّ الرشيد يومئذٍ بشيء من الصيد كما سرّ بصيدي لتلك البومة.

ثم عزم المعتصم على أن ينزل بذلك الموضع فأحضر محمد بن عبد الملك الزيات وابن أبي دؤاد وعمر بن فرج وأحمد بن خالد المعروف بأبي الوزير وقال لهم اشتروا من أصحاب هذا الدير هذه الأرض وادفعوا إليهم ثمنها أربعة آلاف دينار، ففعلوا ذلك، ثم أحضر المهندسين فقال اختاروا أصلح هذه المواضع فاختاروا عدة مواضع للقصور وصيَّر إلى كل رجل من أصحابه بناء قصر، فصيَّر إلى خاقان عرطوج أبي الفتح بن خاقان بناء الجوسق الخاقاني، وإلى عمر بن فرج بناء القصر المعروف بالعمري، وإلى أبي الوزير بناء القصر المعروف بالوزيري.

ثم خط القطائع للقواد والكتاب والناس، وخط المسجد الجامع، واختط الأسواق حول المسجد الجامع ووسعت صفوف الأسواق وجعلت كل تجارة منفردة وكل قوم على حدتهم على مثل ما رسمت عليه أسواق بغداد.

وكتب في أشخاص الفَعَلة والبنائين وأهل المهن من الحدادين والنجارين وسائر الصناعات، وفي حمل الساج وسائر الخشب والجذوع من البصرة وما

والاها من بغداد وسائر السواد، ومن أنطاكية وسائر سواحل الشأم، وفي حمل عملة الرخام وفرش الرخام، فأقيمت باللاذقية وغيرها دور صناعة الرخام.

وأفرد قطائع الأتراك عن قطائع الناس جميعاً، وجعلهم معتزلين عنهم لا يختلطون بقوم من المولدين ولا يجاورهم إلا الفراغنة.

وأقطع أشناس وأصحابه الموضع المعروف بالكرخ وضم إليه عدة من قواد الأتراك والرجال وأمره أن يبني المساجد والأسواق، وأقطع خاقان عرطوج وأصحابه مما يلي الجوسق الخاقاني وأمر بضم أصحابه ومنعهم من الاختلاط بالناس، وأقطع وصيفاً وأصحابه مما يلي الحير، وبنى حائطاً سماه حائر الحيرة ممتداً. وصيرت قطائع الأتراك جميعاً والفراغنة العجم بعيدة من الأسواق والزحام في شوارع واسعة ودروب طوال ليس معهم في قطائعهم ودروبهم أحد من الناس يختلط بهم من تاجر ولا غيره، ثم اشترى لهم الجواري فأزوجهم منهن ومنعهم أن يتزوجوا ويصاهروا إلى أحد من المولدين إلى أن ينشأ لهم الولد فيتزوج بعضهم وأجرى لجواري الأتراك أرزاقاً قائمة وأثبت أسمائهن في الدواوين، فلم يكن يقدر أحد منهم يطلق امرأته ولا يفارقها.

ولما أقطع أشناس التركي في آخر البناء مغرباً وأقطع أصحابه معه وسمى الموضع الكرخ أمره أن لا يطلق لغريب من تاجر ولا غيره مجاورتهم ولا يطلق معاشرة المولدين، فأقطع قوماً آخرين فوق الكرخ وسماه الدور وبنى لهم في خلال الدور والقطائع المساجد والحمّامات وجعل في كل موضع سويقة فيها عدة حوانيت للفامبيين والقثّابين، ومن أشبههم ممن لا بدّ لهم منه ولا غنى عنه.

وأقطع الأفشين خيدر بن كاوس الأشروسني في آخر البناء مشرقاً على قدر فرسخين وسمّى الموضع المطيرة فأقطع أصحابه الأشروسنية وغيرهم من المضمومين إليه حول داره وأمره أن يبني فيما هناك سويقة فيها حوانيت للتجار فيما لا بدّ منه ومساجد وحمّامات.

واستقطع الحسن بن سهل بين آخر الأسواق، وكان آخرها الجبل الذي صار فيه خشبة بابك وبين المطيرة موضع قطيعة أفشين وليس في ذلك الموضع يومئذٍ شيء من العمارات، ثم أحدقت العمارة به حتى صارت قطيعة الحسن بن سهل وسط سرّ من رأى. وامتد بناء الناس من كل ناحية واتصل البناء بالمطيرة، وجعلت الشوارع لقطائع قواد خراسان وأصحابهم من الجند والشاكرية وعن يمين الشوارع ويسارها الدروب، فيها منازل الناس كافة، وكان الشارع المعروف بالسريجة وهو الشارع الأعظم ممتداً من المطيرة إلى الوادي المعروف في هذا الوقت بوادي إسحق بن إبراهيم انتقل من قطيعته في أيام المتوكل فبنى على رأس الوادي واتسع في البناء، ثم قطيعة إسحق بن يحيى بن معاذ، ثم تتصل قطائع الناس يمنة ويسرة في هذا الشارع الأعظم وفي دروب من جانبي الشارع الأعظم تنفذ إلى شارع يعرف بأبي أحمد، وهو أبو أحمد بن الرشيد، من أحد الجانبين وتنفذ إلى دجلة وما قرب منها من الجانب الآخر، وتمر القطائع إلى ديوان الخراج الأعظم وهو في هذا الشارع الكبير.

وفي هذا الشارع قطائع قواد خراسان منها قطيعة هاشم بن بانيجور وقطيعة عجيف بن عنبسة وقطيعة الحسن بن علي المأموني، وقطيعة هرون بن نعيم، وقطيعة حزام بن غالب، وظهر قطيعة حزام الاصطبلات لدواب الخليفة الخاصة والعامة يتولاها حزام ويعقوب أخوه، ثم مواضع الرطابين وسوق الرقيق في مربعة فيها طرق متشعبة فيها الحُجر والغرف والحوانيت للرقيق، ثم مجلس الشرط والحبس الكبير، ومنازل الناس والأسواق في هذا الشارع يمنة ويسرة مثل سائر البياعات والصناعات، ويتصل ذلك إلى خشبة بابك ثم السوق العظمى تختلط بها المنازل كل تجارة منفردة وكل أهل مهنة لا يختلطون بغيرهم، ثم الجامع القديم الذي لم يزل يجمع فيه إلى أيام المتوكل فضاق على الناس فهدمه وبنى مسجداً جامعاً واسعاً في طرف الحير (٢٦١) المسجد الجامع والأسواق من أحد الجانبين، ومن الجانب الآخر القطائع والمنازل وأسواق أصحاب البياعات الدنية مثل أصحاب الفقاع والهرائس والشراب، وقطيعة راشد المغربي، وقطيعة مبارك المغربي، وسويقة مبارك، وجبل جعفر الخياط وفيه

كانت قطيعة جعفر، ثم قطيعة أبي الوزير، ثم قطيعة العباس بن علي بن المهدي، ثم قطيعة عبد الوهاب بن علي بن المهدي.

ويمتد الشارع وفيه قطائع عامة إلى دار هرون بن المعتصم وهو الواثق عند دار العامة وهي الدار التي نزلها يحيى بن أكثم في أيام المتوكل لما ولاه قضاء القضاة ثم باب العامة ودار الخليفة وهي دار العامة التي يجلس فيها يوم الإثنين والخميس، ثم الخزائن، خزائن الخاصة وخزائن العامة، ثم قطيعة مسرور سمانة الخادم وإليه الخزائن ثم قطيعة قرقاس الخادم وهو خراساني، ثم قطيعة ثابت الخادم، ثم قطيعة أبي الجعفاء وسائر الخدم الكبار.

والشارع الثاني يعرف بأبي أحمد وهو أبو أحمد بن الرشيد أول هذا الشارع من المشرق داره بختيشوع المتطبب التي بناها في أيام المتوكل، ثم قطائع قواد خراسان وأسبابهم من العرب ومن أهل قم وأصبهان وقزوين والجبل وأذربيجان يمنة في الجنوب مما يلي القبلة فهو نافذ إلى شارع السريجة الأعظم وما كان مما يلي الشمال ظهر القبلة فهو نافذ إلى شارع أبي أحمد ديوان الخراج الأعظم وقطيعة عمر وقطيعة للكتاب وسائر الناس وقطيعة أبي أحمد بن الرشيد في وسط الشارع، وفي آخره مما يلي الوادي الغربي الذي يقال له وادي إبراهيم بن رباح، قطيعة بن أبي دواد وقطيعة الفضل بن مروان، وقطيعة محمد بن عبد الملك الزيات، وقطيعة إبراهيم بن رباح في الشارع الأعظم. ثم تتصل الإقطاعات في هذا الشارع وفي الدروب إلى يمنته ويسرته إلى قطيعة بغا الصغير ثم قطيعة بغا الكبير ثم قطيعة سيما الدمشقي، ثم قطيعة برمش، ثم قطيعة وصيف القديمة، ثم قطيعة إيتاخ، ويتصل ذلك إلى باب البستان وقصور الخليفة،.

والشارع الثالث شارع الحير الأول الذي صارت فيه دار أحمد بن الخصيب في أيام المتوكل، فأصل هذا الشارع من المشرق ومن الوادي المتصل بوادي إسحق بن إبراهيم وفيه قطائع الجند والشاكرية وأخلاط الناس، ويمتد إلى وادي إبراهيم بن رباح.

والشارع الرابع يعرف بشارع برغامش التركي فيه قطائع الأتراك والفراغنة، فدروب الأتراك منفردة، ودروب الفراغنة منفردة، والأتراك في الدروب التي في القبلة والفراغنة بإزائهم بالدروب التي في ظهر القبلة، كل درب بإزاء درب لا يخالطهم أحد من الناس. وآخر منازل الأتراك وقطائعهم قطائع الخزر مما يلي المشرق. أول هذا الشارع من المطيرة عند قطائع الأفشين التي صارت لوصيف وأصحاب وصيف، ثم يمتد الشارع إلى الوادي الذي يتصل بوادي إبراهيم بن رياح.

والشارع الخامس يعرف بصالح العباسي وهو شارع الأسكر فيه قطائع الأتراك والفراغنة والأتراك أيضاً في دروب منفردة، والفراغنة في دروب منفردة ممتدة من المطيرة إلى دار صالح العباسي التي على رأس الوادي، ويتصل ذلك بقطائع القواد والكتاب والوجوه والناس كافة.

ثم شارع خلف شارع الأسكر يقال له الحير الجديد فيه أخلاط من سائر الناس من قواد الفراغنة والأشروسنية والأشتاخنجية وغيرهم من سائر كور خراسان.

وهذه الشوارع التي من الحير كلما اجتمعت إلى إقطاعات لقوم هُدم الحائط وبني خلفه حائط وبني خلفه حائطٌ غيره، وخلف الحائط الوحش من الظباء والحمير الوحش والأيايل والأرانب والنعام، وعليها حائط يدور في صحراء حسنة واسعة.

والشارع الذي على دجلة يسمّى شارع الخليج وهناك الفُرَض والسفن والتجارات التي ترد من بغداد وواسط وكسكر وسائر السواد من البصرة والأبلة والأهواز وما اتصل بذلك ومن الموصل وبعربايا وديار ربيعة وما اتصل بذلك، وفي هذا الشارع قطائع المغاربة كلهم أو أكثرهم، والموضع المعروف بالأزلاخ الذي عُمر بالرجالة المغاربة في أول ما اختطت سرّ من رأى.

واتسع الناس في البناء بسرّ من رأى أكثر من اتساعهم ببغداد، وبنوا المنازل الواسعة، إلا أن شربهم جميعاً من دجلة مما يحمل في الرَّوايا على

البغال وعلى الإبل لأن آبارهم بعيدة الرشاء، ثم هي مالحة غير سائغة فليس لها اتساع في الماء، ولكن دجلة قريبة والروايا كثيرة.

وبلغت غلات ومستغلات سرّ من رأى وأسواقِها عشرة آلاف درهم في السنة، وقرب محمل ما يؤتى به من الميرة من الموصل وبعربايا وسائر ديار ربيعة في السفن في دجلة فصلحت أسعارهم.

ولما فرغ المعتصم من الخطط ووضع الأساس للبناء في الجانب الشرقي من دجلة وهو جانب سرّ من رأى عقد جسراً إلى الجانب الغربي من دجلة فأنشأ هناك العمارات والبساتين والأجنة وحفر الأنهار من دجلة، وصيَّر إلى كل قائد عمارة ناحية من النواحي، وحمل النخل من بغداد والبصرة وسائر السواد وحملت الغروس من الجزيرة والشام والجبل والري وخراسان وسائر البلدان، فكثرت المياه في هذه العمارة في الجانب الشرقي بسرّ من رأى، وصلح النخل ونبتت الأشجار وزكت الثمار وحسنت الفواكه وحسن الريحان والبقل وَزَرَع الناس أصناف الزرع والرياحين والبقول والرطاب وكانت الأرض مستريحة ألوف سنين فزكا كل ما غرس فيها وزرع بها حتى بلغت غلة العمارات بالنهر المعروف بالإسحاقي وما عليه، والإيتاخي والعمري والعبد الملكي ودالية ابن حماد والمسروري وسيف والعربات المحدثة وهي خمس قرى، والقرى السفلى وهي سبع قرى والأجنة والبساتين وخراج الزرع أربع مائة ألف دينار في السنة[1].

وأقدم المعتصم من كل بلد من يعمل عملاً من الأعمال أو يعالج مهنة من مهن العمارة والزرع والنخل والغروس وهندسة الماء ووزنه واستنباطه والعلم بمواضعه من الأرض، وحمل من مصر من يعمل القراطيس وغيرها، وحمل من البصرة من يعمل الزجاج و الخزف والحصر، وحمل من الكوفة من يعمل الخزف ومن يعمل الأدهان ومن سائر البلدان من أهل كل مهنة وصناعة فأنزلوا

(١) نقل الحميري الفقرات التالية ٥٠٧.

بعيالهم بهذه المواضع وأُقطعوا فيها وجعل هناك أسواقاً لأهل المهن بالمدينة. وبنى المعتصم العمارات قصوراً وصير في كل بستان قصراً فيه مجالس وبرك وميادين، فحسنت العمارات ورغب وجوه الناس في أن يكون لهم بها أدنى أرض وتنافسوا في ذلك، وبلغ الجَرِيب من الأرض مالاً كبيراً. ومات المعتصم بالله سنة سبع وعشرين ومائتين وَوَلِيَ الخلافةَ هارون الواثق بن المعتصم فبنى الواثق القصر المعروف بالهاروني على دجلة وجعل فيه مجالس في دكة شرقية ودكة غربية، وانتقل إليه، وزادت الإقطاعات وقرَّب قوماً وباعد ديار قوم على الإحظاء لا على الإبعاد فأقطع وصيفاً دار أفشين التي بالمطيرة وانتقل وصيف عن داره القديمة إلى دار أفشين ولم يزل يسكنها وكان أصحابه ورجاله حوله، وزاد في الأسواق، وعَظُمت الفُرص التي تردها السفن من بغداد وواسط والبصرة والموصل، وجدد الناس البناء وأحكموه وأتقنوه لما علموا أنها قد صارت مدينة عامرة وكانوا قبل ذلك يسمونها العسكر ثم توفي الواثق في سنة اثنتين وثلثين ماتين، وَوَلِيَ جعفر المتوكل بن المعتصم فنزل الهاروني وآثره على جميع قصور المعتصم، وأنزل ابنه محمداً المنتصر قصر المعتصم المعروف بالجوسق، وأنزل ابنه إبراهيم المؤيد بالمطيرة وأنزل ابنه المعتز خلف المطيرة مشرقاً بموضع يقال له بلكوارا، فاتصل البناء من بلكوارا إلى آخر الموضع المعروف بالدور مقدار أربعة فراسخ وزاد في شوارع الحير شارع الأسكر والشارع الجديد وبنى المسجد الجامع في أول الحير في موضع واسع خارج المنازل لايتصل به شيء من القطائع والأسواق، وأتقنه ووسعه وأحكم بناءه وجعل فيه فوارة ماء لا ينقطع ماؤها، وجعل الطرق إليه من ثلثة صفوف واسعة عظيمة من الشارع الذي يأخذ من وادي إبراهيم بن رياح في كل صف حوانيت فيها أصناف التجارات والصناعات والبياعات، عرض كل صف مائة ذراع بالذراع السوداء لئلا يضيق عليه الدخول إلى المسجد إذا حضر المسجد في الجُمع في جيوشه وجموعه وبخيْله ورجاله ومن كل صفٍ إلى الصفّ الذي يليه دروب وسكك فيها قطائع جماعة من عامة الناس فاتسعت على الناس المنازل والدور واتسع أهل الأسواق والمهن والصناعات في تلك الحوانيت والأسواق التي في صفوف المسجد الجامع وأقطع نجاح بن سلمة الكاتب في آخر

الصفوف مما يلي قبلة المسجد، وأقطع أحمد بن اسرايل الكاتب أيضاً بالقرب من ذاك، وأقطع محمد بن موسى المنجم وأخوته وجماعة من الكتّاب والقواد والهاشميين وغيرهم، وعزم المتوكل أن يبتني مدينة ينتقل إليها وتنسب إليه ويكون له بها الذكر فأمر محمد بن موسى المنجم ومن يحضر بابه من المهندسين أن يختاروا موضعاً فوقع اختيارهم على موضع يقال له الماحوزة وقيل له إن المعتصم قد كان على أن يبني هاهنا مدينة ويحفر نهراً قد كان في الدهر القديم، فاعتزم على ذلك وابتدأ النظر فيه في سنة خمس وأربعين ومائتين، ووجّه في حفر ذلك النهر ليكون وسط المدينة، فقدر النفقة على النهر ألف ألف وخمسمائة ألف دينار، فطاب نفساً بذلك ورضي به وابتدأ الحفر وأنفقت الأموال الجليلة على ذلك النهر واختط موضع قصوره ومنازله وأقطع ولاة عهوده وسائر أولاده وقواده وكتّابه وجنده والناس كافة.

ومد الشارع الأعظم من دار أشناس التي بالكرخ وهي التي صارت للفتح ابن خاقان مقدار ثلاثة فراسخ إلى قصوره، وجعل دون قصوره ثلثة أبواب عظام جليلة يدخل منها الفارس برمحه، وأقطع الناس يَمْنَةَ الشارع الأعظم ويَسْرَته وجعل عرض الشارع الأعظم مائتي ذراع وقدّر أن يحفر جنبي الشارع نهرين يجري فيهما الماء من النهر الكبير الذي يحفره.

وبنيت القصور وشيدت الدور وارتفع البناء وكان يدور بنفسه فمن رآه قد جدّ في البناء أجازَه وأعطاه، فجدّ الناس وسمّى المتوكل هذه المدينة الجعفرية، واتصل البناء من الجعفرية إلى الموضع المعروف بالدور ثم بالكرخ وسرّ من رأى ماداً إلى الموضع الذي كان ينزله ابنه أبو عبيد الله المعتز ليس بين شيء من ذلك فضاءٌ ولا فرج ولا موضع لا عمارة فيه فكان مقدار ذلك سبعة فراسخ،

وارتفع البنيان في مقدار سنة وجُعلت الأسواق في موضع معتزل وجُعل في كل مربعة وناحية سوقاً؛ وبُنِيَ المسجد الجامع.

وانتقل المتوكل إلى قصور هذه المدينة أول يوم من المحرم سنة سبع وأربعين ومائتين، فلما جلس أجاز الناس بالجوائز السنية ووصلهم وأعطى جميع

القواد والكتّاب ومن تولى عملاً من الأعمال؛ وتكامل له السرور وقال الآن علمت أني ملك إذْ بنيت لنفسي مدينة سكنتها.

ونُقلت الدواوين ديوان الخراج وديوان الضياع وديوان الزمام وديوان الجند والشاكرية وديوان الموالي والغلمان وديوان البريد وجميع الدواوين.

إلا أن النهر لم يتم أمره ولم يجرِ الماء فيه إلا جرياً ضعيفاً لم يكن له اتصال ولا استقامة على أنه قد أنفق عليه شبيهاً بألف ألف دينار، ولكن كان حفره صعباً جداً إنما كانوا يحفرون حصاً وأفهارًا لا يعمل فيها المعاول وأقام المتوكل نازلاً في قصوره بالجعفرية تسعة أشهر وثلثة أيام وقتل لثلاث خلون من شوال سنة سبع وأربعين ومائتين في قصره الجعفري أعظم القصور شؤماً ووُلِيَ محمد المنتصر بن المتوكل فانتقل إلى سُرَّ من رأى وأمر الناس جميعاً بالانتقال عن الماحوزة وأن يهدموا المنازل ويحملوا النقض إلى سرّ من رأى فانتقل الناس وحملوا نقض المنازل إلى سرّ من رأى وخربت قصور الجعفري ومنازله ومساكنه وأسواقه في أسرع مدة وصار الموضع موحشاً لا أنيس به ولا ساكن فيه والديار بلاقع كأنها لم تعمر ولم تسكن.

ومات المنتصر بسُرَّ من رأى في شهر ربيع الآخر سنة ثمان وأربعين ومائتين، ووَلِيَ المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم فأقام بسرّ من رأى سنتين وثمانية أشهر حتى اضطربت أموره فانحدر إلى بغداد في المحرم سنة إحدى وخمسين ومائتين فأقام بها يحارب أصحاب المعتز سنة كاملة والمعتز بسرّ من رأى معه الأتراك وسائر الموالي، ثم خُلع المستعين ووَلِيَ المعتز فأقام بها حتى قتل ثلث سنين وسبعة أشهر بعد خلع المستعين وبويع محمد المهتدي ابن الواثق في رجب سنة خمس وخمسين ومائتين فأقام حولاً كاملاً ينزل الجوسق حتى قتل رحمه الله ووَلِيَ أحمد المعتمد ابن المتوكل فأقام بسرّ من رأى في الجوسق وقصور الخلافة ثم انتقل إلى الجانب الشرقي بسرّ من رأى فبنى قصراً موصوفاً بالحسن سماه المعشوق فنزله فأقام به حتى اضطربت الأمور فانتقل إلى بغداد ثم إلى المدائن.

ولسرّ من رأى منذ بُنِيَتْ وسُكِنَتْ إلى الوقت الذي كتبنا فيه كتابنا هذا خمس وخمسون سنة ملك بها ثمانية خلفاء مات وقتل فيها خمسة، المعتصم والواثق والمنتصر والمعتز والمهتدي وقتل في حريمها وفي ما هو متصل بها وقريب منها اثنان المتوكل والمستعين واسمها في الكتب المتقدمة زوراء بني العباس ويصدِّق ذلك إن قيل مساجدها كلها مُزْورَّة فيها ازوِرار ليس فيها قبلة مستوية إلا أنها لم تخرب ولم يذهب اسمها.

المحتويات